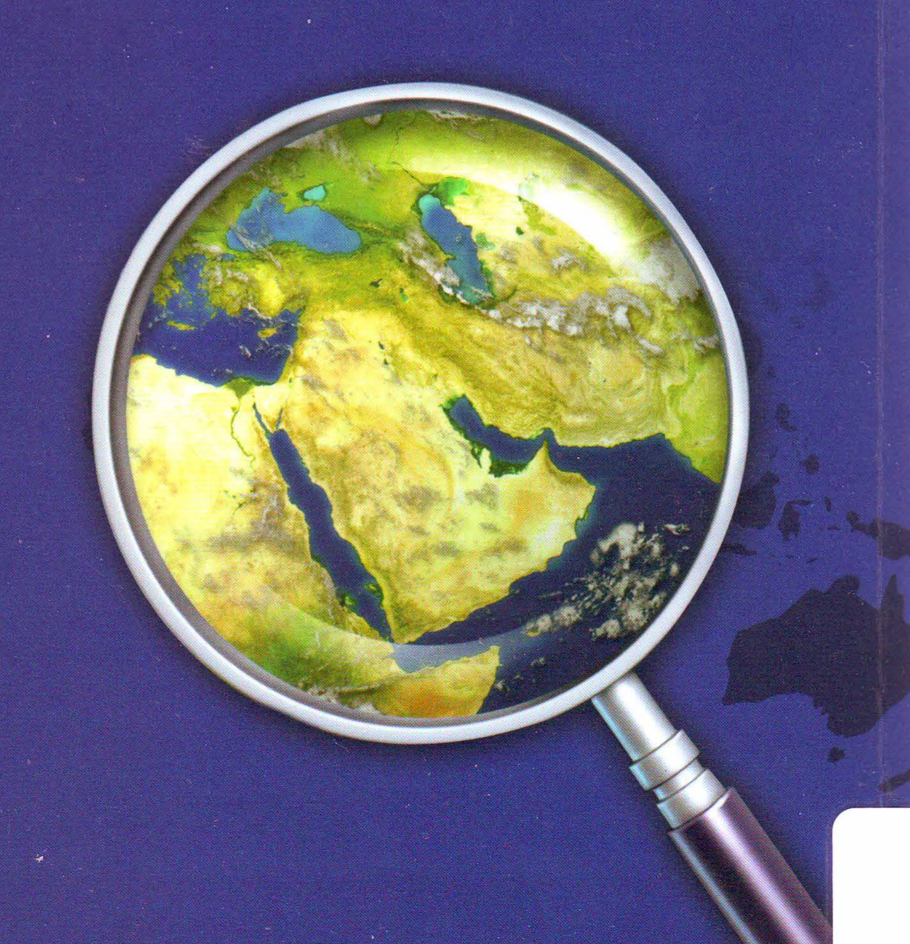
حسين العودات

صورة العرب لدى الآخر في ضوء العلاقات التاريخية



خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

حسين العودات

صورة العرب لدى الآخر
في ضوء العلاقات التاريخية



دار الساقي

الطبعة الأولى 2014

ISBN 978-6-14425-774-6

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

الإهـداء

إلى طلال سلمان



المحتويات

تقديم
ووضع في الإطار العام

طالما كررنا نحن العرب، في كل مناسبة، وبتعابير لا تخلو من الزهو والفخر وأحياناً من الغطرسة، أننا أفضل الأمم، انطلاقاً مما جاء في القرآن ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّة أُخْرِجَتْ للنَّاس﴾ (آل عمران/١١٠). وغالباً ما كنا نتناسى تتمة الآية ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوف وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران/١١٠)، أي أننا كنا نجرد الآية من قيودها وعقالها، ونجعلها مطلقة بدون شروط، مما يحوّل النظرة إلى الآخر إلى نظرة عنصرية لا شك فيها. وعلى أية حال، أخذ الرأي العام العربي مضمون النصف الأول من هذه الآية، وشكّل وعيه من خلال ثقافتها، وحوّل مضمونها إلى واحدة من أهم قيمه وممارسة سلوكه، وأضاف إليها مفاهيم أخرى لم ترد في القرآن ونسبها للنبي محمد على أنها من أحاديثه، مثل "أحب العرب لأنني عربي ولأن لغة أهل الجنة هي العربية"، وتحولت هذه الثقافة إلى نظرة عنصرية ومواقف عنصرية من الشعوب الأخرى على الأغلب وخاصةً في العقود الأولى من الفتوحات، مما يتناقض مع القرآن نفسه ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات/١٣) و"ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى" وليس بانتمائه العربي، و﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات/١٣) وليس أعرقكم حسباً ونسباً. وحتى لو اعتمدنا الحسب والنسب كمرجعية لتفضيل شخص على آخر أو شعب على آخر، فلا يستطيع العرب مباراة الفرس مثلاً في هذا المجال، وهم أهل الحسب والنسب والتاريخ القديم المجيد، وقد هيمنوا خلال هذا التاريخ على مناطق في العالم وصلت إلى اليونان ومصر فضلاً عن بلاد الشام والجزيرة العربية. ولعل

نزول الإسلام على العرب وحملهم رايته ونشره في بلدان العالم الأخرى، والقيام بالفتوحات، وإسقاط الإمبراطوريات الفارسية (الساسانية) والبيزنطية والحبشية، وهي الإمبراطوريات الرئيسية التي كانت تحكم العالم القديم قبل الإسلام، وتحقيق الظروف الموضوعية لسيادة العرب، كل هذا ساهم في إعلاء شأنهم (أي العرب) وتعميق بذور الفخر والشعور بالتفرّد الذي كان قبل الإسلام، وبالتالي عزّز الصلف والعنصرية لديهم، وشكّل ثقافتهم في ضوء هذه المفاهيم، وتجذّرها فيها، ودخولها أعماق هذه الثقافة، مع أن العرب كانوا قبل الإسلام، ورغم شعور بعض قبائلهم بالتفوق على القبائل الأخرى، وفخرهم بشعرهم وتقاليدهم وقيمهم، رغم هذا، كانوا يشعرون في أيام الجاهلية أحياناً بالدونية تجاه الدول المكتملة التأسيس المحيطة ببلادهم قبل خروجهم من جزيرتهم بهدف الفتوحات، وبهدف بناء إمبراطوريتهم وتحقيق مجالها الحيوي - دونية تجاه دول كانت تستعمر بعض أجزاء بلادهم، ويرون شعوبها وحضارتها وتقدمها مثلاً أعلى يستحيل عليهم بلوغه. وظهر هذا الشعور تجاه غلبة الآخر وتقدمه خلال خضوعهم للاستعمار الفارسي (الساساني) في جنوب العراق (المناذرة) وفي شرق الجزيرة العربية (البحرين خاصةً) وجنوبها (مسقط وعمان) وجنوبها الغربي (اليمن)، حيث خضعت هذه المناطق خلال فترات متعددة من التاريخ للحكم الفارسي (الساساني) وقبلت سيادته عليها. والأمر نفسه عندما استعمر البيزنطيون جنوب بلاد الشام (الغساسنة) وصولاً إلى العقبة، واستعمر الأحباش اليمن، وكادوا يحتلون مكة. وعلى أية حال، انقلب الشعور بالضعف والدونية الذي كان قبل الإسلام إلى شعور بالتفوق والصلف والعنصرية بعد نجاح الفتوحات. ولا لوم على العرب في ذلك، لأن الظروف الموضوعية التي سادت بعد الفتوحات الإسلامية، وخاصةً سيادتهم على قسم كبير من العالم القديم، وإسقاطهم أكبر إمبراطوريات عصرهم، وامتداد سلطانهم من جزيرة إيبيريا في أوروبا حتى الهند ووسط وجنوب شرق آسيا - كان هذا محرضاً على الشعور بالتفوق وعلى تعميق المفاهيم العنصرية التي سادت قروناً بعد ذلك، وساهم في تشكيل السلوك العربي المتناسب مع هذه المفاهيم الذي مارسه الحكام العرب في البلدان التي فتحوها، وبالتالي إعطاء أنفسهم الحق في تجاوز قيم وطقوس وعادات وتقاليد شعوب البلدان المفتوحة (وعدم احترامها أو الأخذ بها)، بل

في أحيان عديدة تجاوز قيم الإسلام وتعاليمه، بل والقيم والتقاليد العربية نفسها التي كانت سائدة قبل الإسلام. وقاموا، على الأقل، بتفسير هذه القيم والتقاليد (الإسلامية أو العربية) تفسيراً يُسهّل عليهم ممارسة العنجهية والتسلط، ومشهورة تلك الحادثة التي أجبر فيها أحد المسلمين الفرس على أن يطلّق زوجته العربية ويجلَد بأمر من الوالي[1]، لأنه تزوج من عربية، وذلك انسجاماً مع تلك المفاهيم، إضافةً للتعامل مع الآخر غير العربي إجمالاً بروح التعالي والصلف. ولعل هذه الممارسات التي مورست على الشعوب المغلوبة أبقت هذه الشعوب في موقع العدو المتحفز لطرد العرب من بلاده رغم تماهيه مع الثقافة العربية الإسلامية ومساهمته فيها، والشراكة في السلطة جزئياً في بعض الأحيان. وقد أدى هذا إلى موقف عدائي فعلي من قبل الشعوب الأخرى (أفراداً وجماعات) تجاه العرب، عبّر عن نفسه بالمحاولات الجادة من قبل هذه الشعوب لتولي السلطة في الإمبراطورية العربية الإسلامية (سلماً أو حرباً) منذ القرن الثاني، ولنا أمثلة في محاولات البرامكة الفرس والبويهيين والسلاجقة والمماليك، وقيام الدويلات العديدة التي تولتها أسر غير عربية مما أضعف بالتالي السلطة المركزية، وفقد العرب سلطتهم الفعلية بدءاً من القرن التاسع الميلادي وما بعد، وإن بقي الخليفة عربياً، حيث صارت الخلافة موقعاً رمزياً لا سلطة له، إلى أن أسقط المغول الخلافة العباسية عام ١٢٥٨م.

أسقط العرب الإمبراطورية الساسانية، وكانت قبل سقوطها بعقدين تحتل بلاد الشام ومصر وبعضاً من أراضي الإمبراطورية البيزنطية، فدمّر العرب خلال سنوات قليلة بنيانها السياسي ولغتها الفارسية وديانتها الزرادشتية، وتحول شعبها إلى شعب تحت الاحتلال، ذليلاً، مغلوباً على أمره، بما لم تشهده الإمبراطورية الساسانية ولم يشهده الفرس إجمالاً من قبل. والأصعب أن الغالبين العرب استطاعوا مع الزمن فرض دينهم ولغتهم وثقافتهم وقيمهم وتقاليدهم على الشعب الفارسي المغلوب، وأقنعوه (نظرياً) أنه مساوٍ لهم، مما ساهم في تدمير الإمبراطورية الساسانية واقعياً وعملياً، ولم يبقَ منها سوى لغةٍ مركونة جانباً وبقايا دينٍ مرفوضٍ إسلامياً ومُلكٍ مضاع. ولهذا كان مفهوماً موقف الفرس السلبي تجاه العرب منذ ذلك الوقت وإلى أيامنا، وما زال في

[1] انظر الحاشية رقم ١ وما بعد، ص٣٥.

الذاكرة الفارسية شيء من إمبراطوريتهم الساسانية ولغتهم الفارسية وآدابهم وثقافتهم وأساطيرهم بل ومن الديانة الزرادشتية. وهذا ما حرّض الفرس على الثورة خلال حكم العرب لهم، كما حرّضهم على محاولات مشاركة العرب في السلطة المركزية ونجاحهم أحياناً في ذلك (كما كان حال البرامكة) أو في تولّي الولايات، وكثيراً ما نجحوا في ذلك، وفي إشعال الثورات ضد الحاكم العربي لصالح حاكم عربي آخر كما هو حال أبي مسلم الخراساني[١]، أو التآمر مع خليفة ضد آخر مثلما حصل في تأييدهم للمأمون (وأمه فارسية) ضد أخيه الأمين (وأمه عربية). وقد حاول الصفويون الفرس فيما بعد، في القرن السادس عشر، إحياء الثقافة الفارسية والعصبية الفارسية. وعلى أية حال، كان الفرس يرون العرب أقل منهم ثقافةً وحضارةً وحسباً ونسباً، ولم يكونوا يرون أنّ لهؤلاء الحق في حكمهم، وبقيت نظرتهم سلبية تجاه العرب حتى عصرنا.

لم تكن الشعوب التركية كالفرس ثقافةً وحضارةً وتمدناً عند دخول الإسلام، فقد كانت هذه الشعوب قبائل (شبه بدوية) أقل حضارةً من العرب، وكانوا بعيدين عن الدولة المركزية العربية التي اكتفت منهم بدفع الإتاوات، وعيّنت عليهم حكاماً، ولم تتأسس ثقافة معادية للعرب في خلفياتهم الثقافية، كما لم يحقدوا عليهم، وبقيت علاقتهم متصالحة معهم، وقد أتاح لهم المتوكل أن يشاركوا في حكم البلاد، وصار نفوذهم عظيماً (خليفة في قفص بين وصيف وبغا*** يقول ما قالا له كما تقول الببغا). وأخيراً، ورغم احتلال الدولة العثمانية للبلدان العربية فيما بعد (أوائل القرن السادس عشر)، بقي العثمانيون والترك عامةً متصالحين مع العرب، ولعب الإسلام دوراً إيجابياً في هذا المجال، ذلك أن ديانات الشعوب التركية السابقة للإسلام كانت بدائية وشبه وثنية، وعندما دخلوا الإسلام تشبّثوا به وأثّر فيهم وتداعت ديانتهم المحلية أمام فلسفته وتعاليمه. وكانت نظرتهم إلى العرب، حملة الإسلام، فيها شيء من التقديس، مما لم يكن متوفراً لدى الفرس. وعندما قامت دولة المماليك (بل دول المماليك) في مصر والبلدان العربية المجاورة والأجنبية لم تضطهد العرب، بل ساهم المماليك عامةً في صد المغول والصليبيين وتزعّموا الحروب ضدهم وحافظوا على استقلال البلاد.

لقد شارك الفرس والأتراك السلطة المركزية العربية في الحكم منذ نهاية القرن

١ انظر الحاشية رقم ١، ص٣٤.

الثامن الميلادي ولقرون لاحقة (البرامكة، البويهيون، السلاجقة... وغيرهم) أو أقاموا دويلات لهم في ولايات ذات حكم ذاتي كانت لها علاقات واهية مع السلطة المركزية. وأدّى هذا إلى اختلاط وتماهٍ بين العرب والشعوب الآسيوية الأخرى، واستفاد كلٌ منها من ثقافة الآخر وتقاليده، وتشاركوا في بناء الإمبراطورية الإسلامية. وكان موقع صورة العرب في عمق ثقافة هذه الشعوب أقرب إلى الإيجابية والقبول بل والمودة، باستثناء تحفظات من بعض الشعب الفارسي للأسباب التي أشرنا إليها، مع التذكير أن الغالبين العرب كانوا دائماً يتعاملون باستعلاء مع الشعوب الأخرى، ويتصرفون معها على أساس أن أبناء هذه الشعوب مواطنون من الدرجة الثانية، وغالباً ما كان هؤلاء يقبلون هذا الواقع، ومثالنا الدولة البويهية الفارسية التي أظهرت حماساً للثقافة العربية وطوّرتها (تقرّباً من العرب) أكثر من الدولة المركزية العربية نفسها.

لم يقبل البيزنطيون الاستسلام للغالبين العرب، ولم يقعوا تحت حكمهم كما هو حال الفرس، بل انسحبوا من بلاد الشام وانكفأوا ما وراء جبال طوروس، واستمرت المناوشات بل والحروب بينهم وبين العرب والمسلمين عقوداً بل قروناً طويلة، ولم يستطع العرب بدورهم احتلال القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية. وقد اخترع البيزنطيون أسباباً عديدة لكره العرب بل واحتقارهم، منها أن نبيهم محمد كذاب ودجال، وأن دينهم الإسلامي مزيّف ومن اختراعه، وأن هذا الدين متأثر بأفكار المنشقين عن المسيحية وخاصةً النساطرة، وأن العرب متخلفون بل متوحشون دمويون هم ونبيهم، لا يؤتمن جانبهم، وأنهم ودينهم يشكّلون خطراً محدقاً بالإمبراطورية البيزنطية وبالدين المسيحي، فإضافةً إلى احتلالهم بلاد الشام ومصر وطرد البيزنطيين منها، فهم يسعون لإحلال الإسلام محل المسيحية. ولذلك تنامى لدى البيزنطيين كره العرب والمسلمين، وقد تبنّت شعوب أوروبا بعد عدة قرون هذا الموقف التأسيسي البيزنطي، واتّخذت في ضوئه، وفي ضوء الاحتلال العربي بعض جزيرة إيبيريا (الأندلس وما حولها)، موقفاً سلبياً جداً من العرب والمسلمين والإسلام، استمر قائماً في عمق ثقافة الشعوب الأوروبية ومؤثراً فيها حتى عصرنا الحاضر.

أما الصين وجنوب شرق آسيا فقد كانت بعيدة عن الدولة العربية والإسلامية

المركزية، ولم يكن بحسبان العرب أو في برامجهم أن "يفتحوا" تلك البلاد، وبدلاً من ذلك أقاموا معها علاقات احترام متبادل تعتمد على المصالح الاقتصادية والتجارية المشتركة. ولم تكن لدى شعوب الشرق الآسيوية الأسباب الموضوعية الكافية الكفيلة بغرس كره العرب في نفوسهم وفي أعماق ثقافتهم، وبقي القبول المتبادل بين هذه الشعوب وبين العرب والمسلمين قائماً حتى الآن، سواء التي أسلمت منها أم تلك التي بقيت على دينها.

أما في أوروبا فإن ما أشعل العداء بين العرب والمسلمين من جهة وشعوب أوروبا من جهة أخرى إنما هو "الفتح العربي" لجزيرة إيبيريا، وتقدم الفاتحين في أوروبا وصولاً إلى جنوب فرنسا، حيث خسروا معركة بواتييه الشهيرة. وبديهي أن هذا العداء جاء نتيجة شعور الأوروبيين بخطر الاحتلال العربي لبلادهم وإزالة إماراتهم وتهديد دينهم، وقد عمّق ذلك الكره والحقد واحتقار العرب الذي أسّس له البيزنطيون. ويذهب بعض المؤرخين إلى أن هذه المشاعر والمواقف الأوروبية من العرب لم تكن موجودة في الأندلس، لأن الأندلسيين، حسب هؤلاء المؤرخين، كانوا على المذهب النسطوري، منشقين عن المسيحية الملكانية، ولهم مواقفهم اللاهوتية من السيدة العذراء والتجسّد والتثليث والألوهية عامةً، وهي مواقف قريبة جداً من اللاهوت الإسلامي، ولذلك كان "فتح العرب" للأندلس سهلاً، بينما كان تقدمهم في أوروبا صعباً. وعلى أية حال، تأسس العداء بين الشعوب الأوروبية والعرب والمسلمين منذ القرن الثامن الميلادي ولم تستطع الأيام محوه أو إلغاءه أو القضاء عليه، بل زاد تأزماً واشتعالاً بعد بدء الغزو الفرنجي (الصليبي) للشرق، كما استمرت ناره مشتعلة بعد الغزو العثماني لأوروبا. وكان الأوربيون يخلطون بين العثمانيين والعرب باعتبارهم جميعهم مسلمين، وعبّرت الشعوب الأوروبية عن مواقفها من العرب المسلمين بشن "الغزوات الصليبية" عليهم، التي تبنّت زوراً وظاهرياً شعارات دينية غير حقيقية مثل إنقاذ قبر المسيح أو حماية مسيحيي الشرق أو ما أشبه ذلك. وفي الخلاصة أسّست الحروب الصليبية مع أسباب أخرى لعداء تاريخي عميق بين الشعوب الأوروبية والعرب المسلمين لم تشهده هذه الشعوب من قبل، واستمر الحذر والسجال والكره المتبادل ينمو طوال الألف الميلادية الثانية، وكان بدوره مؤسساً مع غيره من الأسباب الموضوعية للزحف الاستعماري

(الكولونيالي) فيما بعد على بلدان المشرق العربي.

لم يترك الفرنجة (وهو الاسم العربي للصليبيين) للعبر بقية، فقد ألقوا تهماً عديدة على العرب، منها أن دينهم خداع مطلق وأنهم دمويون ويمارسون الفظائع ضد المسيحيين العرب وغير العرب وضد قبر المسيح والأماكن المقدسة، وارتكب الأوروبيون جرائم عديدة وفظائع خلال حروبهم مع العرب في فلسطين وفي الساحل السوري – الفلسطيني، وحاولوا تبريرها بأن كل شيء مباح ضد هؤلاء المتخلفين الوثنيين المخادعين. وأدرك العرب مخاطر الغزو الصليبي، وافترضوه بحق موقفاً أوروبياً منهم ومطامع أوروبية سوف تستمر قروناً عديدة (وهذا ما حصل فعلاً) وصار الأوروبيون أعداء تاريخيين للعرب، وتشوّهت صورة العرب لديهم تشوهاً كبيراً. وتنبغي الإشارة هنا إلى أن جهل الشعوب الأوروبية والثقافة الأوروبية بالعرب والإسلام وتشويه صورتهم لعب دوراً سلبياً جداً في العلاقات بينهم وبين العرب طوال الألف الثانية وما زال يلعب حتى الآن.

تعزز هذا الموقف المعادي للعرب والمسلمين بعد الغزو العثماني لأوروبا، الذي تلا الحروب الصليبية، وربما كانت نتائجه مماثلة، مع اختلاف الأسباب وأساليب كل من الطرفين، وفي الخلاصة تعمّق الحذر المتبادل والكره المتبادل بين الشعوب الأوروبية من جهة والعرب والمسلمين من جهة أخرى. ومن المهم أن نشير إلى الدور السلبي لرجال الدين المسيحي الأوروبيين والكنيسة الكاثوليكية بشكل عام، وإلى مقتضيات الوضع الاقتصادي الذي كان متداعياً في أوروبا قبيل الزحف الفرنجي، والخلافات بل والصراعات بين رجال الدين ورجال السياسة على من تكون له اليد الطولى في الحكم، وغيرها من الأسباب التي لعبت دوراً هاماً في تأجيج الصراع الأوروبي – العربي الإسلامي.

بعد خروج أوروبا من القرون الوسطى، وبدء عصر النهضة، لم تتغير الهيكلية العامة للدولة والمجتمع فقط، بل نشأت قيم وتقاليد جديدة وعلاقات اقتصادية واجتماعية وسياسية جديدة، واحتاجت المجتمعات الأوروبية الجديدة، بعد تصنيعها، إلى مجال حيوي يقع أساساً في البلدان العربية (شرق المتوسطية ومصر وبلدان شمال أفريقيا)، كما تغيرت مفاهيم ثقافية أوروبية متعددة من الدولة والحريات والمساواة والعدالة وغيرها.

إلا أن المجتمعات الأوروبية ودولها في عصر النهضة مارست سياسة داخلية مختلفة عن سياستها الخارجية، فبقدر ما كانت تنحو داخلياً نحو تطبيق الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة، بقدر ما برّرت لنفسها خارجياً احتقار الشعوب الأخرى واعتبرتها شعوباً متخلفة على أوروبا مهمة تطويرها، وأباحت لنفسها استعمار هذه الشعوب وحكمها، كما استباحت ثرواتها وثقافاتها وغير ذلك. وأدركت في الوقت نفسه جهلها الكبير بهذه الشعوب وتاريخها وقيمها وتقاليدها وثقافتها، رغم العلاقات التي دامت قروناً معها ورغم مئتي عام من الاحتلال (الصليبي). وكان التواصل بين المنطقتين العربية والأوروبية مختلفاً في هذه المرحلة، أي مرحلة ما بعد النهضة، ولا يميل دائماً للحروب كوسيلة وحيدة ورئيسة، والأهم أنه كان لا بد للدول الأوروبية في عصر النهضة أن تقنع التيارات المتحررة فيها وتقنع شعوبها أيضاً بمسوّغات استعمار "شعوب الشرق"، فلجأت إلى أساليب جديدة مهّدت للهيمنة الأوروبية والاحتلال الأوروبي، أهمها: إرسال الرحّالة والمستشرقين أو تشجيعهم على القيام بالرحلات والاستشراق، واستغلّت معظمهم لتشويه صورة شعوب الشرق وتبرير احتلال هذه الشعوب. وقد شهدت المنطقة العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أفواجاً من الرحالة الذين زاروها أو زاروا بعضها، ووصفوا "مشاهداتهم" وصفاً ذاتياً وخاصاً، وغالباً ما كانوا يتقصّدون تشويه صورة شعوب المنطقة وقيمها وتقاليدها ودينها، وغالى بعض هؤلاء الرحالة والمستشرقين فوصفوا مناطق لم يزوروها على أنهم زاروها، واعتمدوا في وصفهم و"دراساتهم" على الإشاعات والأساطير والمبالغات والأكاذيب والتخيّل وما أشبهها، ليبرزوا "الجهود" التي بذلوها وخطورة مغامراتهم من جهة، وليشبعوا رغبة السياسيين الذين أرسلوهم إلى الشرق وأمّنوا لهم شروط نجاح الرحلة من جهة ثانية، فحدثت بالخلاصة حملة تزوير وتشويه قام بها هؤلاء الرحالة، والمستشرقون أيضاً، لم تشهد شعوب أخرى مثيلاً لها، وأعطت صورة عن العرب والمسلمين مشوّهة وسيئة، مما أقنع الرأي العام الأوروبي بضرورة غزو جيوشهم للشرق وعدم احترام قيم شعوبه ودينهم ومصالحهم. ولقيت الجيوش الأوروبية الغازية بعد ذلك الدعم والتأييد من الشعوب الأوروبية ومن الأوساط النافذة، ومن الكنيسة والمؤسسات الاحتكارية الاقتصادية والسياسية والثقافية، ومن شرائح المجتمع كافة،

واستفادت السياسة الغربية من الإرث البيزنطي المعادي للعرب والمسلمين ومن الحروب الصليبية والحروب في الأندلس، ومن نتائج الممارسات والغزو العثماني لأوروبا، حيث أسست جميعها كرهاً عميقاً للشعوب العربية وموقفاً رافضاً لصورتها وثقافتها ودينها، وأعاقت التواصل غير الاستعماري معها، سواء ما كان منه فلسفياً أو ثقافياً أو علمياً أو اقتصادياً، بعيداً عن الهيمنة والعداء.

بدأ الغرب الأوروبي استعمار البلدان العربية من شمال أفريقيا بما فيها مصر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر (باستثناء الجزائر التي احتلها في النصف الأول)، ثم بدأ استعمار بلاد الشام والعراق بعد هزيمة الإمبراطورية العثمانية في الحرب الأولى، وساعد هذا الاستعمار على أن يتعرف الأوروبيون أكثر على ثقافة المنطقة ودينها وأحوالها، إلا أنه لم يساعد على الابتعاد عن تشويه صورة شعوبها. وما أن بدأ استقلال البلدان العربية وطرد الاستعمارين البريطاني والفرنسي منها، الذي رافقه مناداة شعوب المنطقة بشعارات التحرر والكفاح المسلّح والاشتراكية وغيرها، حتى كثّف الغرب الأوروبي محاولاته لتشويه الصورة أكثر وأكثر، وكرّسها صورةً نمطية سلبية ثابتة غير قابلة للتطور أو التغير، ووظّف سلبية الصورة هذه لتبرير استعماره وعدوانه، وخلق بذلك إرثاً من العداء المتبادل بين شعوب أوروبا والشعوب العربية والإسلامية.

زاد الأمر سوءاً وتشوّهت الصورة أكثر فأكثر بعد قيام دولة إسرائيل، حيث ركَزت الدعاية الصهيونية جلّ جهدها على تشويه الصورة العربية وكسب شعوب أوروبا لدعم إسرائيل (الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط)، وذكّرت الدعاية الصهيونية شعوب أوروبا بالأفكار التي تداولتها الأوساط الأوروبية ومؤسساتها طوال تاريخ التواصل العربي الأوروبي، فقد ذكّرتهم مثلاً بوصف همجية العرب التي كان أجدادهم يؤمنون بها، وخمولهم وكسلهم وتخلّفهم وغيرها من الأوصاف والقيم، وساعدت على تعميق هذه الدعاية الصهيونية ممارسات الأنظمة الشمولية التي قامت في البلدان العربية، التي لم تكن تهتم بالديمقراطية ولا بمعايير الدولة الحديثة كالحرية والمساواة والعدالة وتكافؤ الفرص، مما عزز الإيمان بتخلف العرب البنيوي. واعتمدت هذه الدعاية على مقولة إنّ تملّك العرب للبترول يهدّد مستوى الحياة الأوروبية، بل مستقبل أوروبا والعالم، بسبب تلاعب "هؤلاء المتخلفين العرب" به وبأسعاره وبإدخاله في

الشؤون السياسية والصراعات السياسية. وتشاركت الدعاية الصهيونية بذلك مع بعض الأوساط الأوروبية العنصرية منها والاستعمارية والاقتصادية والاحتكارية، فتعززت الصورة العربية النمطية في ثقافة الأوروبيين المعاصرة، وأدخلت مواصفات هذه الصورة السلبية في الكتب المدرسية، وفي وسائل الإعلام والثقافة، وصارت قيماً جديدة تهيمن على الثقافة الأوروبية والفكر الأوروبي وكأنها بديهيات.

وبدءاً من ثمانينيات القرن العشرين دخل عامل جديد في تأكيد هذه الصورة النمطية السلبية، وتأكيد مواصفاتها التي تمّ رسمها خلال الألف عام الماضية، وهذا العامل هو الإرهاب، حيث مارست مجموعات عربية إسلامية إرهاباً أعمى داخل البلدان العربية وخارجها، وضد الأوروبيين خاصةً. ودون أن يدرس الأوروبيون أسباب الإرهاب وظروفه، بل دون أن يعرّفوه، استغلّته دعاية أوساطهم والأوساط المعادية والصهيونية لتقضي على أية بقايا "فلتت" من مواصفات الصورة النمطية السلبية، ولتكرّس صورة العرب على أنهم مجموعة من المتخلفين المتعصبين الهمجيين، ولتؤكّد أن الإسلام دين تعصب وإرهاب وعدوان واعتداء. وبالغت هذه الأوساط في موقف الإسلام من المرأة ومن الحدود (العقوبات على المحرّمات) ومن غيرها، كما استغلّت عدد المهاجرين الكبير المعاصر في المجتمعات الأوروبية وتزايده، وبطء تماهيهم بل تأقلمهم مع المجتمعات التي يعيشون فيها وتمثّلهم قيمها، لتزيد عداءها للعرب والمسلمين وتزيد تشويه صورتهم لدى الرأي العام الأوروبي والعالمي.

يحاول هذا الكتاب أن يلقي ضوءاً على صورة العرب في ثقافة الشعوب الأخرى من خلال العلاقات التاريخية التي قامت بين هذه الشعوب وبين العرب، ويفصّل في بعض الجوانب بما يساعد على رصد الصورة الحالية لدى هذه الشعوب ومواقفها من العرب في أيامنا الحاضرة، ويشير، في جوانب أخرى، إشارة مختصرة إليها.

من البديهي أن أتوجّه بالشكر لكل من ساعدني في إعداد هذا الكتاب، سواء في إبداء الآراء والمقترحات أو في رقن الكتاب ومراجعته وتدقيقه وإعداد ملاحقه، وأعبّر للجميع عن شكري وامتناني.

المؤلف

الفصل الأول

ما زال الفرس فرساً و"ساسانيين"

يا لثارات يزدجرد!

تمهيد

لم تكن صورة العرب لدى الفرس ناصعة البياض قبل الإسلام، لأن هؤلاء كانوا يعتبرون العرب شعباً متخلفاً منغلقاً على نفسه في الجزيرة، في الوقت الذي كان فيه الفرس يهيمنون على بلاد المناذرة (جنوب العراق) وعلى البحرين والأطراف الشرقية من الجزيرة العربية، وعلى حضرموت وعُمان وبعض اليمن، حيث قدمت جيوشهم إلى هناك وطردت الأحباش واحتلت اليمن، وبقي جنوب الجزيرة العربية تحت الهيمنة أو الاحتلال الفارسي حتى مجيء الإسلام وتوحيد شبه الجزيرة العربية تحت رايته وتحريرها شمالاً وجنوباً. وقبل ذلك بقرون، كما جاء في الآثار السبئية التي اكتُشفت في رأس الخيمة، قامت الملكة بلقيس بزيارة المنطقة وشكّلت مملكة بمثابة حماية للمنطقة ضد الإمبراطورية الفارسية. وبعد أن ضعف السبئيون بسبب تدهور تجارة البخور مع الروم احتلّ الفرس المنطقة الساحلية. وبالمقابل لم تكن صورة العرب السلمين لدى الفرس ناصعة البياض ومستحبّة، خاصةً بعد قدوم العرب المسلمين وغزو جيوشهم بلاد فارس وانهيار الإمبراطورية الساسانية، وتحويل الفرس إلى رعايا في الدولة العربية الإسلامية، ناقصي الحقوق أحياناً ومحتقرين أحياناً أخرى ولم يكونوا متساوين في كل الأحايين. وهكذا كانت العلاقات بين الطرفين غير ودية غالباً خلال مراحل التاريخ المختلفة، وقد تراكم حذر كل منهما من الآخر في عمقه الثقافي حتى عصرنا الحالي، رغم التكاذب الظاهري القائم بين الفرس من جهة والعرب من جهة أخرى، وخاصةً من الجانب الفارسي.

حاول الفرس، بعد انهيار إمبراطوريتهم وسيادة الحكم العربي الإسلامي، السيطرة على الدولة العربية الإسلامية من داخلها، وهذا ما حاوله البرامكة وفشلوا، كما حاولوا

إسقاط الإمبراطورية العربية الإسلامية بالثورة عليها وفشلوا أيضاً، مثل محاولة أبي مسلم الخراساني ومحاولات استهدفت زعزعة كيان الدولة من خلال تأسيس حركات الراوندية والمقنّع وسنباذ وبابك الخرمي والأفسين وغيرها. وبقي موقفهم السلبي من العرب دفيناً، لأن هؤلاء العرب هم الذين أسقطوا إمبراطوريتهم ودمّروها، واجتثوا دينهم الزرادشتي، وهمشّوا لغتهم الفارسية، وألغوا تقاليدهم وطقوسهم، وزعزعوا قيمهم التي كانت سائدة. ورغم أن الفرس أعادوا إقامة "دويلات" عديدة في البلاد التي كانت تحت سلطة الإمبراطورية الساسانية قبل الإسلام وفي بلاد أخرى مجاورة لها، إلا أن ذلك لم يكن كافياً لهم، لأن الأمر هنا لم يكن يتجاوز أن أسراً فارسية كانت تحكم هذه الدويلات، ولكن نمط الحياة والمجتمع وجوهره وقوانينه وفلسفته ولغته وتقاليده وتبعيته كانت عربية إسلامية خالصة، ويحتاج الحاكم إلى الاعتراف به من الخليفة والسلطة المركزية في بغداد، حتى لو كان هذا الاعتراف صورياً، ولذلك لم يتجاوز الحكم الفارسي في هذه الإمارات أو الدويلات وجود أسرة فارسية على رأس السلطة (الوراثية)، أي أنه لم يكن أكثر من حكم ذاتي في إطار الدولة العربية الكبرى.

حاول الفرس التشيّع لآل البيت على أمل أن يستخدموا هذا التشيع وسيلةً لإضفاء صفة أخرى على الإسلام لا تخلو من التأثيرات الفارسية والثقافة الفارسية، كي يحوّلوه إلى إسلام فارسي، مما يعفيهم من الذوبان في الحضارة العربية الإسلامية والتماهي معها. وقد بدا هذا الأمر واضحاً أيام الصفويين[١]، وخاصةً أيام عباس الأول الذي حاول أن يرغم السنّة على الدخول في المذهب الشيعي، أي أن يجبرهم على التشيّع،

١ نجح الصفويون في الوصول إلى الحكم (في بعض المناطق) أثناء زعامة جنيد ثم حيدر، اللذين استطاعا إنشاء تنظيم سياسي وتكوين وحدات خاصة من الجيش مكوّنة من القزلباش أو الرؤوس الحمراء نسبةً إلى التاج أو العمامة الحمراء التي يرتديها أتباع الطريقة الصفوية، وتربط العمامة باثني عشرة لفة تلميحاً للأئمة الاثني عشر.

عاشت الدولة مجدها الأخير أثناء عهد عباس الثاني (١٦٤٢-١٦٦٦) الذي كثّف من التبادل التجاري مع الدول الأوروبية عبر الشركات التجارية العاملة في المنطقة، كما قام ببعض الإصلاحات الداخلية. قام عام ١٦٤٨م بضمّ أجزاء جديدة من أفغانستان إلى دولته. عرف اقتصاد البلاد مرحلة تقهقر متسارعة أثناء عهد الشاه حسين (١٦٩٤-١٧٢٢) الذي تسبّب في إثارة الطائفة السنية بعدما أظهر عدم التسامح في تعامله معهما وتعصبه الشديد للمذهب الشيعي. منذ سنة ١٧١٩م بدأ زحف الأفغان (السنّة) الذين كان يحكمهم (الغلزاي، كلزاي) على مملكة الصفويين. استولى هؤلاء على أصفهان سنة ١٧٢٢م، حيث قاموا بخلع الشاه حسين ثم أعدموه سنة ١٧٢٦م.

وخاصةً في البلدان التي يحكمها الفرس، وهذا ما حصل فعلاً، حيث تحقق الإلزام على سنة إيران وسنة أفغانستان وأذربيجان الواقعتين تحت حكم الفرس في ذلك الزمان إضافةً إلى سنّة العراق (فقد تشيّعت قبائل عربية عديدة في العراق استجابةً لضغط الصفويين، وكان الشيعة في العراق في حينها قليلي العدد)، وذلك، كما أعتقد، لا حبّاً من الصفويين في التشيّع ونشره أو الإيمان بحقوق آل البيت وسلالة علي، وإنما بهدف إيجاد إسلام لا يخلو من النكهة الفارسية والطابع الفارسي، لأن التشيّع العربي كان مختلفاً (فلسفةً وتقاليداً وقيماً وتعاليم ونمط حياة وموقفاً من السياسة والدولة والسلطة) عن التشيّع الإيراني (وبقي الأمر كذلك حتى ثمانينيات القرن العشرين ومجيء الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الخميني).

عبّر الكره الفارسي للعرب عن نفسه بشكل صريح وواضح في الزمنين الحديث والمعاصر، وكانت الصحف ووسائل الإعلام والأدبيات والكتب المدرسية وغير المدرسية في إيران أيام الشاه تمتلئ بالدراسات المخصّصة لنقد العرب[١]، كما تمتلئ بالأوصاف القبيحة والتهم الباطلة لتاريخهم وحضارتهم وللإسلام السنّي بشكل عام. ولم يسعَ النظام القائم في الجمهورية الإسلامية لتنقية الكتب المدرسية من الأوصاف المسيئة للعرب والسنّة التي تنامت أيام الشاه، وكان موقفه دائماً موارباً، كما لم يسعَ لنشر ثقافة التسامح والأخوة والتعاون مع العرب وتجاههم، بل حاول، بدلاً من ذلك، نشر تشيّع الفرس وثقافتهم في بعض البلدان العربية وإقناع الشيعة العرب أنّ الشيعة

١ ففي المرحلة الابتدائية تضمّن كتاب الاجتماعيات للصف الخامس الكثير من الإساءات إلى العرب، وجاء فيه أن الحركات التي ظهرت في إيران في العصر الإسلامي كانت تهدف جميعها إلى "تحرير الإيرانيين من العرب" وأن أبا مسلم الخراساني صمّم على أن "يضع نهاية للخليفة العباسي ويريح الإيرانيين بصورة قطعية من سيطرة العرب". وفي المرحلة المتوسطة ورد في كتاب التاريخ للسنة الأولى: "في مدة قصيرة استطاع العرب الجياع أن يقضوا على القوى العظيمة الإيرانية والرومية"، وإمعاناً في إثارة الفرس ضد العرب ذكر مؤلفو الكتاب "أن العرب الضائعين استطاعوا أن يتغلبوا على الجيش الإيراني العظيم والمنظم وذلك في معارك القادسية وجلولاء ونهاوند". وهذا النص له خطورته في تسميم فكر الناشئة وخلق ازدواجية لديهم قائمة على تمجيد دولة فارسية قديمة وعصر مجوسي، في وقت يعرف فيه الناشئة أنهم مسلمون وأن المعارك المذكورة هي أمجاد إسلامية تحررت فيها شعوب إيران من الظلم والاستغلال وعبادة النار. هذه وغيرها من الشواهد تكشف عمق الكره الذي يحمله الفرس للعرب. حتى أن قاتل عمر بن الخطاب أبو لؤلؤة المجوسي له مقام ومزار في وسط طهران وشارع باسمه وساحة باسمه. (أبو أحمد الشيباني، "الصراع العربي الفارسي"، شبكة الإنترنيت).

الإيرانيين يمثّلونهم ويدافعون عن مصالحهم، وحوّل النظام الإسلامي الإيراني الروابط الدينية إلى روابط سياسية وأهواء سياسية، وبرّر لنفسه تحقيق الرغبة في الهيمنة على البلدان العربية، وخاصةً تلك المجاورة لإيران. وبالإجمال بقيت صورة العرب لدى الفرس مذمومة، ويبدو وكأنهم ما زالوا يرغبون في الثأر من معركة القادسية في القرن السابع الميلادي وما تلاها، وهذا ما يعبّر عنه بوضوح أدبهم الحديث وأفكار كتّابهم ومثقفيهم.

الإمبراطورية الساسانية

أُطلق اسم فارس على الإمبراطورية الفارسية ثم على إيران نسبةً لإحدى ولاياتها الواقعة في الجنوب الشرقي لإيران الحالية، وهي ولاية فارس، وأطلق اليونان والرومان اسم فارس على إيران بكاملها. وكانت إيران تشمل قبل الفتح الإسلامي بلاد أفغانستان وبلوشستان وبلخ والقسم الشرقي من العراق الحالي، وكانت لغتها هي اللغة الفهلوية أو البهلوية، وهي لغة (هندو - أوروبية)، وكان الكهنة الزرادشتيون حفظتها وناقليها، وما زال الفرس يعتبرون أن اللغة الفارسية والدين الزرادشتي هما المقومان الرئيسيان للثقافة الفارسية الإيرانية والهوية الفارسية والوجود الإيراني، بعد أن تماهى أحدهما مع الآخر بفضل الكهنة الزرادشت. ولقد أعاد "الملوك الساسانيون"[١] إلى الدين الزرادشتي ما كان له من سلطان ورونق، فوُهبت الأراضي والعشور للكهنة، وأُسّس نظام الحكم على أساس الدين، وعُيّن كاهن أكبر ذو سلطان، لا يفوقه سلطان الملك نفسه، رئيساً لطائفة الكهنة المجوس الوراثية التي كانت تشرف على جميع نواحي الحياة الذهنية والروحية في فارس، إلا القليل منها، وكانت تنذر كل من تحدّثه نفسه

١ الساسانيون أسرة حكمت الإمبراطورية الفارسية منذ القرن الثالث الميلادي حتى منتصف القرن السابع الميلادي، حين قضى عليها العرب المسلمون بعد فتحهم إيران. ويعدّ إقليم فارس الذي يقع إلى الجنوب الشرقي من إيران موطن انبعاث الحضارة الفارسية من جديد؛ ففي القرن الثالث الميلادي أقام الساسانيون دولة فارسية ذات دين قومي، هو الزرادشتية، وحكومة مركزية قوية وجيشاً مدرّباً نافسوا به جيوش الرومان، وخاضوا حروباً عديدة انتصروا في بعضها وهُزموا في أخرى، وبقيت حروبهم سجالاً مع البيزنطيين حتى أسقط العرب المسلمون إمبراطوريتهم.

بالإثم أو بالخروج على سلطان الدولة بالعذاب الدائم في الجحيم، وظلت طائفة الكهنة تسيطر على عقول الفرس وعلى جماهير الشعب مدى أربعة قرون[1]. وأظنهم لم يتخلصوا من الخضوع للكهنة ولسطوتهم حتى الآن، وهذا ما حدث خلال العقود الخمسة الماضية، حيث أن المجتمع الإيراني لم يستطع الخروج على هيمنة رجال الدين بشكل صريح منذ ثورة الخميني ١٩٧٩.

كان الناس في المجتمع الفارسي تحت حكم الساسانيين يفلحون الأرض ويرعون الماشية، ويمارسون الصناعات اليدوية التي تسدّ حاجتهم واحتياجات معيشتهم اليومية، ويتبادلون بضائعهم بالتجارة، ويعيشون في ظل النظام الإقطاعي أو شبه الإقطاعي الشرقي، أي أن المجتمع الساساني كان مجتمعاً فلاحياً من حيث المهنة وإقطاعياً من حيث البنية الاقتصادية – الاجتماعية وملكياً من حيث نظام الحكم. وتطورت الصناعة نسبياً في مجتمعهم فانتقلت من المنازل إلى الحوانيت في المدن، وأدخل نسج الحرير إلى المهن الممارسة قادماً من الصين وانتشرت صناعته وتقدمت على أيدي الإيرانيين، ونظّم أمراء الإقطاع طرق استغلال الأرض ومن عليها، وكان سنّ القوانين في دولتهم من اختصاص الملوك ورجال الدين المجوس ومن حقهم، واعتمدت قوانينهم على قوانين الأبستاق[2] القديمة.

كان الملك في المجتمع الساساني يستمدّ سلطته من الآلهة ويعتبر نفسه ولي الله في الأرض، ويلقّب نفسه بـ"ملك الملوك" و"سيد الكون" و"ابن الآلهة"، وهو مطلق الصلاحيات. وبالإجمال كانت العلاقات الاجتماعية – السياسية – الاقتصادية في المجتمع الساساني علاقات إقطاعية شبيهة، إلى حدٍّ ما، بعلاقات النظام الإقطاعي الأوروبي فيما بعد مع اختلاف الزمان والمكان.

أما من هو ساسان، فتقول الرواية الفارسية إنه كان كاهناً، وتناوب أبناؤه من بعده السلطة إلى أن وصلت إلى خسرو الأول، الذي يُعرف عند اليونان باسم كسروس وعند

---

١ انظر عزت أندراوس، **موسوعة تاريخ أقباط مصر**، "تاريخ الفرس في الفترة ما بين ٣٣٤–٦٥٢م".

٢ الأبستاق (الأفستا): هو كتاب "النبي" زرادشت، ويعدّ الكتاب المقدّس لدى أتباع الديانة الزرادشتية. وكلمة "أفستا" باللغات القديمة تعني "الأساس والبناء القوي"، والأبستاق مكتوب باللغة الأفستية، وهي ذات صلات قوية باللغة السنسكريتية الهندية القديمة. وفي الديانة الزرادشتية هناك اعتقاد بوجود ستة معاونين أو مساعدين لزرادشت، وهم باعتبارهم من الملائكة المقدسين يأمرون بأمر من "سبنتا مئنيو" أي الروح المقدسة.

العرب باسم كسرى (٥٣١م - ٥٧٩م)، ولقّبه الفرس بأنوشروان (الروح الخالدة)، وكان من أعظم الملوك الفرس.

نظّم كسرى الحكومة كلها على أساس جديد واختار أعوانه حسب معايير كفاءتهم، بصرف النظر عن طبقتهم أو منبتهم الاجتماعي، واستبدل بجنود الإقطاع غير المدرّبين (وهم ميليشيا مؤقتة) جيشاً نظامياً دائماً حسن النظام كامل العدة، وأنشأ نظاماً عادلاً للضرائب، وجمع القوانين الفارسية (وصنّفها)، وأنشأ الترع والجسور لإصلاح نظام الري ومدّ المدن بالماء، وأصلح الأراضي البور بأن أمدّ أصحابها بالماشية والآلات والبذور، وشجّع التجارة ووسّع نطاقها بإنشاء الجديد من الطرق والجسور وإصلاح ما كان قائماً منها وتعهّده، وقصارى القول إنه بذل جهوده العظيمة كلها في خدمة الشعب والدولة[١].

كانت الحروب سجالاً على مدى التاريخ القديم والوسيط بين الإمبراطورية الفارسية وبين الإمبراطوريات الأوروبية، اليونانية ثم الرومانية ثم البيزنطية، وقد وصلت جيوش الفرس في التاريخ القديم في غزواتها إلى بلاد اليونان وحاصرت مدنها واحتلت بعض أراضيها، وانتصرت في معارك وهُزمت في معارك أخرى، والأمر نفسه حصل مع الإمبراطوريتين الرومانية والبيزنطية. وباختصار، بقيت الحروب قائمة بين الإمبراطورية الفارسية من جهة وبين الإمبراطوريات الأوروبية من جهة أخرى خلال سنين طويلة، حيث خاض الفرس حروباً عديدة وقاسية مع جيوش الإسكندر المكدوني الذي هزمهم واحتل بلادهم، وفيما بعد مع اليونانيين حيث وصلوا إلى اليونان وحاصروا بعض مدنها ثم هُزموا وتراجعوا بعد ذلك. وأخيراً خاضوا معارك عنيفة مع الرومان والبيزنطيين كان آخرها في مطلع القرن السابع، وانتصروا في المعركة التي قامت في جنوب سورية عام ٦١٣م، ثم احتلوا مصر في إثرها، لكنهم تراجعوا بعد عدة سنوات. وقد نزل في القرآن حول هذه المعركة ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ (الروم ٢-٣). ثم جاء الإسلام، واحتل العرب المسلمون بلاد فارس، وانهارت الإمبراطورية الساسانية. ويصحّ القول، بعد استعراض التاريخ خلال القرن السادس والربع الأول من القرن السابع، إن الإمبراطورية البيزنطية

١ **موسوعة تاريخ أقباط مصر**، مصدر سابق.

كانت هاجساً لمثيلتها الفارسية في هذه الفترة التي كانت فيها أنظار الأباطرة الفرس متجهة دائماً إلى الإمبراطورية البيزنطية، لأنها تشكل العدو التاريخي للفرس، لذلك كان بديهياً أنّ كسرى، بعد أن حقق القوة والمنعة والغنى لإمبراطوريته، رأى أنّ من الحكمة أن يبادر بالهجوم على جستنيان البيزنطي وجيوشه لا تزال مشغولة في الغرب، فذلك كان في رأيه خيراً له من أن ينتظر حتى تنتصر بيزنطة ثم توجّه قوتها كلها ضد فارس. يضاف إلى هذا أنّ كسرى بدا له أن لا بدّ لبلاد الفرس من امتلاك مناجم الذهب في طرابزون (في تركيا الحالية) وأن يكون لها منفذ على البحر الأسود، ولهذا زحف على سورية وحاصر أفاميا وحلب[١].

قام كسرى بعدئذ بثلاث غزوات على آسية الرومانية (البيزنطية) زحف فيها على تلك البلاد زحفاً سريعاً، وحاصر عدداً من مدنها، وأخذ منها الفداء والأسرى، ونهب ريفها، ثم ارتدّ عنها في أمان (٥٤٢م-٥٤٣م) وأدّى له جستنيان عام ٥٤٢م ألفي رطل من الذهب ثمناً لهدنة تدوم خمسة أعوام، على أن يؤدي إليه بعد انتهائها (٢٦٠٠ رطل أخرى) نظير تمديدها خمسة أعوام جديدة. وبعد أن دامت الحرب بين العاهلين الطاعنين في السن جيلاً كاملاً، تعهدا آخر الأمر عام (٥٦٢م) بأن يحتفظا بالسلم خمسين عاماً، ووافق جستنيان بموجب ذلك على أن يؤدّي للفرس ثلاثين قطعة من الذهب في كل عام، وتنازل كسرى من طرفه عن حقه في جميع الأقاليم المتنازع عليها في بلاد القوقاز والبحر الأسود[٢].

على كل حال، كانت الحروب سجالاً بين الفرس والبيزنطيين طوال القرن السادس والربع الأول من القرن السابع الميلاديين، وتبادل كلٌ من الطرفين النصر والهزيمة مع الآخر. وقد أضعفت هذه الحروب الدولتين كلتيهما وخاصةً بعد كبر سن مليكيهما، ولم يطاول الضعف القدرة العسكرية فقط بل القدرة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية أيضاً. وصار حال كل منهما مثل حال المصارع في الدورات الأخيرة من المباراة، كما صارت الظروف القائمة، بشكل عام، ظروفاً مؤسسة لانهيار كلٍ من الإمبراطوريتين، بعد الضعف الكبير الذي أصاب كلاً منهما بالوهن في جميع جوانب الحياة. وفي

١ **موسوعة تاريخ أقباط مصر**، المصدر السابق.
٢ المصدر نفسه.

هذا الوقت ظهر الإسلام، وتقدمت الجيوش العربية الإسلامية فهزمت الإمبراطوريتين هزيمةً ساحقة وقضت نهائياً على الإمبراطورية الفارسية وأجبرت الإمبراطورية البيزنطية على التراجع عن بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا، وانكفأت إلى الأناضول وما وراءها وإلى القسطنطينية وما حولها.

العرب والفرس قبل الإسلام

إن العلاقات العربية الفارسية علاقات قديمة جداً تعود إلى أيام الإسكندر المقدوني، وثمة إشارات تفيد بوجود صلات ما بين الجانبين في التاريخ القديم[١]، وكان لدى البلاط الساساني مسؤول عن الشؤون العربية مهمته متابعة أوضاع العرب الذين كانوا يعيشون على تخوم الإمبراطورية (أي اللخميون المناذرة وعرب شرق الجزيرة العربية وجنوبها في اليمن وعمان وحضرموت) متابعةً استخباراتية ودبلوماسية في الوقت عينه[٢].

أقام اللخميون مملكتهم في الحيرة بين الجزيرة العربية والعراق، وهم عرب يمنيون هاجروا من جنوب الجزيرة العربية وتنصّروا على المذهب النسطوري. ورغم أن النصرانية لم تكن ديانة الفرس إلا أنها انتشرت في العراق لأن الفرس لم يكونوا يبشّرون بديانتهم ولم يكن يهمّهم دخول الناس فيها، إذ عدّوا المجوسية ديانةً خاصة بهم. ثم إن النصرانية التي انتشرت فيها (أي النسطورية) لم تكن من النصرانية المتشيّعة للبيزنطيين، بل كانت تشكل مذهباً آخر مختلفاً عن مذهب البيزنطيين (المذهب الملكاني)، ولهذا لم تجد الدولة الساسانية ما يهدّد سياستها بالأخطار، فغضّت النظر عنها[٣]. وكان النظام المتّبع أنّ عرب الحيرة يقدمون الطاعة لملك فارس، وهو يولّي عليهم أميراً من أنفسهم، وعليهم أن يحموا فارس من كل مغير من نواحيهم، ويعفيهم الفرس مقابل

١ وبعد ضعف السبئيين، بسبب تدهور تجارة البخور مع الروم، دخل الفرس ليحتلوا المنطقة الساحلية للخليج العربي، وبعد انهيار سد مأرب دفع بالقبائل إلى الرحيل. والقبائل التي اتجهت إلى الشمال والشرق من الجزيرة على مقربة من الخليج العربي دخلوا في معارك مع الفرس وطردوهم منها. وبعد السبئيين جاء الحميريون ليبسطوا سيطرتهم العسكرية والإدارية على كل أجزاء الجزيرة العربية.

٢ حسام عيتاني، **الفتوحات العربية في روايات المغلوبين**، دار الساقي، بيروت ٢٠١١، ص١٣٩.

٣ حسن العودات، **العرب النصارى**، دار الأهالي، دمشق، ص٤٣.

ذلك من دفع الإتاوة[1]. وكان عرب الحيرة أكثر استقلالاً ذاتياً، فهم لم يكونوا يرتبطون بفارس إلا بما توجبه المعاهدات عليهم، وقد اعتاد ملك الفرس أن ينصّب أميراً من قبيلة لخم، وإذا مات الأمير عيّن من يختاره من بيته. وعاش عرب الحيرة إذذاك في رخاء كان يحسدهم عليه غيرهم من العرب لخصب أرضهم وغنى إقليمهم، وكانوا الصلة الرئيسة بين الفرس وعرب الجزيرة، يحملون إليهم التجارة الفارسية ويبيعونها في أسواقهم وينقلون إليهم الثقافة والحضارة الفارسية[2].

كان العرب اللخميون المناذرة في صراع وحروب مع العرب الغساسنة، وقامت بينهم معارك عديدة دامية، وكان الصراع قبلياً دخل فيه العامل الديني (المناذرة نساطرة والغساسنة يعاقبة)، كما أثّرت فيه المصالح الحيوية لكلٍّ من الطرفين المتصارعين، وتشجيع كلٍّ من حماتهما الفرس والبيزنطيين على استمرار الصراع، الذي أصبح حرباً بالوكالة عن الدولتين العظميين. واستمر تحالف اللخميين مع الفرس حتى ظهور الإسلام، إذ كان عليهم حماية خط التجارة مع جنوب الجزيرة العربية والمحيط الهندي، وكانت علاقتهم بالفرس علاقة تعاقدية تضبطها معاهدات واتفاقات تضمن لهم حكماً ذاتياً تحت سلطة أمير منهم يعيّنه الفرس. ولكنّ هؤلاء الفرس ما لبثوا أن ألغوا هذه الاتفاقيات، وعيّنوا حاكماً فارسياً مباشراً على اللخميين في عام ٦٠٢م، وأسروا النعمان الثالث، وألغوا إمارة اللخميين. وكان المنذر بن النعمان هو آخر أمراء اللخميين عند مجيء الفتح الإسلامي، وقد صالح خالد بن الوليد المنذر على دفع الجزية[3]. وقد شارك العرب المناذرة في حروب العرب المسلمين ضد الفرس، وبقي كثيرٌ من المشاركين على دينهم المسيحي ولم يتحولوا إلى مسلمين[4].

وفي الخلاصة كان الفرس يهيمنون على بلاد المناذرة (اللخميين) ويعيّنون ملوكهم ويستعينون بهم كوسيلة للوصول إلى الجزيرة العربية، وقد احتلوا في الوقت نفسه اليمن وعمان وحاربوا الأحباش في جنوب الجزيرة العربية، وبقي الحكم الفارسي

١ أحمد أمين، **فجر الإسلام**، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤، ص١٦.

٢ المصدر السابق، ص١٧.

٣ **العرب النصارى**، مصدر سابق، ص٣٤-٤٤.

٤ وقد جرى حوار طريف بين خالد بن الوليد والمنذر عبّر فيه خالد عن استغرابه عدم دخول المناذرة في الدين الإسلامي مع أنهم عرب. ويبدو من سياق الحديث أن خالداً كان يعتبر الإسلام دين العرب، ويفترض أن على العربي أن يكون مسلماً بالضرورة.

لبعض مناطق اليمن قائماً حتى مجيء الإسلام.

يؤكّد المؤرخون العرب أن مجوس اليمن (حضرموت) كانوا من الفرس الذين أرسلهم كسرى لطرد الأحباش، واستطاعوا فعلاً طردهم وحلّوا محلهم في حكم اليمن في مرحلة من مراحل التاريخ، وكذلك الأمر بالنسبة لمجوس عمان الذين لا تختلف حالهم عن حال مجوس حضرموت. وإذا كانت اليمن هامة على العموم بسبب عداء الفرس للأحباش والصراع الاستراتيجي معهم على مناطق النفوذ في جنوب غرب الجزيرة، فإن عمان كانت هامة خاصةً لأنها موقع للتجارة مع الهند وآسيا، مما اقتضى سعي الفرس للحضور الدائم هناك. أما مجوس البحرين فقد كانوا كثيرين لقربهم من الإمبراطورية الساسانية، وكان عرب البحرين أعرف الناس بالمجوس لتواصلهم الكثيف وحوارهم الدائم وتوافقهم وتعارضهم معهم، كما كان في اليمامة أيضاً قومٌ من المجوس[1].

حدث تأثيرٌ ثقافي فارسي واضح على ثقافة بعض عرب الجزيرة. إلا أن المجتمع الفارسي كان يواجه داخلياً عديداً من المشكلات والمصاعب والثغرات. وفي واقع الحال بدأ انهيار الإمبراطورية الفارسية قبيل الفتح الإسلامي، وخاصةً بعد الهزائم العسكرية التي مُني بها الفرس في مطلع القرن السابع أمام البيزنطيين، حيث تراجعوا عن مصر التي كانوا قد احتلوها، ثم عن بلاد الشام، ثم اضطروا الدفع الجزية للإمبراطور البيزنطي. وفي هذا المجال وصف كاهن الفرس الأكبر الأجواء التي مهّدت للانتصار العربي على الإمبراطورية الفارسية فقال:

> عمّت المجاعة والأمراض وانتشر خرابها في أرجاء البلاد، وجُلبت من الأراضي الأجنبية أساليب البذخ من دون رقيب، مع كل ما تنطوي عليه من آثام، وبساطة الحياة التي علّمها وأوصى زرادشت بها، وحضّت الدساتير عليها بشدة، أُهملت وتركت. ولم يتأخر الجمهور عن تقليد بذخ النبلاء وآثامهم، ومكان حب البساطة حلّ حبّ محموم للمتعة. وانحسرت العادات البسيطة... لقد تضرر ضرراً عميقاً كل النسيج الاجتماعي الإيراني، وجفّت مصادر حب الوطن وضعفت الشجاعة

١ حسين العودات، **الآخر في الثقافة العربية**، دار الساقي، بيروت ٢٠١٠، ص٥٨.

التي كان الفرس القدماء يواجهون بها أعداء بلادهم. لقد حلّ عصر الضعف والانحطاط مكان عصر البسالة. هذه هي المسائل التي فاقمت من تدهور إيران وغطت على الكارثة المقبلة "الاحتلال العربي وانهيار الإمبراطورية"، ولم يظهر أحد كمنقذ في تلك الحقبة الأشد ظلاماً من معاناة الأمة، بتجنب الدمار الوشيك في وسط المعمعة والارتباك هذين، وجلس يزدجرد الثالث، وهو الأخير من بيت ساسان الشهير، على العرش المتأرجح[١].

انهيار الإمبراطورية والرفض الفارسي

انتصر العرب في معركة القادسية (٦٣٦م) التي أفضت إلى دخول إيران في الإسلام وانهيار الإمبراطورية الفارسية (الساسانية). فألحقت الأراضي الإيرانية بالإمبراطورية العربية الناشئة، وانهزمت الديانة الزرادشتية أمام الديانة الإسلامية، واللغة الفارسية أمام اللغة العربية. وبذلك انهارت الدولة الفارسية والدين الزرادشتي واللغة الفارسية، مما سبّب كراهية كبيرة للعرب. وبقيت معركة القادسية ونتائجها المدمّرة بالنسبة للفرس محرّضاً دائماً على كره العرب منذ القرن السابع الميلادي حتى اليوم، حيث كانت هذه المعركة بداية انهيار الإمبراطورية الفارسية وتلاشيها، وتحوّل الفرس إلى مواطنين غير مكتملي المواطنة في الإمبراطورية العربية الإسلامية. لقد بدت النزعة القومية في الإرث الفارسي السابق للإسلام كمصدر للفكر والعزة الثقافية، واستناداً إلى هذه النزعة استمرّ الفرس يمجّدون بلاد فارس (إيران) كما كانت قائمة قبل الإسلام، وكذلك الديانة الزرادشتية والعرق الآري (وهو العرق الذي ينحدر منه الفرس)، واستمر كره العرب المسلمين منذ ذلك الوقت لتسببهم بانهيار الإمبراطورية الفارسية وانحدارها من العظمة التي كانت عليها إبان مرحلة ما قبل الإسلام[٢] إلى ولايات تابعة للإمبراطورية العربية، يحكمها عرب مسلمون في أغلب

---

١ **الفتوحات العربية في روايات المغلوبين**، مصدر سابق، ص٧٩.

٢ عبد الله الهدلق، "العرب كما يصورهم الفرس"، جريدة **الوطن** السعودية، ٢٠١١/٨/٦.

الأحوال، وشعب يُعتبر أبناؤه مواطنين من الدرجة الثانية.

لقد حاول المفكرون والقادة السياسيون الإيرانيون، منذ معركة القادسية وانهيار الإمبراطورية الفارسية، الحفاظ على الهوية الفارسية وإيجاد مقومات ومعايير لها من خلال واقعهم، سواء اتفقت هذه المعايير مع المعايير الكونية أم لا، واحتاروا في تحديد موقف ثابت ونهائي من تعريف الأمة والإخلاص لها، وتساءلوا: لمن يكون هذا الإخلاص؟ هل هو للدين الجديد أم للزرداشتية؟ وهل هو للإمبراطورية الإسلامية التابعون لها أم لتراثهم الثقافي أو اللغوي والقومي السابق؟ وفي هذا المجال يقول شاه رخ مسكوب: "إن النزعة القومية تعني الولاء والإخلاص للأمة، والمشكلة هي كيف يمكن للمرء أن يعرّف الأمة؟". وبحسب رأيه، منذ مجيء الإسلام إلى إيران تأسس الوعي القومي الإيراني على اللغة الفارسية وعلى تاريخ ما قبل الإسلام، ويقول: "بالنظر إلى شيئين اثنين فقط كنّا إيرانيين منفصلين عن المسلمين الآخرين، فقد باشرنا بناء هويتنا الذاتية بوصفنا شعباً أو أمة على عاملي التاريخ واللغة"[1]. وبهذا الفهم لإيران كأمة تمّ تعريفها على أنها لغة وتاريخ مشتركين، "ليس من المفاجئ، إذاً، أن الأدب الفارسي الإيراني الحديث عنى منذ البداية وبشكل وثيق بمسألة النزعة القومية الإيرانية"[2].

مثلما تأثرت معظم شعوب الشرق بالنهضة الأوروبية وبالوعي العام بمعايير الدولة الحديثة والمعايير القومية ونمو النزعة القومية لدى معظم شعوب العالم، كذلك تأثرت إيران، وبالتحديد الفرس، وبذلك بدأوا يؤسسون على تاريخهم القديم وعلى لغتهم ودينهم. وشهد القرن التاسع عشر بداية الوعي القومي الحديث والحركة القومية في إيران، ومنذ ذلك الوقت ألقى المفكرون العلمانيون الفرس الواعون لتخلف إيران وعجزها، إذا ما قورنت بالغرب، جانباً من لائمة التخلف الإيراني على الإسلام، ودفعهم ذلك إلى السعي لتأسيس تعريف جديد أكثر أصالةً ومصداقية لمفهوم "الأيرنة" بني على الماضي ما قبل الإسلامي[3]. وهذا ليس من المستغرب، فقد دأبت الشعوب المتخلفة، وخاصةً تلك التي لم تستطع تحقيق النهضة والحداثة، على إلقاء الأسباب

١ جويا بلندل سعد، **صورة العرب في الأدب الفارسي**، شركة قدمس، بيروت، ١٩٩٦، ص١٤.
٢ المصدر نفسه، ص١٤.
٣ المصدر نفسه، ص١٦.

الحقيقية لتخلفها على الآخرين والبحث عن مشاجب لحملها، بعيداً عن مسؤولية الأنظمة السياسية والاجتماعية القائمة والتفتيش عن أسباب (قد تكون حقيقية جزئياً، لكنها مفتعلة غالباً) وتحميلها مسؤوليات التخلف، وهذا ما حصل في إيران كما حصل في غيرها. وهكذا وجدت النخبة الفارسية (حتى عصر الشاه) ضالتها في إدانة الإسلام واعتباره مسؤولاً عن التخلف الحالي، وكذلك إدانة العرب باعتبارهم أسقطوا الإمبراطورية الفارسية ومنعوا المجتمع الإيراني من التطور والازدهار حسب زعمهم. وما زال هذا يشكّل عبئاً على الوجدان الإيراني بنظر الإيرانيين الذين أخذوا يعتقدون أن العرب قد أفقدوا إيران الفارسية تاريخها السابق وقضوا على حضارتها وفرضوا عليها ديناً سامياً صحراوياً لا يمتّ إلى ديانتها الزرادشتية القديمة بصلة[١]. وقد انطلق المثقفون الفرس، الذين انتقدوا العرب وسخروا منهم، من أحداث القرن السابع الميلادي، عندما أخضع العرب المسلمون إيران وجعلوها جزءاً من الخلاقة الإسلامية، وقضى الإسلام على الحضارة الفارسية واحتل أرضها بالسيف والدم وقام بسبي النساء، كما يلاحظ ذلك في أعمالهم الأدبية والشعرية القديمة والوسيطة والحديثة التي انطلقوا منها واعتمدوا عليها في نقدهم للعرب وكرههم لهم. وهم يرون، تبعاً للوثائق التاريخية، أنّ بيع العرب الفتيات الإيرانيات كان أمراً مألوفاً، مع أنه ليس ثمة من تهم أخرى أقيم الدليل على صحتها شأن تلك التهمة. أما ما يخص الاغتصاب فهو يرمز للاغتصاب الثقافي لإيران، وهو أبشع أشكال الاغتصاب[٢].

تحت الهيمنة العربية وكيد الفرس للعرب

رغم تعاليم الإسلام الصارمة المتعلقة بالمساواة بين المسلمين من مختلف الإثنيات والمناطق امتثالاً لما جاء في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات/١٣) فإن العرب الفاتحين لم يتقيدوا بهذه التعاليم كثيراً في الواقع وتصرّفوا في أحيان عديدة كمحتلين،

١ الشبكة الوطنية الكويتية، ٢٠١١/٥/٢٩.
٢ **صورة العرب في الأدب الفارسي**، مصدر سابق، ص٥٤.

وذلك لأن الفرس لم يخفوا كرههم للعرب وتربّصهم بهم. فإضافةً إلى ازدرائهم الحضارة العربية والتقاليد والقيم العربية علناً، لم ينفكّوا عن التآمر على الدولة وعن محاولاتهم الاستحواذ عليها في كل مناسبة، كما كان تحيزهم لبني جلدتهم واضحاً (وعنصرياً أحياناً)، وكانوا يستغلون أي تناقض داخل الدولة أو المجتمع أو بين العرب عامةً لإثارة الفتن، كما لم يكفّوا عن مزاعمهم بأن الدولة لا تستطيع الاستغناء عنهم وأنّ لهم الفضل في نشر الإسلام في آسيا وجنوب شرق آسيا وتؤكّد الوقائع أن لا فضل لهم في ذلك، فدخول الإسلام إلى أفغانستان والهند كان بفضل الشعوب التركية (شعوب وسط آسيا) حسب تأكيد الأتراك، وانتشاره في جنوب شرق آسيا يعود الفضل فيه للتجار العرب. وعلى ذلك تعمّق الحذر العربي من الفرس أكثر فأكثر، وكان العرب مقتنعين أنّ هؤلاء لن يتركوا فرصة إلا واستغلوها، سواء للقفز على السلطة أو لإضعاف الدولة، إضافةً إلى دورهم في نشوء الشعوبية وزيادة خطرها، ولعل هذا كله كان السبب الأساس في ريبة العرب من الفرس والحذر منهم (وربما لم يحذر العرب لتسلّم الفرس السلطة أيام أبي مسلم الخراساني وأيام البرامكة). ومن المهم أن نأخذ بالاعتبار أن الدولة العربية الإسلامية لم تفرّق بين مواطنيها من حيث مبادئها وثوابتها، لكنّ التقاليد والقيم الاجتماعية والممارسات اليومية وسلوك العامة من العرب المسلمين لم يكن كذلك، وبقي غير العربي في نظر القيم الاجتماعية السائدة أقل درجةً من العربي، وغالباً ما كان يُحمّل أوزار وواجبات بدون مبرر، حتى أن حكم الفرس (الواقعي وليس الرسمي)، أيام أبي مسلم الخراساني[1] والبرامكة[2]، وحكم غيرهم لم يغير من

١ أبو مسلم الخراساني هو أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني، صاحب الدعوة العباسية في خراسان، ومن ثم واليها، سياسي وقائد عسكري. وحسب الروايات "لما جلى الفرس عن القادسية وبلغ يزدجرد بن شهريار ما كان من رستم وإدالة العرب عليه وجاء مبادر وأخبره بيوم القادسية وانجلائها عن خمسين ألف قتيل، خرج يزدجرد هارباً في أهل بيته ووقف بباب الإيوان وقال: السلام عليك أيها الإيوان! ها أنا ذا منصرف عنك وراجع إليك، أنا أو رجل من ولدي لم يدن زمانه ولا آن أوانه" وقد فسّر الفرس حسب هذه الأسطورة أن هذا الرجل هو أبو مسلم.

٢ البرامكة أو كما يسمّون بالفارسية (برمكيان): هم عائلة ترجع أصولها إلى برمك المجوسي من مدينة بلخ، وقد كان للبرامكة منزلة عالية واستحوذوا على الكثير من المناصب في الدولة العباسية، وكان لهم حضور كبير في بلاط الخليفة العباسي هارون الرشيد الذي أرضعته زوجة يحيى بن خالد البرمكي الذي حفظ لهارون الرشيد ولاية العهد بعدما أراد الخليفة الهادي خلعه. وفي زمن هارون الرشيد قوي ساعد البرامكة وكانوا الحكام الفعليين في المرحلة الأولى من حكم الرشيد.

هذه القيم، والأمر نفسه فيما بعد مع الشعوب التركية أيام حكمها الفعلي بدورها. وكان سلوك بعض العرب الفاتحين، سواء من أبناء المجتمع أم ممن لديهم مهمات رسمية ووظائف، سلوكاً متعالياً على الفرس وعلى غير العرب. فقد رفضوا بادئ الأمر (وربما طوال العصر الأموي) مصاهرة الفرس، ويروي الأصفهاني في هذا المجال قصة مولى تزوج بعربية فغضب الوالي العربي لذلك وفرّق بين المولى وزوجته وضربه مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه. كما رفضوا تكليفهم بولاية رغم إسلامهم، أو بقيادة الجيش رغم إمكانياتهم، وفي بعض الحالات كانوا يرفضون أن يؤمّ الصلاة فيهم غير عربي رغم حسن إسلامه، وتعاملوا معهم كالخدم (إذا أقبل العربي من السوق ومعه شيء فرأى مولى دفعه إليه ليحمله عنه فلا يمتنع، ولا السلطان يغير عليه، وكان إذا لقيه راكباً وأراد أن ينزل فعل، وإذا رغب أحد في تزوج مولدة خطبها إلى مولاها دون أبيها وجدها)[1].

لقد حرمت الدولة الأموية الفرس من حقوقهم السياسية ومعظم حقوقهم الاجتماعية رغم إسلامهم بل رغم حسن إسلام بعضهم، إلا في حالات استثنائية، فقد كانت نظرة العرب إلى الفرس نظرة احتقار مشوبة بالقسوة إلى درجة التشنيع والإهانة، وعمل أصحابها على طمس فضائل الفرس بإبراز نقاط الضعف في الحضارة الفارسية مقارنةً بالذات العربية الإسلامية، فكانت نظرتهم متصلّبة ونافية النسبوية الحضارية، لأنها وليدة الجدل الفكري الذي دار بين العرب والفرس. وجاءت هذه النظرة الاحتقارية في إطار الردّ على الشعوبيين الفرس[2]، فقد كان الأمويون يراعون عربية القاضي والوالي والإمام، وكانت النزعة العربية القبلية هي السائدة أيام الحكم الأموي وليس تعاليم الإسلام وأحكامه المتعلقة بالمساواة بين المسلمين، وكان بنو أمية لا يستخلفون بني الإماء، ورأى الناس أن امتناعهم عن توليتهم هو بسبب الاستهانة بهم[3].

---

١ **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص١٢٧؛ الأصفهاني، **محاضرات الأدب** ١/ ٢٢٠، عن **ضحى الإسلام**، ص٢٥.
٢ المصدر السابق، ص١٢٧.
٣ المصدر السابق، ص١٢٨.

أدركت السلطات الأموية والمجتمع العربي أن التيار الشعوبي لم يكن يهدف فقط لانتزاع بعض الحقوق من السلطة، وإنما أيضاً كان يحمل في طياته طمع الفرس بالسلطة برمتها ردّاً على الاحتلال العربي لبلاد الفرس، الذي تجاهل حضارتهم ودورهم، وتأكيداً أن سقوط إمبراطوريتهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم إنما هو سقوط غير عادي، فهو انهيار أمام القوة العربية القادمة وهزيمة للمجتمع الفارسي المتداعي والفاسد. وفي الوقت نفسه حاول الفرس الالتفاف على واقعهم هذا، وعلى الغلبة العربية، من خلال تبريرات واهية ووصف المجتمع العربي والحضارة العربية السابقة للفتوحات بأبشع الأوصاف. وقد عرض المقريزي[1] رأي الفرس فقال: بنظرهم "لم يكن للعرب ملك يجمع سوادها، ويضم قواصيها، ويقمع ظالمها، وينهي سفيهها، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة، ولا أثر في فلسفة إلا ما كان من الشعر، وقد شاركتها فيه العجم". كما قال واصفاً حالهم وآراءهم قبل انهيار امبراطوريتهم: "اعلم أن الفرس كانت سعة الملك، وعلو اليد على جميع الأمم، وجلالة الخطر في أنفسها، بحيث أنهم كانوا يسمّون أنفسهم 'الأحرار والأسياد'، وكانوا يعدّون سائر الناس عبيداً لهم، فلمّا امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدي العرب، وكان العرب عند الفرس قبل الفتح أقل الأمم خطراً، تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة في أوقات شتى، وفي كل ذلك يظهر الله الحق فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيّع بإظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم علي، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى"، وهذا الأسلوب واحد من أساليب الفرس للكيد للعرب أو لتولي السلطة بدلاً عنهم. وكانوا يصفون العرب بأبشع الصفات ويقوّمونهم بأسوأ تقويم، فيقولون حسب المقريزي: "لم تزل الأمم كلها من الأعاجم في كل شقّ من الأرض لها ملوك تحميها ومدائن تضمّها، وأحكام تدين بها، وفلسفة تنتهجها، وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات، مثل صنعة

---

[1] المقريزي: مؤرخ مسلم، شيخ المؤرخين المصريين، أحمد بن علي المقريزي المعروف باسم تقي الدين المقريزي. ولد وتوفي في القاهرة (٧٦٤ هـ-٨٤٥هـ/ ١٣٦٤م-١٤٤٢م)، ممن اهتموا بالتأريخ بكل نواحيه.

الديباج، ولعبة الشطرنج، ورمانة القبان، ومثل فلسفة الروم في ذات الخلق والقانون والاصطرلاب"[1] إلا العرب فهم بدائيون، حسب رأي الفرس، وما مرّ هو نموذج من أقوال الفرس الذين حاولوا من خلالها تشويه صورة العرب، مما يؤكّد كرههم لهم والتربص بهم منذ الوقت المبكر للفتح، الأمر الذي استمر طوال القرون اللاحقة.

لم يكن العرب بدورهم معجبين بالديانة الزرادشتية (أي 'المجوسية' كما هو شائع بينهم) أو إيجابيين تجاهها كما كان حالهم مع اليهودية والمسيحية، فقد كانت صفة "مجوسي" محطّ ذمّ وقدح لدى العرب، ورووا فيما بعد حديثاً نبوياً يقول: "القدرية – أي المعتزلة – مجوس هذه الأمة"[2]. ولا يهمّنا الآن التدقيق في صحة هذا الحديث المروي، وإنما نعتبره مؤشراً على الموقف العربي من المجوس ونظرة العرب إليهم، ليس فقط قبل الإسلام وإنما أيضاً في مراحل لاحقة. ولعل الموقف من الزرادشتية تداخل مع الموقف من الفرس باعتبارهم (أي الفرس) كانوا مجوساً والوحيدين الذين كانت المجوسية ديانتهم، ولم يكن هذا الموقف ودياً لا قبل الإسلام ولا بعد الفتوحات، أي لا أيام تفوق الفرس وعظمة إمبراطوريتهم ولا أيام تحولهم إلى ضمن رعاية الدولة العربية الإسلامية[3]. ولم يكن العرب على أية حال، ولا في مرحلة من المراحل، حياديين تجاه المجوس والمجوسية، وذلك بسبب حذرهم من الفرس وعداوتهم لهم، فلم يتأقلموا يوماً مع الفرس (الصلفين المتغطرسين والمستعمرين ذوي المطامع) ولذلك لم يكونوا ودودين تجاه المجوس والمجوسية، وبقي هذا هو تقويم العرب للمجوسية وأهلها حتى بعد مجيء الإسلام واتّساع الإمبراطورية[4]. وكان معظم الفرس ينكر على العرب قولهم بالتفوق وعدم مساواة الفرس والشعوب الأخرى بهم، والبعض الآخر منهم كان يحطّ من شأن العرب ويضعهم في أدنى درجات سلّم الشعوب، وقد تملّكهم العجب كيف غلبهم العرب، وعبّر بعضهم عن هذا الأمر ورأوا أنّ "حكم العرب لهم ضرب من سخرية القدر، وكانوا يفخرون على العرب بمجدهم القديم وعزهم التالد، وأنهم أهل الحضارة العظيمة، ومن عرفوا كيف يسوسون الملك أو يدبرون الحكم، وأنهم لمّا حكموا لم

١ **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص١٢٩.
٢ **العقد الفريد**، ٢/٨٦؛ **ضحى الإسلام**، ص١٧.
٣ **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص٥٨.
٤ المصدر نفسه، ص٥٩.

يكن لهم إلى العرب حاجة، ولمّا حكم العرب لم يستطيعوا أن يحكموا إلا بمعونتهم"[1]. ولم يستطع الجمهور الفارسي نسيان سؤدده الذي كان قبل قدوم العرب والإسلام، وبقي يستخفّ بالعرب كما كان الحال من قبل، واستمرّت قناعته بأن سيادة العرب عليهم وخضوعهم لهم ليس من طبيعة الأمور، ولم يستطع استيعاب هذا الانقلاب[2]، لا في المراحل الأولى للهيمنة العربية الإسلامية ولا في المراحل اللاحقة (العصر الوسيط والعصر الحديث والمعاصر). وفي الواقع ما زال اعتقاد الفرس هذا، الذي كان منذ ما قبل الفتح، قائماً وما زالت غطرستهم تجاه العرب واضحة.

هناك فريق ثانٍ من الفرس، وهو الأشدّ تطرفاً وعداءً للعرب، كان يعتقد ويعلن أنّ "العرب أمة ليست لها أية ميزة، في حين أن كل أمة لها ميزة تفخر بها، فالرومان تفتخر بعظم سلطانها وكثرة مدائنها وعظيم مدنيتها، والهند تفخر بحكمتها وطبّها وكثرة عددها وبأنهارها وثمارها، والصين تزهو بصناعاتها وفنونها الجميلة. ولا نجد العرب تمتاز بشيء يضارع ما ذكرنا، جدب في أرض، وبداوة في عيش، كانوا في جاهليتهم يقتلون أولادهم من الفقر، ولا يستقرّ لهم حال من الغزو والسلب، ويفعلون المكرمة الصغيرة، كإطعام جائع وإغاثة ملهوف، فيملأون الدنيا بها شعراً ونثراً ويتيهون بذلك فخراً"[3]. وأعتقد أن هذا كان رأي الفرس بشكل عام، فهو لم يكن مقتصراً فقط على المتطرفين أو استثناءً في السياق العام للمخيال الفارسي عن العرب، وقد بدا هذا الموقف من العرب واضحاً في المراحل التي شارك فيها الفرس في الحكم، وإن لم يكونوا رسمياً أصحاب قرار، وكان المخيال الفارسي لا يستطيع تصور انهيار إمبراطوريته الساسانية بهذه السهولة والسرعة أمام جيوش العرب "المتخلفين" حضارياً وعسكرياً بنظره. ولا شك أن وجهة النظر الفارسية في العرب هذه لم تكتفِ بإثارة الأحقاد تجاه العرب والانتقاص من قيمهم ومنجزاتهم، وإنما أيضاً شجّعت أقليات أخرى على أن تحذو حذوها وساهمت في نشأة الشعوبية وتعميقها. وفي هذا السياق يمكن أن نستنتج "أنّ الشعوبيين كانوا أصنافاً مختلفة، منهم فرس ومنهم نبط ومنهم قبط ومنهم أندلسيون، وقد صبغت شعوبية كل صنف من هؤلاء صبغة خاصة،

١ أحمد أمين، **ضحى الإسلام**، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٣٥، ص٢٨.
٢ **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص١٣٨.
٣ **ضحى الإسلام**، مصدر سابق، ص٥٨.

فلدى الفرس ظهرت طبقة وطنية تدعو إلى الاستقلال، واتّخذت في بعض الأحيان شكل زندقة وإلحاد، والنبط ظهرت على شكل عصبية للأرض وزراعتها، وتفضيل معيشة الحرث والزرع على الصحراء ومعيشتها..."[1].

لقد دُهش الفرس من الحال الجديد الذي أصبحوا عليه، وتململوا من أوضاعهم تحت حكم العرب وسيادة هؤلاء عليهم وتدمير دولتهم (الساسانية) ومملكتهم (ذات الطبيعة شبه المقدسة) ودينهم (الزرادشتية وفروعها) وتحوّلهم إلى أتباع وموالٍ للعرب وهم الأكثرية الساحقة في بلادهم، وكيف أن هؤلاء العرب لم يطبّقوا ما جاء في القرآن وأحاديث الرسول وسنّته عن المساواة بين الأفراد والشعوب، وحاولوا التآمر على العرب وإسقاط دولتهم. إلا أن ابن خلدون كان يرى أنه لم يكن عند الفرس نزعة قبلية، ولم يكونوا يعنون بالأنساب عناية العرب بها، وكانت العصبية القوية عندهم هي العصبية للأمة[2]. وربما يدل هذا على أن المجتمع الفارسي قبل الإسلام كان مجتمعاً متطوراً، لمعيار المواطنة فيه دور هام، أقوى من دور القبلية أو من المعايير الثانوية الأخرى.

بقي الفرس يرفضون واقعياً الهيمنة العربية وهيمنة الدين الإسلامي وإلغاء نزعتهم القومية. ولهذا ثاروا ضد الحكم العربي عدة مرات، ولعل أهم ثوراتهم تلك التي قادها أبو مسلم الخراساني باسم الخليفة العباسي، أو محاولة تولي السلطة من داخلها كما فعل البرامكة. كما حاولوا عدة مرات أن يحوّلوا الإسلام إلى ثقافة فارسية، وأن يتيحوا الفرصة لهذه الثقافة أن تهيمن عليه وعلى الثقافة العربية، وقد تبدى ذلك في عدة شواهد لعل على رأسها محاولة تكييف "ارتدادات الخسارة الجسيمة" في معركة القادسية في اللاوعي الديني عند الإيرانيين لتخرج معركة القادسية في ثوب ديني كربلائي جديد. بمعنى أن المتدين الإيراني استطاع أن يخلص من الحرج الديني الذي قد يحسّ به إذا أخذ في نفسه من هزيمة القادسية التي أفضت إلى دخول إيران في الإسلام، واستطاع أن يوفّق بين إيمانه بالإسلام وحفاظه على الصورة السلبية للعربي، وذلك بالتحول من رمزية "معركة القادسية" عند القوميين الفرس إلى رمزية "معركة كربلاء" عند المتدينين الشيعة. وبذلك

١ **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص١٤٠.
٢ المصدر السابق، ص١٢٨.

يضمن اللاوعي الديني الفارسي الإبقاء على كراهية الصورة العربية دون أن يقع في حرج الأسباب الحقيقية التي أدّت إلى هذه الكراهية المتمثلة في "معركة القادسية" لا "معركة كربلاء"[1]، وإلى التعصب القومي لا التعصب الديني الشيعي.

كما أنهم اتخذوا من الرواية التي تقول إن العرب أسروا بنات يزدجرد الثلاث وتزوجهن أبناء علي بن أبي طالب (الحسين) وعمر بن الخطاب وأبو بكر الصديق، فقد قال الزمخشري[2]: "إن بنات يزدجرد اللواتي اقتدن أسيرات من المدائن، واشتراهن علي بن أبي طالب، قد وزّعهن على ابني أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلى ابنه الحسين بن علي، الذي سينجب من أمته سلافة (ويُقال غزالة أو شهريانو) علياً زين العابدين، الناجي الوحيد من مجزرة كربلاء. أما أبناء عثمان فلم يحصلوا على أيٍّ من بنات يزدجرد، مع أن الأسطورة كانت تحتمل إدخال ابنة رابعة، ويعود ذلك، أي عدم التزويج لأبناء عثمان، لأن الشيعة كانوا يريدون إسقاط الحق في الخلافة عن الأمويين ورثة عثمان، علماً أنه يقال إن الخليفة الأموي يزيد الثاني[3] هو ابن أميرة ساسانية هي شاخفراند (أو شاهي فرند) بنت بيروز ابن الإمبراطور الساساني الأخير يزدجرد الثالث. لكن هذا لم يشفع للأمويين عند الموالي الذين ذاقوا التمييز العنصري ضدهم على أيدي عمال بني أمية على فارس كما على غيرها[4]، ولأن الأمويين كانوا منحازين للعنصر العربي ومعادين للشعوبية ومتوجسين من الفرس.

وهكذا جمع علي زين العابدين بن الحسين نبل السلالتين العربية والفارسية، أي كما قال الشاعر الفارسي مهيار الديلمي في مطلع القرن الرابع الهجري:

وَضَمَمْتُ الفخرَ مِن أطرافه　　　سُؤدَدَ الفُرس وَدِين العَرَبِ

وعلى كل حال فإن إيران التي فُرِضَ عليها الإسلام لم تتعرّب أبداً، خلافاً للشعوب الأخرى أو معظم هذه الشعوب، واحتفظت إلى حدّ بعيد بمفاهيمها ومعاييرها القومية

---

١ محمد جميح، "صورة العربي في المخيال الفارسي"، **الشرق الأوسط**، ٢٠١١/١٢/١٩.

٢ الزمخشري: ولد في زَمَخْشَر سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م، وتوفي سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م في جرجانية خوارزم، بعد رجوعه من مكة. يقول السمعاني في ترجمته: برع في الآداب، وصنف التصانيف، وَرَدَ العراق وخراسان، ما دخل بلداً إلا واجتمعوا عليه، وتتلمذوا له، وكان علاّمة نسّابة.

٣ يزيد الثاني: خليفة أموي، حكم بين ٧٢٠-٧٢٤م قبل عمر بن عبد العزيز مباشرةً، كان متساهلاً يعتمد على الولاة، شهد حكمه ثورة في القوقاز دامت خمسة عشر عاماً.

٤ **الفتوحات العربية في روايات المغلوبين**، مصدر سابق، ص١٥٢.

واللغوية. وقد وصف الكاتب الإيراني المعاصر شاه رخ مسكوب موقعها فقال: "لقد كانت إيران شجرة جديدة غُرست في مناخ الإسلام لكنها نبتت في تربة ذاكرتها القومية الخاصة بها"[1]. لهذه الأسباب تنتهي ملحمة الفردوسي[2] **الشاهنامة**[3]، وهو فارسي، بقدوم العرب المسلمين والقضاء على إيران الساسانية واحتلالها، فتصور **الشاهنامة** العرب على أنهم أقل مدنيةً من الإيرانيين، وهذا ما تكرره الكتب المدرسية الإيرانية الآن في عصرنا[4] حيث تشير إلى أن رستم، وهو آخر قائد في الجيش الفارسي، انهزم أمام سعد بن أبي وقاص، مما ساهم في النصر العربي. وتقول الكتب المدرسية الإيرانية إنّ رستم هذا قال في رسالته إلى سعد قبل المعركة بصلف وعجرفة كان رجال الدولة الفرس يمارسونها دائماً ويشتهرون بها، ومثل هذا القول في الواقع رأي الفرس بالعرب قبل معركة القادسية: "على من تنشد الانتصار، أنت أيها القائد العاري لجيش عارٍ، رغيف خبز يشبعك، ورغم ذلك تبقى جائعاً. ليس عندك فيلة ولا منابر ولا مؤنٍ ولا تجهيزات. إن وجودك فقط في إيران يكفيك... من حليب النوق والسحالي جاء العرب إلى هنا طامحين لعرش كياني، أليس في وجوهكم حياء". ولكن هذا الغرور لم يمنع قتل رستم[5] وهزيمة جيشه في معركة كانت سبباً رئيساً لانهيار الإمبراطورية الساسانية وبدء الهيمنة العربية عليها. ويبدو أن هذه الرواية مختلقة، لأنها لم ترد سوى في الكتب المدرسية الإيرانية المعاصرة وفي بعض الكتابات الحديثة، ولم يذكرها أي نص تاريخي آخر قديم، لا عربي ولا أجنبي.

---

١ تقرير للعربية عن "صورة العرب في الأدب الفارسي"، موقع **العربية الإلكتروني**، ٢٠٠٨/٧/٢١.

٢ الفردوسي: أبو القاسم الفردوسي، شاعر فارسي (٩٣٥–١٠٢٠م). ولد في خراسان في قرية قرب مدينة طوس (في إيران اليوم). عاش تحت حكم السامانيين. اشتهر بتأليف كتاب **الشاهنامة** الشهير.

٣ **الشاهنامة** (كتاب الملوك) أو (ملحمة الملوك): ألفه الفردوسي أبو القاسم منصور في فترة ١٠٠٠م، ويعدّ الملحمة الوطنية لبلاد فارس، ويشكل الكتاب ثقلاً كبيراً بالنسبة للقوميين الفرس. المحتوى وأسلوب الشاعر في وصف الأحداث يعيدان القارئ ألف سنة ويسمحان له باستشعار الأحداث في المسرح السحري للعقل. وهو مبني بشكل رئيسي على نسخة نثرية سابقة كانت تجمع القصص الإيرانية القديمة والحقائق والخرافات التاريخية. واصل الفرس القراءة والاستماع إلى هذا العمل النادر الذي وجدت فيه الملحمة الوطنية الفارسية شكلها النهائي. وهو تاريخ ماضي إيران طوال عشرة قرون مسجّل على شكل شعر.

٤ انظر الحاشية رقم ٢، ص٣١.

٥ وافتخر قاتله هلال بن علفة في معركة القادسية صائحاً: "قتلت رستم ورب الكعبة".

لم ينسَ الفرس منذ الفتح العربي أنّ العرب المسلمين قد أخضعوهم عنوةً وجعلوا بلادهم جزءاً من الخلافة الإسلامية، وهم يعتبرون دائماً أن العرب المسلمين قد "قضوا على الحضارة الفارسية، واحتلوا أرضها بالسيف والدم، وقاموا بسبي النساء، كما يتضح ذلك في أعمالهم الأدبية والشعرية"[1].

يقول الكاتب الإيراني المعاصر مهدي أخوان ثالث، ويشاركه نادر ناربور الرأي: "إن حقبة ما قبل الإسلام هي عصر إيران الذهبي، وإن العرب أفسدوا كل جانب من جوانب الحياة الإيرانية"، ويستطرد قائلاً: "رغم الفساد الأوروبي في أيامنا هذه فإن قذارة العرب وعارهم أكثر بشاعةً: هذا الشيطان العربي القديم قد غزا ولا يزال، قتل ودمّر ولا يزال"[2]. أي أن هذين الكاتبين وعديد من أمثالهما يلقون على العرب تبعية تدمير الحضارة الإيرانية لعصر "إيران الذهبي".

أما الكاتب المعاصر زيبا كلام، وهو من الكتاب المشهورين، فيؤكد في المجال نفسه: "يبدو أننا كإيرانيين لم ننسَ بعد هزيمتنا التاريخية أمام العرب، ولم ننسَ القادسية بعد مرور ١٤٠٠ عام عليها، إنها تخفي في أعماقنا ضغينةً وحقداً دفينين تجاه العرب، كأنها نار تحت الرماد، قد تتحول إلى لهيب كلما سنحت لها الفرصة..."[3]، ويضيف زيبا كلام: "إن الحقد والضغينة تجاه السنّة ورموزهم لدى الكثير من الإيرانيين هما في واقع الأمر الوجه الآخر للحقد على العرب. حيث يعبّرون عن كراهيتهم على شكل لعن أهل السنة"[4] تحت مبرر أنهم قتلوا الحسين وخذلوا أنصار علي بن أبي طالب (الشيعة)، بينما السبب الحقيقي في الواقع هو سبب آخر، قومي.

حاول الإيرانيون "أيرنة" الإسلام والثقافة العربية بدلاً من أن يتعربوا ويتأسلموا شأن الشعوب الأخرى، لأن العرب بنظرهم محتقرون، وكانوا يرون إمكانية خطف الحضارة الإسلامية ونسبها إليهم، حيث يعتبرون أن الإسلام الحق ظهر فقط عندما وصل إلى الإمبراطورية الفارسية، وفي هذا السياق تقول جويا بلندل إنهم كانوا يرون أن "الإسلام بات حقيقياً فقط عندما وصل إلى المنطقة بين دجلة والفرات، أما بعدئذ

١ تعليق على كتاب **صورة العرب في الأدب الفارسي**، مصدر سابق، الإنترنيت.
٢ المصدر السابق.
٣ **صورة العربي في المخيال الفارسي**، مصدر سابق.
٤ المصدر السابق.

فقد بات المركز الثقافي والسياسي للإمبراطورية الساسانية. وقبل ذلك كانت النزعة الجاهلية والقبلية عند العرب هي السائدة"[1].

لاحظ الباحث محمد جميح في مقاله "صورة العربي في المخيال الفارسي" كيف تكيّفت ارتدادات الخسارة الجسيمة في معركة القادسية إلى وعي الدين عند الإيرانيين، لتخرج هذه المعركة في ثوب كربلائي جديد، بمعنى أن المتدين الإيراني استطاع أن يخلص من الحرج الديني الذي قد يحسّ به إذا أخذ في نفسه من هزيمة القادسية التي أفضت إلى دخول إيران في الإسلام، واستطاع أن يوفق بين إيمانه بالإسلام والحفاظ على الصورة السلبية للعربي، وذلك بالتحول من رمزية معركة القادسية عند القوميين الفرس إلى رمزية معركة كربلاء عند المتدينين الشيعة، وبذلك يضمن اللاوعي الديني الفارسي الإبقاء على كراهية الصورة العربية دون أن يقع في حرج الأسباب الحقيقية التي أدت إلى هذه الكراهية المتمثلة في معركة القادسية لا معركة كربلاء. وأضاف جميح: "وهكذا، على الرغم من أن الاحتفال بذكرى كربلاء يظهر في ثوب ديني على أنه حزن على استشهاد الإمام الحسين، فإنه يمكن أن يحمل أبعاداً قومية تمتد إلى أيام القادسية التي أحدثت شرخاً تاريخياً لدى الذاكرة القومية الفارسية، دون أن يلتئم ذاك الشرخ الذي ظهرت فيه القادسية فيما بعد في صورة كربلاء، وتحول فيه البكاء المفجع على رستم وقادة الفرس العظام الذين قضوا في القادسية إلى بكاء طقوسي على الحسين وأهل بيته الذين قضوا في كربلاء"[2].

والأمر الآخر الذي أكّد عليه الفرس هو ما قاله الزمخشري حول زواج بنات يزدجرد من أبناء الصحابة، حيث يرى دي بريمار أن خلف الأسطورة التي تتحدث عن سلافة بنت يزدجرد، وأم زين العابدين، يقف الشيعة الإيرانيون الذين استطاعوا أن يجمعوا بين نبل السلالتين العربية والفارسية، وهكذا "أصبح يزدجرد، من دون أن يدري أو يريد، جداً لسلالة الأئمة، أي التراجمة الملهمين إلهياً لشريعة الإسلام"[3].

لعل هاتين الحادثتين التاريخيتين (كربلاء وزواج بنات يزدجرد) تدلان دلالة

---

١ **صورة العرب في الأدب الفارسي الحديث**، مصدر سابق، ص١٢٦.

٢ "صورة العربي في المخيال الفارسي"، مصدر سابق.

٣ دي بريمار، **تأسيس الإسلام**، دار الساقي، بيروت ٢٠٠٩؛ **الفتوحات العربية في روايات المغلوبين**، مصدر سابق، ص١٢٦.

واضحة على محاولة الفرس نزع الإسلام من العرب وتبنّيه، تعويضاً عمّا خسروه من مجد قومي وديانة زرادشتية بعد معركة القادسية، ويبدو أنهم يعيدون باستمرار محاولات نزعه من جديد من يد العرب، واعتبار الفرس هم أهله وأنصاره ومفسّروه ومؤولّوه وحاملو رايته، وأنهم وحدهم مالكو روح الإسلام والمتصدون لمسؤولية نشره والدعوة إليه.

لقد حاول الفرس الاستيلاء على السلطة فعلياً وإبقاء الخلافة العربية خلافة رمزية، وكان ذلك واضحاً (كما مرّ معنا) في محاولات البرامكة الذين تولوا السلطة الفعلية زمن هارون الرشيد واضطروه إلى القيام بمجزرة ضدهم، أو في ثورة أبي مسلم الخراساني، وفي الحراك الشعوبي الذي كانوا على رأس محرّكيه والفاعلين فيه كما أشرنا سابقاً. ولم يضعف فشل كل هذه المحاولات استمرار مطالب النزعة القومية الإيرانية وحراكها ومطامحها وأمانيها، لأن الوعي القومي الإيراني تأسس منذ مجيء الإسلام على اللغة الفارسية وعلى تاريخ الفرس قبل الإسلام، كما هو رأي الكاتب شاه رخ مسكوب الذي يؤكّد ذلك قائلاً: "بالنظر إلى شيئين اثنين فقط كنا إيرانيين منفصلين عن المسلمين الآخرين، فقد باشرنا بناء هويتنا التراثية بوصفها شيئاً أو أمة على عاملي التاريخ واللغة". وقد حاول الفرس دائماً تعميق نزعتهم القومية دون كلل، وقد وجدت هذه النزعة القومية في "الإرث الفارسي السابق للإسلام مصدراً للفخر والعزة الثقافية، وفي هذه النزعة تمّ تمجيد بلاد فارس قبل الإسلام والديانة الزرادشتية والعرق الآري، ولعن العرب المسلمين لتسببهم في انحدار بلاد فارس من العظمة التي كانت عليها إبان مرحلة ما قبل الإسلام"[١].

وكان الفرس يعتقدون دائماً أن العرب قد أفقدوهم تاريخهم السابق و"قضوا على حضارتهم وفرضوا عليهم ديناً سامياً صحراوياً لا يمتّ بصلة إلى ديانتهم الزرادشتية القديمة"[٢].

أما ما يتعلق بالأسباب التي دفعت العرب للغزو، بحسب الكاتب هدايت، فإنهم أرادوا أن يُخضعوا إيران لكي يدمّروا الثقافة والحضارة الإيرانية وينهبوا ثرواتها. وجعلوا الدين مسوّغاً للغزو ووسيلة لتدمير الهوية الإيرانية[٣]. وكان الفتح العربي

١ "العرب كما يصورهم الفرس"، مصدر سابق.
٢ الشبكة الوطنية الكويتية، مصدر سابق.
٣ **صورة العرب في الأدب الفارسي**، مصدر سابق، ص٥٥.

الإسلامي، حسب رأيهم، عاملاً أساساً لتدمير الحضارة الفارسية وثقافتها ودينها.

في ضوء ذلك، كره الفرس العرب منذ الفتوحات ووصفوهم بأبشع الأوصاف واتّهموهم بشتى التهم، فالعربي في الأدب الفارسي هو "الآخر" وليس "الأخ" أو "الجار" كما تقول جويا بلندل التي تضيف أنّ المفكرين الإيرانيين يلقون جانباً من تخلّف بلدهم على الإسلام، وأن حضارة إيران، سواء أكانت ساسانية أو أخمينية، دمّرها "بدو متوحشون". ويقول كرماني، وهو أحد المفكرين من هذا الطراز، إن الإسلام دين غريب فرضته على "الأمة الآرية النبيلة"[1] أمة سامية هي عبارة عن حفنة من آكلي السحالي الحفاة العراة البدو الذين يقطنون الصحراء؛ إنهم العرب المتوحشون الذين جلبوا الدمار للحضارة الإيرانية[2].

يعبّر باحث إيراني اسمه أخوان عن موقف الفرس من العرب فيقول: "أفسد العرب كل جانب من جوانب الحياة الإيرانية: من الدين والأسطورة والمأثورات الشعبية إلى اللغة والأدب والتاريخ. إن التقاليد العربية المشؤومة، وعدوى التعريب الملوثة والفظيعة، أفسدت شعرنا التقليدي، ليس فقط على صعيد الشكل والبحر والوزن والمنظومة البيانية، وإنما أيضاً على صعيد معظم الأعمال الشعرية، ورزحت لغتنا الوطنية (أي الفارسية) تحت هيمنة الخرافات العربية السامية والإسلامية"[3]. ويسترسل هذا الكاتب مهاجماً العرب ومفرّغاً ما لديه من كره لهم واحتقار لحضارتهم ودينهم، وهو من المفروض أنه مسلم ومستعرب، إلا أن ما يقوله ينبئ عن تبرّئه من الإسلام ومن الثقافة العربية، بل ومن علاقات العيش المشترك. لندقق في قول أخوان الذي يوجّهه للعرب: "إن الإله الذي تعبدون هو أهريمن، إله الحرب حسب الديانة الزرادشتية، إله القتل، إله الانتقام، إله الوحشية المتعطش للدماء. أفعالكم وأسلوب حياتكم وعاداتكم مبنية على التعذيب والإهانة. أنتم متعطشون لدماء البشر. أفعالكم تدنّس الأرض وتهين الجنس البشري". وهكذا يكيل الشتائم للعرب ودينهم وتقاليدهم وأنماط حياتهم باندفاع واضح وحقد كبير، ويضيف: "نعم بدأنا الحرب لأن دينكم لا يلائمنا نحن

١ لنتذكر أن الفرس هم من العرق الآري الذي يفتخرون بانحدارهم منه حتى الآن، وكان النازيون يفاخرون بالانتماء إلى العرق الآري أيضاً.
٢ الشبكة الوطنية الكويتية، مصدر سابق.
٣ المصدر السابق.

الإيرانيين، ربما كان جيداً لكم، لأنكم تعيشون كما الحيوانات الضارية، ربما دلّكم على الطريق القويم، لكننا عرفنا طريق الخير وطريق الشر منذ أزمنة غابرة"[1].

وهكذا يوصف العرب عند الكثير من الكتّاب الفرس المعاصرين بأنهم متعطشون للدماء ومتوحشون، ويوصف الإسلام بأنه أداة اضطهاد، وأن العرب والإسلام قد أفسدوا كل جوانب الحياة الفارسية من الدين والأسطورة والمأثورات الشعبية واللغة والأدب والتاريخ[2].

أصرّ هؤلاء الكتّاب على إلقاء تبعة تخلف مجتمعهم واندثار حضارتهم على العرب والمسلمين، متجاهلين أن انهيار إمبراطوريتهم قبيل قدوم العرب المسلمين كان ذاتياً وداخلياً ولأسباب موضوعية نضجت قبيل القادسية، وما نتائج القادسية نفسها إلا دليل على انهيار مجتمعهم وحضارتهم ودولتهم.

لقد بلغت سخرية الكتّاب الفرس من العرب أشدّها في قول محمد علي جمال زادة، وهو بدوره كاتب معاصر، حيث يقول: "في الصحراء يأكل العربي الجراد مثلما يشرب كلب أصفهان المياه المثلجة". ولا شك أن هذا الوصف يعبّر عن حقد وكره أكثر مما هو وصف لحال قائم مهما كان هذا الوصف منحازاً.

يعبّر الكاتب صادق زيبا كلام بموضوعية عن الرأي الفارسي بالعرب، ولا يصدر قوله عن حقد أو كره شخصي لهم، وإنما يختصر وجهة نظر فارسية قديمة ودائمة تأسست بعد القادسية واستمرت حتى الآن، وربما كانت وجهة النظر هذه تنطلق من مشاعر الكره أكثر مما تعتمد على موقف سياسي أو أخلاقي فقط، ويبدو أن المخيال الفارسي عن العرب، يخلط المشاعر بالموقف السياسي والديني والتعصب القومي بل والعنصرية. وهذا ما يشير إليه صادق زيبا كلام في قوله: "أعتقد أن الكثير منا، سواء كان متديناً أو علمانياً، يكره العرب"، وهذا صحيح، فالعربي في مخيال التيار القومي الفارسي في إيران هو "ذلك الحافي القذر، الموبوء، البشع، صاحب الجلد الأسود، المتعطش للدماء، القاسي، المتوحش، الكريه، الشيطان، اللص، آكل النمور والسحالي، المغتصب، راكب الجمل، وائد البنات، المخادع، الجشع،

---

١ **صورة العرب في الأدب الفارسي**، مصدر سابق، ص٥٩.

٢ "العرب كما يصورهم الفرس"، مصدر سابق.

الوحش البغيض، المنكر للآخرين، البدائي، الهمجي، المثير للقرف والاشمئزاز"[١].

ومن الواضح الحقد العميق والاحتقار والكره للعرب والاستخفاف بهم، وهذا في الواقع هو رأي النخبة الفارسية أيام الشاه وما قبل، وربما رأي أغلب الفرس وليس رأي الكاتب فقط من خلال ما جاء في أدبياتهم وسجّلته مواقفهم منذ أكثر من أربعة قرون، أي منذ الصفويين حتى عصرنا، ولا يغير من الأمر شيئاً أن رقابة الجمهورية الإسلامية قد منعت نشر مثل هذه الآراء. وربما يمكن استثناء شرائح من عامة الشعب من هذا الرأي، خاصةً أولئك الذين لم يخطفهم التعصب القومي الإيراني لتواضع ثقافتهم.

يشارك كتّاب آخرون زيبا كلام الرأي، مثل ميرزا آغا خان كرماني وشاه رخ مسكوب وصادق هدايت ومحمد علي جمال زادة وغيرهم، وجميعهم من كتّاب النهضة الإيرانية والحداثة في القرن العشرين.

إن التعبير عن كره العرب واحتقارهم لا يقتصر على الكتاب الحديثين، وإنما هو قديم، أي منذ أيام الدولة العباسية، وهذا ما عبّر عن نفسه بالممارسة أيام البرامكة، وبعد عدة قرون أيام الصفويين، كما عبّر عن نفسه من خلال الكتب والأدب والشعر وما شابهها. فليس فقط **الشاهنامة**، ملحمة الفردوسي الشهيرة، هي التي صورت العرب على أنهم أقل مدنيةً من الفرس، وإنما أيضاً تبنّى كتاب **سفر نامة** لناصر خسرو في القرن الحادي عشر[٢] الأمر نفسه، ووصف العرب بأبشع الأوصاف بعد عودته من مكة، فهم حسب وصفه "اللصوص المجرمون الذين يتقاتلون فيما بينهم"، ويضيف قائلاً: "وقد أخبرني أحد رجال القبائل أنهم في حياتهم لم يشربوا سوى حليب النوق"، ويسترسل: "لقد كانوا جوعى جاهلين وعراة، وكل من جاء ليصلي في الكعبة كان يأتي بسيفه وترسه، وكان ذلك أمراً طبيعياً"[٣]. ومع أن خسرو جهد ليظهر أن قوله يتعلق بالبدو، إلا أنه في الواقع كان يعني العرب من خلال استطراداته. وإذا تذكرنا أن هذا

---

١ **صورة العربي في المخيال الفارسي**، مصدر سابق.

٢ ناصر خسرو بن حارث القباداني البلخي (١٠٠٣–١٠٨٨): رحاله وشاعر فارسي مجدد شغل مناصب هامة في الدولتين الغزنوية والسلجوقية، يعتبر ديوانه **الديوان** من أرقى ما كُتب في الأدب الفلسفي الفارسي. زار مصر وعاش في القاهرة ثلاث سنين. كتب كتاب **سفرنامه** عن رحلته التي دامت سبع سنين (من سنة ١٠٤٥ إلى ١٠٥٢) وزار خلالها القدس والحجاز والهند وسجّل أحداثها يوماً بيوم.

٣ د. محمد بن صالح العلي، "عنصرية الفرس ضد العرب"، موقع منتدى قصة الإسلام، ٢٠١١/٥/٨.

الوصف هو ابن القرن الحادي عشر، أي في حقبة نضوج الحضارة العربية الإسلامية وارتفاع مستوى المعيشة وتطوير العادات والتقاليد وأنماط الحياة، ندرك سوء النية التي أحاطت بكتابته وعدم الصدق والانحياز للموقف المسبق. وحسب قول الباحثة جويا بلندل "حتى عندما اعتنقت إيران الإسلام الشيعي صبغته بصبغة إيرانية، لقد أسبغ الفرس عليه العناصر الفارسية"[1] ما نأى به عن التشبّه بصورته ومظاهره العربية المعروفة.

يعتقد الكاتب الإيراني هدايت أن إصلاح الشعب الإيراني يكمن في العودة إلى الأصول الشرقية والزرادشتية، وهذا ما يعبّر عنه في مسرحية **بروين ابنة ساسان**: "لم يؤذنا أحد من قبل كما فعل العرب. لقد دمّروا كل شيء نملكه. فقد سلبوا وأحرقوا وقتلوا... وجيشهم متعطش للدماء... وسبوا النساء وقطعوا الرؤوس"، ويضيف: "لكي يدمّروا الدين الزرادشتي لم تردّهم أي همجية أو أي عسف"، وأنّ "الإيرانيين المتحضرين قد أخضعهم العرب آكلو السحالي"[2]. ولأن هذا القول يصدر عن كاتب مسلم فهو يعطينا مدى الحقد على العرب والمسلمين، ومن المستغرب من كاتب مسلم يأسف ويتحسّر على تدمير الدين الزرادشتي!

لم ينفكّ العداء الفارسي للعرب عن الانقطاع منذ معركة القادسية وانهيار الإمبراطورية الساسانية ولقرون قادمة، وبقي الحنين الفارسي للفخر بالانتساب للعرق الآري وللإمبراطورية الساسانية واللغة الفارسية قائماً ومهيمناً طوال التاريخ، ورافقه كره حقيقي للعرب لأنهم العدو الرئيسي للفرس، ولكن الظروف، وقوة الإمبراطورية العربية، وانتشار الحضارة الإسلامية فيما بعد وعظمتها، اضطرت الفرس لإخفاء آرائهم، والعودة للتقية، ومحاولة "أيرنة الإسلام" والاستفادة من المذهب الشيعي لتحويل الإسلام إلى دين إيراني، والاختباء تحت مظلته، وكأنه دين الفرس لا دين العرب. وهذه المواقف والأفكار هي في الواقع آراء وأفكار النخب الفارسية ومعظم الأدباء والمثقفين الفرس، كما هي آراء معظم الحكام الفرس، وكذلك تؤمن بمثلها فئات عديدة من الشعب الفارسي وخاصةً من الميسوريين.

---

١ **صورة العرب في الأدب الفارسي الحديث**، مصدر سابق، ص ٣٠-٣١ وما بعد.
٢ تقرير للعربية نت عن "صورة العرب في الأدب الفارسي"، مصدر سابق.

الفصل الثاني

الترك الفرحون
بالدين والثقافة العربية الإسلامية

تمهيد

لا تشابه العلاقات التركية العربية تلك العلاقات التي كانت ومازالت قائمة بين العرب والفرس، وذلك لاختلاف الظروف التاريخية المتعلقة بتاريخ كلٍّ من الفرس والترك قبل الإسلام وبعد أن دخلت هذه الشعوب في الإسلام، وبالتالي طريقة تعامل العرب معها وطريقة تعاملها مع العرب الحاكمين ومع الدين الإسلامي والتقاليد والقيم العربية والإسلامية، ثم طبيعة الإمارات والدويلات التي أقامها كلٌّ من هذه الشعوب. وفي الخلاصة، وفي ضوء هذا التاريخ وضوء المصالح الذاتية لكلٍ من الشعبين، كانت صورة العربي مختلفة لدى الفرس عنها لدى الترك. وكما أشرنا في الفصل السابق، كان الفرس ومازالوا يحمّلون العرب المسلمين وفتوحاتهم أوزار انهيار الإمبراطورية الساسانية واندثار العصبية الفارسية والديانة الزرادشتية والثقافة الفارسية وتهميش اللغة الفارسية. بينما كان الأمر مختلفاً لدى الترك، ذلك أن الأتراك كانوا قبائل متعددة تسكن وسط آسيا ووراء الأناضول، لا يجمعها سوى تشابه في لغاتها ولهجاتها التي تصل إلى ثلاثين لغة ولهجة، إضافةً إلى تشابه في أنماط عيشها نصف الحضرية، ولم يكن لأيٍّ من هذه القبائل، وإن شئنا شعوب الترك هذه، أية إمبراطورية أو دولة مستقرة أو حتى حياة حضرية متقدمة. وبالتالي فإن الفتح العربي الإسلامي لبلدان الترك لم يؤدِّ إلى انهيار أي مملكة أو إمبراطورية تركية، بل نقل هذه القبائل من نمط حياة نصف حضري إلى حياة الاستقرار وبناء إمارات مدينية. ومن جهة أخرى، كانت ديانات الترك السابقة للإسلام ديانات بسيطة جوهرها التصوف وبعض المبادئ الأخلاقية القريبة من الإسلام وتعاليمه، وهذا ما جعلهم يتقبلون الإسلام بسهولة ويعتزون بالانتماء إليه، في الوقت الذي كانوا يرون في العرب فرساناً محاربين، وكان الفرسان المحاربون (وهذه

كانت قيمة اجتماعية وأخلاقية هامة ومجال فخر لدى الأتراك) يلقون إعجاباً حسب تقاليد الترك، خاصةً وأن معظمهم من قبائل محاربة شديدة البأس وعظيمة الشجاعة. وفي الحالات كلها فإن شعوب الترك ربحت من قدوم الإسلام ومن دخولها فيه، فتطورت مجتمعاتها وتحضّرت أكثر، وارتفع مستوى عيشها عمّا كان عليه، ونقلها الدخول في الإسلام من حال متخلفة إلى أحوال متقدمة ومتحضرة وأهّلها كي تؤسّس دويلات وتقودها وتلعب دوراً هاماً في التاريخ، على عكس ما حلّ بالفرس.

دخل العنصر التركي دخولاً مؤثراً في سياسات الدولة العربية منذ بداية القرن الثالث الهجري في عصر الخليفة المعتصم (وأمه تركية)، وانتهى بعصر الخليفة المستكفي في أوائل القرن الرابع الهجري. وكان دخول الترك عن طريق توسّع الفتوحات الإسلامية في بلادهم، وأسواق النخاسة التي جلبت جواري وغلمان إلى الدولة العباسية، والأسر في الحروب. وبدأ نفوذ الترك في الواقع قبل ذلك، أي منذ عهد الأمويين، ولكن لم يكن لهم أثر سياسي إلى أن تمّت مبايعة المعتصم، وكان الصراع بين الفرس والعرب على أشده، وعندها رأى المعتصم اللجوء إلى الترك كقوة عسكرية يعتمد عليها، خاصةً وأن الثقة بالفرس كانت ضعيفة، كما تعددت الحركات الفارسية المناهضة للخلافة. وفي الوقت نفسه لم تكن ثقة المعتصم قوية بالعنصر العربي وكان يخاف منه دائماً. وعلى أية حال فقد قرّب المعتصم الترك وخصّهم بالنفوذ واستغلّ مواهبهم العسكرية للحفاظ على دولته وحماية خلافته ومواجهة الخطر الذي يمكن أن تتعرض له، سواء من الحركات الفارسية المناوئة أم من محاولات غزو الدولة البيزنطية، مما مكّن الترك من الهيمنة على الخلافة وساعدهم على الاستئثار بالسلطة.

قلّد المعتصم الترك قيادة الجيوش وأعطاهم دوراً سياسياً، ثم بنى لهم مدينة سامراء وأسكنهم فيها بعد أن عاثوا فساداً في بغداد، وقد ازداد نتيجة ذلك دخول الأتراك في الإسلام وتأدّبوا بالآداب الإسلامية. ولكنّ سياسة المعتصم هذه، أي سياسة تمكين الترك بشكل عام، أدّت إلى أضرار بالغة بالخلافة العباسية وأخرجتها عن مسارها العربي وأضعفت سلطة الخليفة، مما أدّى إلى نشوء الدويلات الانفصالية في مختلف أرجاء الإمبراطورية العربية الإسلامية وإلى بروز شخصيات تركية طامحة إلى الاستئثار بشؤون الحكم. واستقلّ الترك في بعض الولايات استقلالاً ذاتياً، وتدخلوا في اختيار

الخلفاء وتوليتهم وعزلهم، ثم أخيراً دبّ الضعف في النفوذ التركي وزال هذا النفوذ نهائياً مع قدوم البويهيين في النصف الثاني من القرن التاسع والأول من القرن العاشر الميلادي.

كانت العلاقات العربية مع شعوب الترك علاقات ودية وحميمة وعلاقات تعاون، لكنها لاقت صعوبات وخللاً منذ احتل العثمانيون الأتراك البلدان العربية في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، وحكموا هذه البلدان كمحتلين، ثم ما لبثوا أن فرضوا اللغة التركية على إدارات الدولة في البلدان العربية وعلى التعليم في المدارس والمحاكم، بديلاً عن اللغة العربية، إضافةً إلى جبي الرسوم والضرائب وتطبيق نظام السخرة على العرب، وتجنيد الشباب العرب وإلزامهم بالخدمة خارج بلادهم، ورفض إعطاء الحكم الذاتي لمعظم البلدان العربية. وهذا كله جعل الحكم العثماني يشكّل عبئاً كبيراً على العرب، مما أدى بهم إلى رفض سياسة التتريك، وطالبوا بالتعلّم بلغتهم وقبولها في المحاكم ودوائر الدولة، ومعاملة العرب كمواطنين من الدرجة الأولى، كما هو حال الأتراك العثمانيين بشكل عام، في الوقت الذي نادى فيه المثقفون والسياسيون وأبناء البرجوازية العربية الناشئة والمتنورون من رجال الدين بالنهضة والحداثة وتحديث الدولة العثمانية برمّتها وبكلّ مكوناتها، أي تحديث إدارتها ونظامها السياسي وواقعها الاقتصادي وتحالفاتها الخارجية وحقوق شعوبها وغير ذلك. وهذا ما خلق تناقضاً بين السلطة العثمانية المستبدّة وبين العرب، ذلك لأن السلطة العثمانية حاولت استعداء الشعب التركي ضد العرب من خلال إقناعهم بأن مطالبة العرب بحقوقهم، بما في ذلك اللامركزية، إنما هي موجّهة ضد الشعب التركي وليس من أجل إصلاح النظام واستعادة الحقوق العربية. وقد تحول ذلك إلى تناقض بين الشعبين التركي والعربي أيام الإمبراطورية العثمانية، مما أدى إلى تشوّه وتشويه الصورة التركية لدى العرب والصورة العربية لدى الترك، وإلى تنامي شعور العرب بالظلم العثماني الواقع عليهم، فقامت الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين، حاكم مكة والحجاز، الذي توصّل إلى اتفاقات مع البريطانيين نكثوا بها بعد انهيار الدولة العثمانية، فلم يمنحوا الاستقلال الفعلي لأيٍّ من الشعوب العربية، ولكنهم أقاموا إمارة للملك عبد الله بن الحسين في الأردن، ونصّبوا فيصل بن الحسين، الابن الثاني، ملكاً على العراق،

تعويضاً عن إخلالهم بالاتفاقات، وتلبيةً لحاجات استراتيجية للحلفاء وللاستعمار البريطاني، وتمهيداً لإقامة دولة لليهود في فلسطين. وهذا (أي الاتفاق مع البريطانيين) اعتبره الترك (العثمانيون خاصةً) خيانةً عربية للدولة العثمانية وكيداً وخروجاً عن الإسلام وعن الخلافة الإسلامية التي سلبها الترك من العرب منذ احتلال البلدان العربية عام ١٥١٦م، ونقل آخر خليفة عباسي من القاهرة إلى القسطنطينية، ثم أخذ السلطان العثماني الخلافة، وإن لم يسمِّها صراحةً خلافة، هو وسلالته وأصبح خليفةً للمسلمين. وبدأت صورة العرب تسوء نتيجة استقلالهم عن الدولة العثمانية، وأصبح للترك موقفٌ سلبي من العرب، معتبرين أن العرب قد انشقوا عن العالم الإسلامي الذي كان بقيادة الأتراك العثمانيين. وزاد الكره للعرب بعد إسقاط كمال أتاتورك الخلافة العثمانية وتبنّي العلمانية، حيث اعتبر أن الدين الإسلامي والخلافة هما سبب تخلّف الدولة العثمانية، وبالتالي تخلّف الأتراك كما اعتقد الإيرانيون الفرس قبلهم، وقد ألقى أتاتورك مسؤولية هذا التخلف على العرب. ومنذ ذلك الوقت امتلأت الكتب المدرسية التركية بنقد العرب واحتقارهم واعتبارهم خونة بسبب انشقاقهم عن الدولة العثمانية، وناكرين للجميل ومتحالفين مع أعداء الإسلام ثم مع أعداء تركيا. وزاد الطين بلةً الموقف العربي الحديث في النصف الثاني من القرن العشرين المؤيد لوحدة قبرص والرافض لتقسيمها والمعادي لحلف شمال الأطلسي الذي تشكّل تركيا الحديثة عضواً أساسياً من أعضائه.

إذن، كانت العلاقات التركية العربية علاقات جيدة منذ دخول شعوب الترك في الإسلام حتى بدء عسف الدولة العثمانية ضد العرب، وخلال هذه الفترة شارك الترك، في مراحل عديدة، بالحكم في الدولة العربية الإسلامية. ولم تتدهور هذه العلاقات ويدبّ الكره المتبادل في نفوس كلٍّ من الطرفين إلا بعد أن أصبحت الإمبراطورية العثمانية إمبراطورية مريضة، وفرضت على العرب أعباء أدّت إلى كره الإمبراطورية والعمل ضدها، وبالتالي إلى كره الترك، وخاصةً، وكما أشرنا أعلاه، بعد أن أطلق العرب ثورتهم وتعاونوا مع الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ضد الدولة العثمانية واستقلوا عنها، وبعد أن تبنّى أتاتورك العلمانية وجعل من العرب والإسلام مشجباً يعلّق عليه أسباب التخلف والانحطاط.

استأثر الترك بالهيمنة على الإمبراطورية العربية الإسلامية منذ أن قدّم لهم المعتصم الامتيازات وسلّمهم قيادة الجيوش، ثم أحدث وظيفة السلطان (وهو بمثابة رئيس الوزراء) وسلّمها لهم، ولعب الترك هذا الدور طوال ما يقارب القرن (القرن الثالث الهجري). كما دانت الإمبراطورية العربية الإسلامية لهم كلياً مرةً ثانية بعد أن احتل سليم الأول البلدان العربية عام ١٥١٦م، وخاصةً بعد أن نقل العثمانيون الخلافة لأنفسهم وأصبحوا خلفاء المسلمين، ودامت خلافتهم أربعمائة عام، أي أن الحكم التركي المباشر وغير المباشر للإمبراطورية العربية الإسلامية دام حوالي خمسة قرون، خلال مرحلتين، الأولى بدءاً من خلافة المعتصم ودامت ما يقارب القرن، والثانية أيام العثمانيين ودامت أربعة قرون، إضافةً إلى الدولة السلجوقية التي قامت في القرن الحادي عشر والدولة الغزنوية التي قامت قبلها.

الأتراك

الأتراك عدة شعوب سكنت منذ آلاف السنين في وسط آسيا وراء النهر وغربها ممّا وراء شرق الأناضول، وكانت الرابطة الرئيسة التي تربطهم هي أن لغاتهم تنتمي إلى عائلة واحدة هي عائلة اللغات التركية، وعددها حوالي (٣٠) لغة ولهجة تشترك في ما بينها بسمات ثقافية وأحداث تاريخية معينة بدرجة أو أخرى. وعليه فإنّ من ضمن هذه الشعوب التركية، في ضوء هذا التعريف، الكازاخ والقيرغيز والتركمان والأوزبك والأذربيجان وسكان تركيا الحالية (العثمانية سابقاً)، حيث تتقارب لغاتهم وثقافاتهم، جزئياً أحياناً وإلى حدّ بعيد أحياناً أخرى، مع لغات وثقافات بني عمومتهم شعوب التتار والإيغور والكرمان والسلاجقة (الذين حكموا بين ١٠٣٨-١١٥٧م) والخزر والتيموريين وغيرهم، وتعتبر هذه الشعوب في النهاية من شعوب الترك. وهكذا تشكّل الشعوب المسمّاة شعوب تركية، من خلال تشابه لغاتها وبعض ثقافاتها وأنماط حياتها القديمة وطباعها وتقاليدها وقيمها وجوارها الجغرافي، طيفاً واسعاً من الشعوب التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ العالم الوسيط العربي والأوروبي، سواء من خلال محافظتها على الحضارة العربية الإسلامية أم من خلال فتح القسطنطينية ونجاح فتوحاتها في

أوروبا في بداية التاريخ الحديث. وفي الحالات كلها، فإن وسط آسيا وآسيا الصغرى و"الأناضول" خضعت تاريخياً وسياسياً وثقافياً لسلطة واحدة من قبل هذه الشعوب التركية وتأثرت بلغاتها وتقاليدها، وقامت صراعات عديدة وحروب خلال التاريخ بين هذه الشعوب، وتم تداول السلطة في أكثر من مكان، سواء في وسط آسيا أم في ما سمّي فيما بعد "بلدان الشرق الأوسط".

تمتد المناطق التي سكنتها شعوب الترك من نهر جيحون[1] غرباً وجنوباً حتى حدود الصين وبلاد التيبت شرقاً، وتشمل هذه المناطق الجزء الأكبر من آسيا الوسطى، وقد خرج منها العنصر التركي واتّسع نفوذه جنوباً نحو خراسان وغرباً نحو بحر قزوين (الخزر). وكانت الشعوب التركية تاريخياً مؤلفة من قبائل عديدة تعيش قي ظل النظام القبلي التقليدي، ومن هذه القبائل الغز والتغزغز والأوغور والقبجاق والبييرين وجواش وياقوت. وكان أول ظهور للترك يذكره التاريخ في منتصف القرن السادس الميلادي، وقد هيمن الترك في أقصى اتّساع لهيمنتهم على المنطقة من مشارف اليونان، حتى مغارب الصين وشمال الهند، إلى أقصى المعمور الشمالي، وسمّى العرب جنوب بلاد الترك "بلاد ما وراء النهر"، أي ما وراء نهر جيحون. وقد تغيّرت مسيرة تاريخ الترك تغيراً نوعياً بعد دخولهم في الإسلام.

التواصل العربي التركي وتاريخ العلاقات

كان أول اتصال للعرب بالأتراك عام ٥٤ للهجرة، أي في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، عندما عبر عبيد الله بن زياد والي خراسان[2] (زمن معاوية بن أبي سفيان) نهر جيحون واستولى على بخارى ورامدين وبيكند من بلاد الترك، مما وراء

١ يتشكل نهر جيحون من التقاء نهرين ينبعان من جبل بامير في آسيا الوسطى. عبره القائد العربي الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلي بجيشه أثناء فتحه بلاد ما وراء النهر، ويفصل نهر جيحون بين كل من أفغانستان وطاجكستان وأوزبكستان.

٢ أول من حاول فتح خراسان هو الأحنف بن قيس التميمي، وكان أهم من ثبّت الفتح والحكم العربي فيها قتيبة بن مسلم الباهلي، الذي فتح بلاد ما وراء النهر ومنها: الصغد وبخارى وسمرقند والبلاد التي حولها وخوارزم. ومن أهم ولاتها نصر بن سيار، ومنها انطلقت ثورة أبي مسلم الخراساني ضد الحكم الأموي في أيامه الأخيرة، وحملت معها تعصّباً فارسياً.

النهر، ثم اختار ابن زياد ألفي مقاتل تركي من رماة النشاب الشجعان وأرسلهم إلى العراق، حيث أسكنهم البصرة[1]، وكانت بداية شهرة الترك كشعوب محاربة وشجاعة. ثم تتابعت الفتوحات العربية في بلاد الترك إلى أن استتبّ الأمر لهم بعد مقتل خاقان الترك كورصول على يد القائد العربي نصر بن سيار في حدود عام ١٢٣ هـ/ ٧٣٨ م[2].

عرف العرب الترك معرفةً عميقة بعد بدء الفتوحات، أي في وقت متأخر قياساً إلى معرفتهم بالفرس والروم والهنود والصينيين والأحباش، وذلك لأن علاقتهم بهذه الأقوام الأخيرة سالفة الذكر بدأت قبل الإسلام بوقت طويل، سواء بسبب الحروب والصراعات أم بسبب رفض الهيمنة من بعضها. فقد عانى العرب كثيراً من احتلال الفرس والروم (والبيزنطيين) والأحباش لأطراف من الجزيرة العربية، فقد احتل الفرس بلاد المناذرة في جنوب العراق وبعض بلاد اليمن وعمان، واحتل البيزنطيون بلاد الغساسنة في جنوب سورية، والأحباش بعض بلاد اليمن، وازدهرت التجارة مع الهند والصين خلال عشرات السنين، كما ازدهرت التجارة التي كان يمارسها العرب مع هذه الشعوب وبلدانها. أما بالنسبة لعلاقة العرب بالترك فالأمر يختلف عن علاقة هذه الشعوب التركية بالعرب أو دخول الإسلام إلى بلادهم أو تثاقفهم معهم، لأن بلاد الترك تقع في وسط آسيا وما وراء النهر، وهي بعيدة نسبياً عن بلاد العرب، ولم تكن بينهم أية صلات تجارية أو ثقافية واسعة، كما لم تكن بينهم حروب، ونادراً ما وصل الرحالة العرب إلى بلاد الترك مع أنهم وصلوا إلى روسيا والصين. وتجدر الإشارة إلى أن العلاقات العربية التركية، وتعرّف كلٍّ من الشعبين على الآخر، بدأت مع بداية تكون الحضارة العربية – الإسلامية (أي مع بداية القرن الهجري الثاني) وبداية نمو هذه الحضارة ونضوجها. لقد كوّن العرب رأيهم بالأتراك بناءً على مزيج من عناصر المعرفة والجهل والخوف والتعاون والأساطير

---

١ اشتهرت القبائل التركية في وسط آسيا بمهارتها في ركوب الخيل وشجاعة أبنائها وإجادتهم الحرب من على ظهورها، وكان هذا من الأسباب التي جعلتهم يشعرون بقربهم من العرب منذ أيام الفتح الأولى. ومازال سكان شعوب جمهوريات وسط آسيا حتى الآن يفتخرون بركوب الخيل، وقد اشتهروا تاريخياً بأنهم "يركبون الخيل ويشربون حليبها".

٢ الطبري، **تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك**، ج٨، ص٢٦٧. "ولما قتل خاقان في ولاية أسد تفرقت الترك في غارة بعضها على بعض، فطمع أهل الصغد في الرجعة إليها، وانحاز قوم منهم إلى الشاش، فلما ولي نصر بن سيار أرسل إليهم يدعوهم إلى التراجع إلى بلادهم وأعطاهم كل ما أرادوا". وانظر كذلك إبراهيم الداقوقي، **صورة العرب لدى الأتراك**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٦، ص١٥.

والخرافة، ونادراً ما زارهم الرحّالة العرب، وكان أول الرحالة العرب الذين زاروهم هو تميم بن بحر في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، أي حوالي منتصف القرن الثالث الهجري، وسجّل بعض أفكارهم، ثم كتب عنهم في وقت متأخر ابن خرداذبة وابن الفقيه وياقوت الحموي وغيرهم.

كان للنصر العربي الساحق في بلاد ما وراء النهر أثره الكبير في دخول الترك في الدين الإسلامي بكثافة اعتباراً من منتصف القرن التاسع الميلادي، ولاسيما بعد أن انضمّت مجموعات كبيرة من الترك إلى الجيوش العربية – خاصةً في العهد العباسي – حتى بلغت سلطة الأتراك في المجتمع العباسي، ولاسيما في عهد المعتصم[١] ومن جاء بعده، حدّاً أصبح فيه الخليفة نفسه تحت تصرفهم[٢]، وصار منهم حكام وولاة وعلماء مجتهدون وصناع ماهرون وقادة، وأقاموا عدة دويلات استقلوا بحكمها، منها الدولة السلجوقية والدولة الغزنوية.

ثم تمكنوا من تولي السلطة في بلدان عربية إسلامية بعد الاحتلال العثماني لهذه البلدان الذي بدأ عام ١٥١٦م، ومن هذه البلاد بلاد الشام والعراق وسواحل اليمن ومصر وليبيا وبلدان المغرب العربي. وكان حكمهم مباشراً في بلاد الشام التي كانت تابعة مباشرةً لاسطنبول وغير مباشر في البلدان الأخرى بطريق تعيين ولاة عليها. وقد ساهمت بعض الدول التي أقاموها في تغيير مسار سياسة العالم ومصائر بلدانه، كما كان حال السلاجقة ومن بعدهم أبناء عمومتهم العثمانيون، حيث واجه الأولون الحملات الصليبية (حملات الفرنجة) وتوسّع الآخرون في حروبهم فاحتلوا القسطنطينية ثم البلقان ثم بلدان شرق أوروبا وصولاً إلى فيينا. وهذان الشعبان (السلاجقة والعثمانيون) هما الأتراك بنظر الأوروبيين، وهما المعنيان عندما يتحدث الأوروبيون عن الأتراك، وعلى أية حال فإنهما كليهما ينحدران من قبيلة الغز. وقد حكم السلاجقة بين عامي

١ كان المعتصم من أم تركية، ولاحظ الصراع المرير بين الفرس والعرب في عهده، بعد أن قتل الفرس الأمين لصالح المأمون، فأعطى امتيازاً للأتراك ليصبحوا جنده وجيشه، وعاث هؤلاء فساداً، فبنى لهم سامراء، وأصبح تدخلهم في شؤون الدولة كبيراً.

٢ إبراهيم الداقوقي، "نحو خطة جديدة للتحرك على المستوى الإعلامي والتربوي لتغيير صورة العرب في الكتب المدرسية ووسائل الإعلام التركية"، ورقة قدمت إلى العلاقات العربية – التركية حوار مستقبلي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٥، ص٥٢٣؛ الداقوقي، **صورة العرب لدى الأتراك**، مصدر سابق، ص١٥.

١٠٣٨م - ١١٥١م، وشمل حكمهم أفغانستان وإيران وأجزاء من الأناضول وسورية والعراق والجزيرة العربية، ومنح الخليفة العباسي زعيمهم لقب السلطان، وقد واجهوا الصليبيين الغزاة. أما العثمانيون، الذين هم من قبائل الغز أيضاً، فكان مؤسس دولتهم هو عثمان الأول، الذي حارب البيزنطيين، ثم احتل محمد الفاتح، أحد أحفاده العظام، القسطنطينية وجعلها عاصمة السلطنة العثمانية، وشملت إمبراطوريتهم، في أقصى توسّعها، بلاد الشام والعراق ومصر والجزيرة العربية وشمال أفريقية والبلقان وهنغاريا وقسماً من النمسا.

يستبعد كثير من المؤلفين اعتبار المفهوم الحالي الجامع لكلمة الترك اصطلاحاً إسلامياً، بينما الواقع يشير إلى أن هذه التسمية هي من منطلق أن عديداً من الشعوب التي أخضعها العرب في القرن السابع والثامن والتاسع كانت تتكلم اللغة واللهجات نفسها التي تتكلمها جميع الشعوب التي أطلقوا عليها كلمة ترك، وبالتالي فالتسمية هي تسمية إسلامية على الأغلب. وقد زعمت أقوام عديدة أنها تركية عندما دخلت الإسلام، وخاصةً بعد انتشار النفوذ التركي واستحواذ الأتراك على جوانب عديدة من السلطة، لأن الانتساب للترك يمنح صاحبه بعض الامتيازات.

لقد استكملت القبائل التركية توحدها كشعب واحد خلال أقل من قرن من دخولها الإسلام، وساهمت في إدخال الإسلام إلى قبائل تركية أخرى كانت لا تزال على أديانها الوثنية وتقاليدها وأنماط عيشها القديمة، وأتبعتها لسلطتها وللدويلات التي تحكمها. وأصبحت القبائل التركية منذ القرن التاسع الميلادي تشكل شعباً واحداً متحداً، هو الشعب التركي، بغض النظر عن منابتها وقبائلها وتوجهاتها الأصلية، وأصبحت اللغة التركية واحدة موحدة مع تحول لغات القبائل والشعوب الأخرى إلى لهجات محلية، وهيمنت لغة الأتراك العثمانيين على اللغات واللهجات الأخرى، كما هيمنت لغة قريش في مطلع نزول الإسلام على اللغات واللهجات العربية الأخرى.

حقق العرب أهم انتصاراتهم في آسيا الوسطى أثناء ولاية قتيبة بن مسلم الباهلي على خراسان بين سنتي ٧٠٥ و٧١٥م. وتؤكد الوثائق التاريخية أنه في السنوات العشر الأولى من حكم قتيبة استولى الأتراك الشرقيون على دولة (توركه ش) لمدة محدودة، ووصلوا غرباً إلى ممر فرغانة الذي يفصل الصغد وطخارستان، أي يفصل البلاد

المتمدنة الحضارية عن البلاد الواقعة قرب المجرى الأعلى لنهر جيحون، وكانت مجتمعاتها نصف متمدنة، ومعظم شعوبها رحّل تربي الماشية والجمال والخيول وتعيش حياة بدوية[١].

يفهم من مجرى الأحداث أن أتراك الشرق حاربوا العرب كما حاربهم أتراك الغرب. ولم يستسلم الترك في تلك الفترة لهيمنة العرب المسلمين بسهولة، إلا أن تأثير المدنية الإيرانية عليهم منذ العهد السامانى[٢] الإيراني بدأ يحل محل المدنية الهندية أو التأثر بها في آسيا الوسطى، خاصةً أن إيران كانت مهيمنة على قسم من طرق التجارة العالمية، البرية والبحرية. وبوقوع الأتراك تحت تأثير المدنية الإيرانية دخلوا الديانة الزرادشتية[٣]، ولم يتخلَّ هذا البعض عنها إلا بعد مرور فترة من الفتوحات العربية الإسلامية.

أخذ الإسلام ينتشر بين الترك بشكل واسع حين بسطت دولة آل سامان الإيرانية نفوذها في أواسط آسيا، وتحديداً خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين. وقد طاولت قبضتهم آنذاك المناطق المتحضرة في تركستان الحالية، التي كانت تسمى بلاد ما وراء النهر، وكان سكانها يسمون في أثناء الفتوحات الإسلامية بالترك. وتشير الوثائق التاريخية إلى أن المدارس التي كانت في خراسان وفي ما وراء النهر خلال القرن العاشر الميلادي لعبت الدور الأهم في نشر الإسلام، وكانت تلك المدارس مستقلة عن تدبير الحكومات وسياساتها. ومع افتتاح البلدان "كانت بيوتات النار تتحول إلى مساجد"، لأن الأتراك الذين دخلوا الزرداشتية تركوها ودخلوا الإسلام[٤].

يرى بارتولد أن خوارزم، وهي إحدى الولايات التي كانت واقعة على حدود المدينة الإسلامية، كانت لها تجارة واسعة قبل ذلك مع الجماعات البدوية التركية. ويبدو أن أهل خوارزم أسهموا في تأسيس المستعمرات الإسلامية بالقرب من نهر سيحون[٥].

١ و. بارتولد، **تاريخ الترك في آسيا الصغرى**، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، أعدّ الدراسة زياد هواش.

٢ الدولة السامانية: (٨٨٠-٩٩٩م) امتد نفوذها إلى ما وراء النهر ثم إلى خراسان وطبرستان وقزوين وسمرقند. اهتمت الدولة السامانية بالعلم والعلماء ورعاية الآداب وفن العمارة وصناعة الخزف والمنسوجات الحريرية وصناعة الورق واقتناء الكتب.

٣ **تاريخ الترك في آسيا الصغرى**، مصدر سابق.

٤ المصدر السابق.

٥ نهر سيحون، سيراداريا حالياً: ينبع في جبال تيان شان بقيرغيزيا، ويروي وادي فرغانة وجنوبي كازاخستان ويصب في بحيرة آرال.

ولقد كان للتجار المسلمين دور في نشر الإسلام في بلاد الخزر، وخاصةً في عاصمتهم إيتيل الواقعة على نهر الفولغا، وكانت بلاد الخزر تشترك في حدودها الجنوبية الغربية مع بلاد الخلافة الإسلامية.

كان دخول العرب المسلمين إلى بلاد الترك سهلاً، مع أنه، كما مر معنا، لم تكن بين الطرفين علاقات سابقة، ولكن توفرت عدة عوامل سهلت الفتح العربي الإسلامي من جهة، كما سهلت دخول الترك في الدين الإسلامي من جهة أخرى. ففي شأن الفتح لم تكن توجد دول "مدينية" في بلاد الترك، لها تنظيماتها الهيكلية ومؤسساتها وجيوشها المنظمة ومجتمعاتها المدينية المستقرة، وهذا ما جعل الفتح سريعاً وهيناً، أما ما يتعلق بالدخول في الإسلام فلم يكن صعباً بدوره، ذلك أن عمق فلسفة الدين الإسلامي وشموله كان أقوى من عبادات القبائل التركية، وهي عبادات بدائية، فضلاً عن أن ديانات الترك، التي كانت قبل الإسلام، كانت تنادي بالعدالة والروحانيات والتصوف، وهي أمور قريبة من الإسلام أيضاً. والملاحظ أن "الإسلام التركي" مازال حتى الآن يهتم كثيراً بالتصوف والفرق الصوفية، ويوجد الآن عديد من أتباع الطرق الصوفية في تركيا الحالية، ولهم تنظيماتهم وتقاليدهم وثقافتهم التي يحاولون الحفاظ عليها، وقد تحولت هذه التقاليد غالباً إلى طقوس بعيدة عن فلسفة التصوف وجوهرها.

على كل حال، دخلت الشعوب التركية الإسلام بدون صعوبات، فإضافةً إلى الأسباب السابقة رأت هذه الشعوب في العرب الفاتحين فرساناً ومحاربين مما انسجم مع قيم الترك وتقاليدهم حتى ذلك الوقت. كما أن التبشير الإسلامي بين الشعوب التركية ارتبط بالتصوف، وهو سمة من سمات الديانات القديمة لهذه الشعوب، ولذلك رأى البعض أن "نجاح المتصوفة في نشر الإسلام بين الأتراك كان أكبر من نجاح علماء الدين، لأن المتصوفة يحدثونهم عن الجحيم والعذاب وليس عن الجنة وثوابها"[١].

لقد بدأ دخول الترك في الإسلام بكثافة وبشكل واسع في نهاية القرن العاشر، وكانوا قد بدأوا الدخول فيه منذ نهاية القرن السابع ومطلع القرن الثامن، ولكنه كان دخولاً بطيئاً وجزئياً، وشكلوا دويلة في بلادهم عاصمتها كشغر، ثم احتلوا سمرقند

١ عندما احتل العثمانيون دمشق عام ١٥١٦م بقيادة السلطان سليم الأول، زار هذا الأخير معلمين: الأول هو الجامع الأموي والثاني هو قبر محي الدين بن عربي، المتصوف الشهير، ولم يزر غيرهما من الأضرحة والأوابد.

وبخارى وبلاد ما وراء النهر. وقد طردهم المغول من منغوليا، فقدموا إلى هذه البلاد المذكورة آنفاً، وهكذا تولى الترك إقامة دولة هم حكامها، وبالطبع تحت رعاية الدولة العربية الإسلامية المركزية وموافقة الخليفة الاسمية وفي إطار نظام الدولة الإسلامية.

قامت الدولة السلجوقية في القرن الحادي عشر الميلادي، وكان ولاتها وقادتها من الأتراك، ولعبت دوراً هاماً وخاصةً في مواجهتها للصليبيين، وكانت تابعة اسمياً للخلافة العباسية، وتزوج طغرل بك، حفيد سلجوق جدهم، بنت الخليفة العباسي، وقد دافعوا دفاعاً صلباً وعنيداً عن أهل السنة وعن المذهب الحنفي[١]. وبفضلهم دخل الإسلام إلى الأناضول، وواجهوا طلائع الغزو الصليبي وحاولوا صدّه عن التقدم نحو مدن الساحل السوري[٢].

يجمع المؤرخون على أن الأتراك السلاجقة شغلوا حقبة مهمة في تاريخ المنطقة العربية، وقد كانت الخلافة العباسية عند ظهورهم آيلة للسقوط، فأنقذتها هذه العشائر التركية القوية الممتلئة حيوية، والتي دخلت الإسلام ولم تفسدها حياة المدينة، كما جاء في **معجم الأسر الحاكمة**. وقد أثار السلاجقة الحميّة وردّوا المعتدين من روم وفرنجة (الصليبيين)، وتألق في هذه المرحلة عدد من كبار مفكري الحضارة الإسلامية[٣].

هناك مرحلة أخرى في العلاقات العربية – التركية بدأت بظهور المماليك[٤] وتوليهم السلطة في مصر، بعد الدولة الأيوبية، وجسدت دولتهم علاقات متميزة بين العرب والأتراك دون أن تكون دولة تركية، حيث كانت هذه الدولة التي عمرت حوالي ثلاثة

١ اجتهد الإمام الشافعي، وهو قرشي، أن من شروط الخليفة أن يكون قرشياً، أما الإمام أبو حنيفة، الذي لم يكن عربياً، فلم يهتم بهذا الشرط واجتهد أن الخليفة يمكن أن يكون من أي قوم، المهم أن يكون مسلماً، وعليه فإن معظم السنة غير العرب أصبحوا من أتباع أبي حنيفة أو على المذهب الحنفي، وهذه الفتوى التي قررها أبو حنيفة هي التي بررت للعثمانيين ادّعاء الخلافة.

٢ قال الصليبيون إن من أسباب الحملات الصليبية إنقاذ قبر المسيح وإغاثة المسيحيين في الشرق الذين يضطهدهم السلاجقة.

٣ **صورة العرب لدى الأتراك**، مصدر سابق، ص٦٤. تعقيب أحمد صدقي الدجاني على ورقتي كولوغلو والتميمي "أهمية الموروث التاريخي العربي– العثماني وتأثيره في العلاقات العربية التركية"، ص٥٩.

٤ المماليك (١٢٥٠–١٥١٧م): خليط من الترك والشركس، جلبهم الحكام للاستعانة بهم وكانوا قوة تساند الحاكم وتدعم الأمن والاستقرار. وقد تولوا الحكم في مصر وبلاد الشام، وتصدوا للمغول وصدوهم في معركة عين جالوت، وبرز منهم قادة عظام مثل قطز والظاهر بيبرس، وقد قاتلوا الصليبيين وأجلوهم عن السواحل.

قرون دولة منظمة. وحفلت هذه المرحلة بإنجازات حضارية على الرغم من حدوث الاضطرابات الداخلية، وهي التي شهدت طرد بقايا الغزاة الفرنجة من الوطن العربي[1].
ومن المهم الإشارة إلى أن التتار زحفوا من بلدهم منغوليا نحو الغرب واحتلوا بغداد في عام ١٢٥٨م، وكانوا قبل ذلك قد أخضعوا شعب القيرغيز، وكان أول شعب تركي يخضع لجنكيز خان (المغولي)[2].

التقاليد المتشابهة

عندما دخلت القبائل التركية في الإسلام تطبعت بكل ما جاء به من حيث الشرائع والنظم والتراث، حتى أن السلطان محمود الغزنوي[3] التركي آثر، منذ أواخر القرن العاشر الميلادي، الأدب العربي على الأدب الفارسي[4]، على الرغم من أن اللغة الفارسية كانت لغة المراسلات الرسمية لديهم (لدى الدولة الغزنوية)، بل إن الإمارات التركية في بلاد الأناضول كانت تتخذ اللغة العربية لغتها الرسمية حتى القرن الثالث عشر الميلادي، في حين أصبحت اللغة العربية لغة العلم والدراسة والبحث في العهود المغولية والسلجوقية والعثمانية[5].

يرى الدكتور إبراهيم الداقوقي أن الأتراك قبلوا الإسلام ديناً طواعيةً وعن رغبة صادقة لأن معتقداتهم في الموروث الحضاري السابق كانت مشابهة للاعتقادات الإسلامية، حيث الإيمان بالله الواحد الذي لا شريك له وتقديم الضحية (القربان)[6]

---

١ **أهمية الموروث التاريخي العربي**، مصدر سابق، ص٦٠-٦١؛ **صورة العرب لدى الأتراك**، مصدر سابق، ص٦٥.

٢ احتل المغول بغداد عام ١٢٥٨م وأسقطوا الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة المستعصم بالله، وضربوا مساجد بغداد بالمنجنيق وأخذوا ذهب قبابها، وقتلوا الخطباء وأحرقوا الكتب كما أحرقوا بغداد، وذلك حسب الروايات، وسموا فيما بعد "التتار".

٣ قامت الدولة الغزنوية بين عامي (٩٦٢-١١٨٦م) وغزت الهند والبنجاب والسند والباكستان وبخارى وما وراء النهر ونشرت الإسلام في هذه البلاد. وأهم زعماء الدولة الغزنوية محمود الغزنوي.

٤ كارل بروكلمان، **الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها**، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير يعبلبكي، ط٢، بيروت [د.ن] ١٩٥٤، ص٢٧٨؛ عن إبراهيم الداقوقي، ص٣٩.

٥ **صورة العرب لدى الأتراك**، مصدر سابق، ص٣٩.

٦ إبراهيم الداقوقي، "تأثير الفولكلور العربي بالفولكلور التركي"، **مجلة كلية الآداب**، بغداد، السنة ٢، العدد ٢١، ١٩٧٧، ص٣٤٠.

والإيمان بخلود النفس وبالآخرة وتوزيع الحسنات (المأكولات) في ختام الموالد النبوية أو في اليوم العاشر من عاشوراء، في حين كان الشامان - قديماً - يقوم بتوزيع لحوم الضحية (القربان) على المحتفلين الحاضرين بعد كل احتفال شاماني[1].

ويرى الداقوقي أيضاً أنه قد تحولت بعض العادات والتقاليد التركية القديمة التي كانت معروفة لديهم قبل الإسلام إلى تقاليد وشعائر دينية تمارس في المناسبات الإسلامية المعروفة، بعد أن اكتسبت ملامح بعض الإسلام، كالاعتقاد بالأمور والأفعال التي تجلب الحظ، أو التوقّي مما يجلب الشر، وكذلك التبرّك بالأعداد والاعتقاد بالقدرات الخاصة للأسماء والكلمات، أو الجانب الحرفي في ممارسة السحر وغيرها. كما أن تفسير الأحلام وتأويل رموزها وأنواعها المختلفة في المعتقدات التركية لا تخرج عن نطاق التفاسير الواردة في كتاب أبي معشر الفلكي الكبير. أما فكرة الإنسان الشعبي التركي عن الأرض والسماء والكواكب والمناخ والمقولات الخاصة بالزمان والمكان، والمعارف الشعبية الدائرة حول جسم الإنسان وأجزائه والطب الشعبي، فإنها تكاد لا تختلف عن معارف الإنسان الشعبي العربي إلا في بعض الجزئيات الطفيفة، بفعل ذلك التحول الكبير[2]. وربما يعود ذلك لأن الأتراك قبل الإسلام كانوا قبائل لها تقاليد القبائل العربية أو ما يشبهها بسبب طبيعة الحياة الاقتصادية والاجتماعية[3].

أدّى اتصال العرب بالأتراك، بعد الفتوحات في بلاد ما وراء النهر، إلى اكتساب الأتراك ثقة العرب - أكثر مما اكتسبها غيرهم من الأقوام المسلمة الأخرى - فألّفوا منهم الجيوش وأعدّوا القوات[4]، كما صارت للمرأة التركية منزلتها المرموقة في العصر العباسي، حتى أصبحت زوجة للخلفاء العباسيين، ولاسيما في فترة الازدهار والرخاء، حيث امتلأت قصور الخلفاء بالجواري التركيات[5]. وكان لجلب الأتراك الجواري للخلفاء أهمية كبرى، خاصةً وأن أكثرهم ممّن حكم بعد المعتصم تزوج تركيات،

---

١ **صورة العرب لدى الأتراك**، مصدر سابق، ص٥٠.
٢ إبراهيم الداقوقي، "تأثير الفولكلور العربي بالفولكلور التركي"، مصدر سابق، ص٣٢٩-٣٤١.
٣ كان الأتراك قبائل غير مستقرة تربي الخيل والماشية، واشتهر الترك في هذه القبائل بشجاعتهم وقدراتهم.
٤ اشتهر الأتراك بإتقانهم الفروسية والحروب على ظهور الخيل من جهة أخرى.
٥ إبراهيم الداقوقي، **صورة العرب لدى الأتراك**، مصدر سابق، ص٦٣.

وبلغ أبناؤهن أعداداً كبيرة لعبت دوراً في الجيوش وفي السياسية.

يتباهى الأتراك بأصالة الثقافة والتراث الحضاري التركي وبدورهم في الحضارة الإسلامية، وثمة مقارنة بين إنجازات العرب والأتراك المسلمين في خدمة الإسلام. ففي رأيهم، إذا كان العرب قد فتحوا بلاد ما وراء النهر وتركستان وبعض أجزاء شمال أفريقيا، فإن الأتراك قد ساهموا في أسلمة ألبانيا والبوسنة والهرسك[١] وشمال الهند والبنغال وباكستان وأفغانستان[٢] وغيرها. وحسب رأيهم فإن مساهمة العرب فكرياً في الحضارة الإسلامية توازيها إنجازات المفكرين الأتراك، أمثال الفارابي وابن سينا، في إغناء الفكر الإسلامي. وأشير في هذا المجال إلى أن من البديهي القول إن ثقافة هؤلاء المفكرين إنما تكونت في إطار الثقافة العربية الإسلامية، وازدهرت مع ازدهارها، وليس لأصولهم التركية أو انتماءاتهم التركية دور مهم في ثقافتهم أو في مساهماتهم في الثقافة العربية الإسلامية، وبالتالي في الثقافة العالمية.

لقد تأثر الأدب التركي تأثراً كبيراً بالأدب العربي، وكان الأدب الشعبي التركي هو الأكثر تأثراً باللغة والأدب العربيين، وقد انتقلت كلمات وألفاظ وتراكيب عربية كثيرة إلى الأدب الشعبي التركي وخاصةً في السيّر والأساطير والحكايات، ومازالت بعض الأمثال العربية تُستخدم في الأمثال الشعبية التركية حتى الآن.

كان تأثير اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية كبيراً على الترك، سواء من حيث دخول الألفاظ العربية إلى لغتهم أم دخول الأمثال والقصص والحكايا أم تأثرهم الكبير بنمط الحياة العربية، وفي الوقت نفسه كان التأثير المتبادل كبيراً في مجال الفنون وخاصةً الموسيقا والعمارة والخط العربي والفن والزخرفة وغيرها.

صورة العرب لدى الأتراك

لم تعد صورة العرب في الثقافة التركية المعاصرة هي صورة الحليف والشريك وابن الدين الواحد، وتمّ لسوء الحظ تناسي ألف عام من التاريخ المشترك والنضال المشترك

١ وذلك بسبب الاحتلال العثماني لبلاد البلقان.

٢ لقد توسعت فتوحات الدولة الغزنوية فشملت الهند والبنغال وباكستان الحالية وأفغانستان، وقد أسلمت شعوب هذه البلدان كلها على أيدي الغزنويين.

والثقافة المشتركة، سواءً كان هذا النضال ضد الغزو الخارجي وخاصةً (البيزنطي والصليبي) أم من أجل بناء دولة إسلامية قوية. ورغم أن الثقافة المشتركة تكاد تكون هي التي شكلت الأساس الثقافي للعلاقات بين الشعبين، إلا أن ذلك لم يمنع نشوء خلافات كبيرة جداً منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى الآن لأسباب عديدة، ولعل هذه الأسباب هي التي أسّست تعصباً في الموقف التركي ضد العرب وخاصةً بعد إلغاء الخلافة وتولي كمال أتاتورك السلطة وفرض نظريته في "أورَبة" تركيا وإقامة نظام علماني فيها.

حاول كمال أتاتورك قطع العلاقة التاريخية بين العرب والترك وإبعاد الترك عن الحضارة والتقاليد والقيم العربية الإسلامية. وبرّر هذا الفصل التعسفي بين الشعبين وثقافتيهما بأن العرب خانوا الترك بثورتهم على الدولة العثمانية وتحالفهم مع الحلفاء في الحرب العالمية الأولى (مع أنه هو نفسه ثار على السلطنة العثمانية وألغى الخلافة)، كما برّر فعلته بأن العرب متخلفون وهم الذين نقلوا التخلف إلى الترك (مع أن التخلف كان نتاج سياسة السلطنة العثمانية). وكانت "أورَبة" تركيا التي تبنّاها مصطفى كمال أتاتورك تقتضي القطيعة مع العرب، كما كانت سبباً في ابتعاد كلٍّ من الشعبين عن الآخر. ولم يحاول أتاتورك أن يهتم بالحقيقة التاريخية التي تؤكد أن الدولة العثمانية هي المسؤولة عن التخلف بسبب رفضها تطبيق الإصلاحات، بعد أن ألزمتها الدول الأوروبية بإصدار مراسيم إصلاحية (خطي شريف همايون وكولخانة) لم تنفّذ منها شيئاً. وكانت بعد ذلك قد نشأت في الدولة العثمانية الحركة الطورانية التي أبدت تعصّبها للعنصر التركي وعداءها للعرب، وأسّست لمواقف عنصرية تركية من العرب وتعميق غرس الكراهية في النفوس.

لقد انقلبت حركة تركيا الفتاة وحزب الاتحاد والترقي على نفسها، فبعد أن كانت حركة ليبرالية في نهاية القرن التاسع عشر أصبحت حركة عنصرية في بداية القرن العشرين (من خلال ندائها بالطورانية ورفض الاعتراف بحقوق القوميات الأخرى)، وسعت بنفسها إلى إبعاد تركيا العثمانية عن الشعوب الأخرى التي كانت تهيمن عليها السلطنة. وأشير إلى حزب الاتحاد والترقي الذي أصرّ على التتريك، وخاصةً في

مجال اللغة[1] حيث زعم أنه يعمل لتنقية اللغة التركية من الألفاظ الدخيلة[2]، وحرّض المترجمين العثمانيين والكتاب والمثقفين على إدخال ألفاظ ومصطلحات أوروبية إلى اللغة التركية[3] بدلاً من الألفاظ العربية، وشجّع على اشتقاق ألفاظ تركية جديدة.

ثم زاد الأمر تعقيداً تلك السياسة التي اتّبعها كمال أتاتورك والتي خلطت بين التعصب للقومية التركية والاندهاش بالحضارة الأوروبية والثقافة الأوروبية والعداء للإسلام باسم العلمانية[4]. وقد أخذ كمال أتاتورك ونظامه ومفكّروه ومفكّرو "القومية التركية المتطرفة"، المتأثرون بآراء المستشرقين والمندهشون بالثقافة والحضارة الأوروبيتين، من الغرب الاستعماري فكرة اعتبار الإسلام كدين مسؤول عن التخلف، وكانوا بذلك وكأنهم خبراء أجانب لا يعرفون الإسلام الذي عاشوا في ظل حضارته مئات السنين، وتجاهلوا القيم والتقاليد والثقافة التي يتمثلونها ويعيشون بها، وأصبحت فكرتهم متماثلة مع فكرة الغرب عن الإسلام. وبالتالي عزفوا عن الثقافة العربية، بل اختلقوا أسباباً عديدة لمعاداة العرب وثقافتهم. وقد ألّف كبار الكتّاب كتباً تاريخية تتجاهل ثقافة العرب ودورهم التاريخي في نشر الإسلام وفي السياسة العالمية، وتشير إليهم كأعداء وخونة وطاعني الأتراك في الظهر (إشارةً إلى الثورة العربية ضد الأتراك)، دون أن يشيروا، ولو إشارة، إلى أسباب هذه الثورة وإلى المعاناة التي عاناها العرب في ظل حكم الدولة العثمانية.

تمّ بموجب السياسة الأتاتوركية إخضاع الإسلام، الذي هو جزء لا يتجزأ من التاريخ العربي، للأسس العلمانية الأتاتوركية بفصل الدين عن الدولة على الطريقة الأتاتوركية أيضاً، فرفعت ألفاظ التقديس التركية عن شعارات الإسلام وشخصياته، مع الإصرار، في حيز التطبيق الواقعي، على محاربة الدين. وبديهي القول إن العلمانية لا تحارب الأديان ولا تتدخل في شؤونها ولا تنصر ديناً ضد آخر، فقد حذفت مثلاً كلمة "حضرة" التي

١ كانت اللغة التركية مفروضة في المحاكم والمدارس والدوائر الرسمية على جميع شعوب الإمبراطورية العثمانية بما في ذلك على البلدان العربية.

٢ أي من الألفاظ العربية الدخيلة.

٣ استعملوا الألفاظ والمصطلحات الأوروبية بدل العربية، معتبرينها خطوة تحديثية.

٤ حاول أتاتورك أن يجمع التناقضات، فنادى بـ"أوربة" تركيا وتحديثها، وكان تعصبه القومي واضحاً، كما لم يطبق الديمقراطية الأوروبية التي نادى بها، فكانت علمانيته ما هي إلا حكم عسكري شمولي بعيد عن العلمانية.

كانت تسبق اسم الرسول وأسماء الصحابة والخلفاء الراشدين. يقول إبراهيم الداقوقي إننا إذا تعدينا – في دراستنا للكتب المدرسية التاريخية – فترة الخلفاء الراشدين، التي كان العثمانيون يطلقون عليها فترة "دور السعادة" أو "عصر السعادة"، ووصلنا إلى مرحلة الفتوحات العربية الإسلامية الكبرى، فإننا نجد تتريكاً واضحاً للأحداث التاريخية، من دون الاستناد إلى الوثائق أو المراجع أو المصادر التاريخية، من ذلك اعتبار البربر من العرق التركي، وأن طارق بن زياد "هو البطل الذي كان ابن رجل اعتنق الإسلام اسمه زياد والذي صار مشهوراً باسم طارق، هو تركي"[1]، ولذلك استطاع الانتصار على موسى بن نصير العربي، بعد أن نشب الخلاف بينهما، مثلما انتصر على أعدائه الآخرين. ومن هنا فقد كان عنوان الفصل عن فتح الأندلس في كتاب مدرسي "تركي في إسبانيا"[2]. لقد تمّ في الواقع تدريس الوهم والخرافات في الكتب المدرسية التركية وفي الأدب التركي الحديث بشكل عام عن العلاقات التركية العربية، وهناك إصرار في هذه الوسائل على تعميق الخلافات بين الشعبين وإهمال العلاقات التاريخية واستعداء العرب بعد التقليل من شأنهم واتهامهم بالتخلف ومعاداة الأتراك[3].

تكوّنت إذن صورة جديدة نمطية سلبية لدى الأتراك عن العرب شبيهة بالصورة السلبية التي شكّلها الأوروبيون عن العرب من خلال مستشرقيهم ودارسيهم وسياسييهم، والتي جاءت لتبرّر الاستعمار الأوروبي أو لتحرض عليه، وقد تبنّت الأتاتوركية للأسف هذه الصورة النمطية وثقافتها، وغيّرت وعي الأتراك وغذّته بها. ومما جاء في هذه الصورة النمطية التي تمّ التركيز عليها، والتي امتلأت بها الكتب المدرسية والأدبيات الحديثة، أنّ العرب يتّصفون بالتحايل والكذب والإسراف المبتذل، وهذه جميعها أخذت من الصحافة الأوروبية والأميركية ودعايتها، كما تكوّنت صورة تصفهم بالقتل والإرهاب والاغتصاب والاستبداد والتهديد، وأنهم يعيشون في إطار قبلي من الحروب والاقتتال والسلب والنهب والسبي التي صورتها أيام العرب في الجاهلية، وهذه بدورها كانت نتيجة لآراء المستشرقين الأوروبيين التي تمّ تبنيها في وسائل الإعلام والثقافة التركية، وكانت تقليداً لأفكار الغرب الأوروبي وأساليبه ووسائله.

١ إبراهيم الداقوقي، **صورة العرب لدى الأتراك**، مصدر سابق، ص١٣٣

٢ المصدر السابق، ص٧٤.

٣ "نحو خطة جديدة للتحرك"، مصدر سابق.

بدأ منظرو أتاتورك ومن جاء بعده بنقد علاقة القومية والثقافة التركية بالإسلام، ومحاولة ضرب فكري القومية والإسلام بعضهما ببعض، حتى أصبحت الدعوة لاستمرار الخطاب الإسلامي دعوة نقيضة للدعوة القومية ومعادية لها. واعتبر مفكرو الفكر الإسلامي من جهة أخرى، وربما كردّ فعل على ذلك، أن الدعوة القومية لا تتناقض مع الإسلام. ونشير هنا إلى أن سياسة الدولة العثمانية وهيمنتها، والثقافة التي نشرتها وكانت تتمسك بها، هي التي ساهمت في إعاقة انتشار فكر النهضة العربية في القرن التاسع عشر، بما في ذلك العداء المباشر من قبل السلطة العثمانية للنهضة العربية وكتّابها ومفكّريها وللحراك الثقافي والاجتماعي النهضوي.

لقد كرّست الدعاية الأتاتوركية ودعاة الثقافة التركية بشكل عام فكرة الغدر العربي للأتراك بسبب موقفهم في الحرب العالمية الأولى، فهم "أعداء وطاعنو الأتراك في الظهر"، فضلاً عن إدانة عدم اعتراف العرب بمؤسسة الخلافة العثمانية "كان السلطان يسمّي نفسه القائم مقام الخليفة" التي لم تحترمها الأتاتوركية نفسها، وبالتالي تمّ التشكيك بالمعتقدات العربية، كما اتُّهموا بالطعن من الخلف. ويعيد معظم المثقفين الجادين والموضوعيين تشكّل هذه الصورة السلبية للعرب إلى سببين رئيسيين أشرنا إليهما وهما:

الأول: ردّ الفعل التركي الرسمي تجاه موقف المسلمين العرب العدائي من الدولة العثمانية وخليفة المسلمين خلال الحرب العالمية الأولى، واستمرار هذا الموقف العدائي العربي من القضايا التركية حتى اليوم من خلال دعم سورية ومنظمة التحرير الفلسطينية لمجموعات المعارضة التركية، رغم تأييد تركيا للمنظمة في المؤتمرات الدولية[1].

والثاني: النشاط الاستشراقي – التبشيري – الصهيوني – الدونماوي (نسبة إلى طائفة الدونما المعروفة)[2] المحموم الذي أدّى إلى تشويه الصورة العربية لدى الأتراك

---

١ عثمان أوكيار، "الخيارات الفكرية والسياسية لدى العرب والأتراك" (الورقة الأولى)، ورقة قدمت إلى "العلاقات العربية التركية: حوار مستقبلي"، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥، ص٢٤٤؛ **صورة العرب لدى الأتراك**، مصدر سابق، ص٤٦.

٢ الدونمة طائفة يهودية أسلمت وتبوأ أفرادها أعلى المناصب في الدولة العثمانية، واستفادت منها الصهيونية في تشجيعها الهجرة إلى فلسطين ومساعدة المهاجرين وعدائها للعرب.

من خلال الإساءة إلى العرب - باعتبارهم خميرة الإسلام - لضرب الإسلام في تركيا بصورة غير مباشرة، وهو الاتجاه الذي يؤمن به معظم الكتّاب والمفكّرين والسياسيين الأتراك من ذوي الاتجاهات الإسلامية في تركيا[1].

وعلى أية حال، يمكن أن نفهم سبب الصورة السلبية عن العرب لدى الأتراك إذا أخذنا بعين الاعتبار الحروب التي نشبت أيام الفتوحات الإسلامية، التي كان يقودها العرب ضد الفرس والأتراك، والصراع الأموي - العباسي، وصراع الفرس ضد العرب، ثم الصراع بين العرب والأتراك أواخر الدولة العباسية، وقيام الأتراك بإسقاط الخلافة العباسية فعلياً عام ١٥١٦م واستحواذهم على الخلافة وإلحاق الأقطار العربية بالدولة العثمانية، ثم الحروب المذهبية الطاحنة التي نشبت بين المسلمين خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ولاسيما بين الفرس الصفويين والأتراك، واضطرار العرب إلى التعاون مع هذا أو ذاك وما نجم عن ذلك من حقد وإثارة البغضاء ضد العرب. إذا أخذنا ذلك كله عرفنا سبب تلك الصورة السلبية الموجودة لدى هذه الشعوب الثلاثة التي كانت متحفزة بعضها ضد البعض الآخر، وإذا أضفنا إلى ذلك سعي العالم الغربي لتغذية هذه الصور النمطية السلبية لدى كل فريق ضد الفريق الثاني أو الثالث من أجل ضرب بعضها بالبعض الآخر تكوّن لدينا ذلك التراكم الثقافي السلبي الذي يحاول أعداء الإسلام نشره وتوسيع نطاقه نكايةً بالعرب وبالمسلمين معاً[2].

---

١ انظر معظم المقالات والتعليقات المنشورة في صحف **زمان** و**تركيا** و**ميللي غازنه** الصادرة خلال الفترة ١٩٩٣/١١/٢١ - ١٩٩٤/٢/٢٠ والتي خضعت لتحليل مضمون الكتاب، وقد وردت في **صورة العرب لدى الأتراك**، مصدر سابق، ص٤٦.

٢ **صورة العرب لدى الأتراك**، مصدر سابق، ص٦٩.

الفصل الثالث

الصقالبة (السلاف) والعلاقات المتأخرة



لم تبدأ العلاقات العربية - الروسية إلا في مراحل متأخرة نسبياً قياساً للعلاقات مع الشعوب المحيطة بالإمبراطورية العربية الإسلامية، وكان القرن العاشر الميلادي هو بداية قيام هذه العلاقات بين الشعب العربي والشعب الروسي التي استمرت ضعيفة حتى الآن. وربما كان ذلك يعود إلى جملة شروط موضوعية مرّت على روسيا أو وجدت فيها، مثل الطقس البارد جداً بما لا يناسب العرب، والجليد الذي يدوم عدة أشهر، وضعف خطوط المواصلات البرية والبحرية بين الطرفين، وتجمّد معظم الأنهار في أثناء فصل الشتاء، إضافةً إلى أن الروس والسلاف عموماً دخلوا في الأرثوذكسية منذ نهاية القرن العاشر ولم يكن لدى العرب المسلمين وسيلة لنشر الإسلام في روسيا، سواء حرباً أم سلماً. وبعد عدة قرون صارت روسيا من أهم الدول الأرثوذكسية في العالم حتى أنها صارت من حماة الأرثوذكسية في فلسطين وحليفة اليونان الأرثوذكسية وصار الروس معنوياً وارثي الإمبراطورية البيزنطية (التي كانت أرثوذكسية بدورها).

ولم تكن للإمبراطورية العربية الإسلامية مطامح في تحويل روسيا إلى الإسلام أو نشر الإسلام فيها، واكتفت الإمبراطورية العربية الإسلامية بأن دخلت شعوب القوقاز في الإسلام (وخاصةً الداغستان) إضافةً إلى ما كانت تسمّى دولة البلغار الشرقية، وفيما بعد شعوب التتار والخزر، وكان هؤلاء جميعاً يشكلون شمال الإمبراطورية العربية الإسلامية وحاجزاً بينها وبين الصقالبة (السلاف والروس). ومن الجدير بالقول إنه كانت هناك دولتان للبلغار إحداهما شرقية في الحوض الأوسط لنهر الفولغا الذي كان يسمى (إتيل) والثانية غربية في منطقة بلغاريا الحالية، ودخلت الأولى في الإسلام والثانية في المسيحية (الأرثوذكسية)، وسكن في منطقة البلغار الشرقية فيما بعد شعوب التتار، واتخذوا من مدينة (إتيل) عاصمةً لهم. وكان الإسلام قد دخل إلى شرق أوروبا ومنطقة القوقاز ومنطقة الخزر في نهاية القرن الثامن الميلادي، وساعدت على انتشاره القوافل التجارية التي كانت تصل المنطقة ببلاد آسيا الوسطى وما وراء النهر التي توطّد فيها الإسلام، وخاصةً عبر طريق الحرير الذي ينطلق من أقاصي آسيا وعبر

آسيا الوسطى باتجاه السواحل الشرقية الشمالية لبحر قزوين، ومنها إلى حوض نهر الفولغا. وكانت هذه القوافل التجارية تتوقف في مملكة البلغار الشرقية، ثم تحمل البضائع على المراكب النهرية الصقلبية الروسية في مجرى نهر الفولغا باتجاه الشمال الغربي وصولاً إلى بحر البلطيق، ومنه إلى البلدان الاسكندنافية. وكان الطريق نفسه يستخدم لنقل البضائع من أوروبا الشمالية والغربية إلى البلغار عبر نهر الفولغا باتجاه الخزر ثم إلى الشرق باتجاه آسيا الوسطى، ولعل هذا الخط التجاري خلق الشروط المناسبة للتواصل بين المسلمين والصقالبة.

في مطلع القرن العاشر الميلادي عبّر خان البلغار للخليفة العباسي المقتدر بالله عن رغبته في اعتناق الإسلام وطلب منه أن يرسل من يعلّم شعبه أصول الدين الإسلامي، فأوفد الخليفة المقتدر وفداً برئاسة أحمد بن فضلان يضمّ أفراداً من عدة جنسيات كانوا يخدمون في قصر الخلافة ويجيدون لغات البلاد التي سيزورونها. وقد سجّل ابن فضلان تفاصيل رحلته في كتاب أطلق عليه تسمية **رسالة أحمد بن فضلان رسول المقتدر بالله إلى ملك الصقالبة**. ومن غير المعروف لماذا سمّى ابن فضلان خان البلغار ملك الصقالبة. وفي إثر زيارة ابن فضلان انتشر الإسلام بشكل واسع في مملكة البلغار، وقام ابن ملك البلغار بزيارة إلى بغداد وحج إلى مكة، وتعززت العلاقات بين البلغار الشرقيين والخلافة العباسية وخاصةً العلاقات التجارية والثقافية.

على أية حال، أصبحت مملكة البلغار الشرقية تدين بالإسلام، وشيّد خانها في مدنها عشرات المساجد، وفي هذا المجال يقول المؤرخ الروسي سيرجي سولوفينوف: "هنا منذ القدم كان يعيش شعب البلغار التجاري والصناعي، وقبل أن تبدأ المملكة الروسية السلافية بتشييد الكنائس السلافية المسيحية على نهر أوكا وقبل أن يتوسع إلى هذه المناطق كان البلغاري يستمع إلى القرآن على ضفاف نهر الفولغا وكاما" ليدلّ بذلك على قدم الإسلام في حوض الفولغا.

هاجرت قبائل سلافية إلى مملكة البلغار الشرقية، وتمّ اختلاط كبير بين السلاف والبلغار في هذه المملكة، ودخل قسم كبير من السلاف في الدين الإسلامي، واستمرت مملكة البلغار قائمةً حتى القرن الثالث عشر الميلادي، أي أكثر من ثلاثة قرون، حيث انهارت على أيدي التتار والمغول الذين أسلموا بدورهم.

لم تستطع دولة البلغار الشرقية ولا رجال الدين فيها إقناع الروس بالدخول في الإسلام، رغم محاولاتها العديدة. وتذكر الروايات أنه بعد تنصيب الأمير فلاديمير رئيساً لكييف، وكانت كييف واستطراداً روسيا تدين بالديانة الوثنية، أراد الأمير أن يوحّد الديانات فيها ويتبنّى ديانة توحيدية تصبح الدين الرسمي للبلاد، وخاصةً عندما قدمت من دولة البلغار المجاورة وفود تحاول إقناعه بالدخول في الدين الإسلامي وإعلان هذا الدين ديناً للدولة الروسية. إلا أن فلاديمير استدعى رجال دين من الديانات السماوية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلامية، وأخذ يناقش مع كل هذه الوفود محتويات دينه وتعاليم هذا الدين. فشرح له اليهود دينهم، وسألهم: أين المملكة التي ترتبطون بها؟ فقالوا له: كانت لنا مملكة في القدس ولكن الله غضب علينا وأخرجنا منها. فلم يعجبه هذا الدين وقال: كيف يمكن للمرء أن ينتسب إلى ديانة ملعونة. ثم استدعى رجال الدين الإسلامي فشرحوا له تعاليم الدين الإسلامي وفلسفته، فأعجبه ذلك، وخاصةً السماح بالزواج بأربع نساء، لكن لم يعجبه الامتناع عن شرب الخمر وقال: "راحتنا في خمرنا"، كما لم يعجبه منع أكل لحم الخنزير، فتوجّه إلى المسيحية وتبنّاها، وخاصةً الأرثوذكسية (التي تنتمي إليها الإمبراطورية البيزنطية)، وأعلنها ديناً للدولة على المذهب الأرثوذكسي. ويعود ذلك، في الواقع، ليس إلى إعجابه بالدين المسيحي لذاته، وإنما أيضاً لإدراكه أهمية العلاقات مع بيزنطة وإمبراطوريتها، خاصةً وأن روسيا كانت تمتلك أسطولاً تجارياً كبيراً ولها علاقات تجارية هامة مع بيزنطة والمناطق المحيطة بها، ووجد الأمير فلاديمير أن تبني دين بيزنطة سيعود بالخير على المملكة الروسية، وكان ذلك في نهاية القرن العاشر الميلادي، فتبنّاه وأعلنه ديناً رسمياً للدولة.

لم يستطع التتار نشر الإسلام في روسيا بل على العكس من ذلك، فقد كان عداء الروس لهم سبباً في عدائهم للإسلام. وقد وضع التتار أنفسهم في خدمة الدولة الروسية فيما بعد، واعتنق قسم كبير منهم المسيحية وتمتعوا بنفس الحقوق والامتيازات التي كان يتمتع بها الروس وخاصةً أعيان التتار الذين كانت لهم امتيازات كأعيان الروس. وقد لعبت هذه العلاقات "دوراً مهماً في التاريخ السياسي والعسكري والثقافي للدولة، وكان العديد من الأعيان التتار يخدمون الدولة الروسية دون أن يتخلوا عن دينهم

الإسلامي، وبدورها كانت السلطات تسدّد لهم رواتب وتسمح لهم بالحفاظ على أراضيهم، لكنهم منعوا من امتلاك فلاحين مسيحيين"[1].

جاء انتشار الإسلام متأخراً في شمال القوقاز قياساً إلى انتشاره في آسيا الوسطى، باستثناء منطقة داغستان التي كان لها السبق في الإسلام. وقد لعب الدعاة في داغستان دوراً مهماً في نشر الدين الإسلامي في بلاد القوقاز وفي القرن السادس عشر، ثم انتشر الإسلام في المناطق الساحلية للبحر الأسود بمساع من الإمبراطورية العثمانية. ووصل الدين الإسلامي إلى أوسيتيا بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولعبت الطرق الصوفية دوراً في نشر الإسلام في الأراضي التي انضمت لاحقاً إلى الإمبراطورية الروسية. "ولم تكن سياسة الدولة الروسية تجاه الإسلام والمسلمين في القرن الثامن عشر ذات اتجاه واحد، ففي الوقت الذي كانت فيه الحكومة الروسية تفرض قيوداً على بناء مساجد جديدة وتشجّع المسلمين على التحول إلى المسيحية وتدعم عمل المبشرين المسيحيين في صفوف المسلمين، اعتمد القياصرة الروس في سياستهم تجاه الإسلام على مصالحهم السياسية وليس الدينية. وعلى سبيل المثال عينت الإمبراطورة بيتروفنا (١٧٠٩ - ١٧٦١) أول جنرال مسلم في الجيش الروسي"[2]. ولم تقدم السلطات الروسية إجمالاً على منع المسلمين من التمسك بدينهم وإنشاء مؤسسات دينية خاصة بهم، وكانت الدولة ترحب بتحول المسلمين وأتباع الديانات الأخرى إلى المسيحية الأرثوذكسية وتشجّعهم على ذلك بطرق مختلفة دون أن تجبرهم على ذلك[3].

---

١ حسين الصدر، "الإسلام والمسلمون في روسيا عبر العصور"، **روسيا اليوم**، ٢٠١٣/٥/٢٧.

٢ المصدر السابق.

٣ المصدر السابق.

الفصل الرابع

الهند حاضنة التجارة العربية
وبلد العجائب والغرائب



بدأت العلاقات العربية الهندية في وقت مبكر قبل الإسلام، فقد تولى العرب نقل منتجات الهند المتنوعة عن طريق المحيط الهندي والبحر العربي وصولاً إلى باب المندب والبحر الأحمر، أو نقلها براً بطريق مدن الحجاز (مكة والمدينة وجدة وغيرها) وصولاً إلى دمشق، ومنها يتولى البيزنطيون نقلها إلى أوروبا بالمشاركة مع التجار العرب. وكان سعر البضائع الهندية في أوروبا يصل أحياناً مئتي ضعف سعر شرائها... وربما كانت علاقة الملك سليمان بملكة سبأ متأثرة سبباً ونتيجة بهذه التجارة. ويقال إن العرب حاولوا أن لا يتعرف الأوروبيون على خفايا طريق الإبحار في البحر الأحمر، الذي كان صعباً جداً وخطراً بسبب صخوره المرجانية التي كان البحارة العرب وحدهم يستطيعون المرور منها وتجاوزها بأمان، وكان هؤلاء التجار يبالغون أمام الأوروبيين عند شرح وسائل وطرق وصعوبة حصولهم على البضائع في الهند فضلاً عن صعوبة نقلها، ويروون أساطير عن وحوش وغيلان وأفاع تعترضهم قبل الحصول على هذه البضائع، إضافةً إلى مخاطر الصخور المرجانية على المتنقل في البحر الأحمر. وعلى أية حال، وقبل تعلم الأوروبيين الإبحار في هذا البحر كان العرب طوال السنين هم أسياد التجارة مع الهند بلا منازع. لقد أدى العرب دور الوسطاء في نقل التجارة من شبه القارة الهندية وإليها، وأدى التجار من الخليج العربي خاصةً دوراً استثنائياً في مجال النشاط التجاري من الهند وإليها. هذا ويعود الاتصال والتواصل بين الهند والعرب إلى ما قبل الإسلام، حيث كان هذا الاتصال وثيقاً جداً، وهناك دلائل تاريخية تشير إلى وجود آثار للبوذية في العراق جنوبه وشماله، وسمّي هؤلاء البوذيون بـ"الفرقة السمنية"[1]، وقد أشار البيروني إلى انتشار البوذية في فارس والعراق فقال إن خراسان وفارس والعراق والموصل وصولاً إلى حدود الشام القديمة باقية على دينهم (أي دين الفرقة السمنية). وعلى أية حال لم ينقطع التواصل التجاري بين

[1] سيد سليمان الندوي، **العلاقات العربية الهندية**، المركز القومي المصري للترجمة، القاهرة، ٢٠١٢.

العرب والهند طوال التاريخ القديم، وقامت علاقات اقتصادية وتجارية بين الطرفين، وانتقلت كلمات ومصطلحات عربية إلى اللغة الهندية وأخرى هندية إلى اللغة العربية نتيجة هذا التواصل[١]. ولكن للأسف كان قسم كبير من العرب ومازال لا تتجاوز معارفه عن الهند سوى أنها بلد العجائب والغرائب، كما كان العرب يطلقون عليها حسبما يروي البيروني. وقد مكّنت هذه التجارة والعلاقات التجارية التجار العرب أن يصلوا إلى معظم مدن الهند، سواء منها الواقعة على الساحل الغربي أم تلك الواقعة في السند وخليج البنغال، بل وصلوا شرقاً إلى بلاد الملايو وجزر أندونيسيا، وشكّلوا جاليات في بعض هذه المدن، وأتقن بعضهم اللغة الهندية الموجودة في المنطقة التي يعيش فيها، وتزوجوا من هنديات، وتأقلموا مع حياة وثقافة الولايات الهندية التي كانوا يعيشون فيها، وتأثروا بأنماط عيشها وتقاليدها وقيمها وأثروا في هذه الجوانب جميعاً، وكان ذلك كله قبل الإسلام كما كان بعده. وعلى أية حال كانت العلاقات التجارية قائمة طوال الوقت بين الهند ومصر ومعظم بلاد العرب، كما قامت علاقات علمية ودينية واسعة، ولعب الرحالة والجغرافيون العرب دوراً هاماً في تقديم وصف دقيق للهند وأحوالها، بدءاً من كتاب ابن خرداذبه الموسوم بـ **المسالك والممالك** الذي قال فيه إن ملك أهل الهند اثنان وأربعون ملة منهم من يؤمن بالخالق عز وجل والرسل، ومنهم من ينفي وجود الرسل، ومنهم النافي لكل ذلك. ويذهب بعضهم[٢] إلى أن المسلمين والعرب هم الذين أطلقوا على الهند اسمها، قبل مجيء المسلمين إلى الهند، حيث لم يكن ثمة اسم للبلاد، فقد كان لكل إقليم من الأقاليم اسمه الخاص به، وكانت كل إمارة تعرف بعاصمتها، ذلك لأن النظام الاجتماعي – الاقتصادي في الهند كان إقطاعياً، ولم تكن مركزية الدولة قائمة في ذلك الوقت، أي لم تكن الهند موحّدة ولم تكن لها دولة مركزية.

إذن عرف العرب الهند في جاهليتهم من خلال الرحلات التجارية البحرية، واختلطوا بسكان المدن وأسواقها، خاصةً الواقعة منها على سواحل الهند، واستوطن بعضهم فيها وتزوج من نسائها وتعلم لغتها. كما أثرت اللغة العربية عموماً في اللغة

١ مثل: زنجبيل، كافور، قرنفل، الساج، المهند أي السيف.
٢ "علاقات الهند والعرب قديمة وزادها الإسلام قوة"، حلمي النمنم، **الاتحاد** الإماراتية، ٢٠٠٩/٢/١٩.

الهندية، فدخلت إلى هذه اللغة كلمات عربية كثيرة، كما دخل اللغة العربية عديد من الكلمات كما مر معنا[1].

جاء في كتاب ابن بطوطة الذي وثّق فيه رحلته إلى الهند[2] في القرن الرابع عشر الميلادي أن أهم الأديان التي كانت في الهند قبل دخول الإسلام هي الهندوسية، وهي ديانة الآريين (ذوي البشرة البيضاء) الذين غزوا الجزء الشمالي الغربي للهند من أواسط آسيا (حوالي ٢٥٠٠ ق.م) وانعزلوا عن باقي سكان الهند الأصليين (ذوي البشرة السمراء) وحافظوا على أعراقهم النقية حسب ابن بطوطة. ثم يلي الهندوسية الديانة البوذية (حوالي ٥٠٠ ق.م)، وأتباعها هم الهنود الذين يتّبعون آراء أحد الحكماء القدماء (جوتاما بوذا)، أي "العارف المستنير"، الذي جاء بتعاليم مناقضة وناقدة لنظام الطبقات الذي فرضه الآريون على الهنود، وكان ظهوره بمثابة ثورة ضدهم. وهناك ديانات عديدة صغيرة في الهند قد يصل عددها إلى أربعين ديانة. ثم فتح العرب والمسلمون الهند وانتشر الإسلام واحتل المرتبة الثالثة بين دياناتها، بعد الهندوسية والبوذية، بعد انفصال باكستان.

نُشرت في موقع بوابة الهند على الشبكة العالمية قصة تاريخية، قد لا تكون صحيحة أو تكون مبالغاً فيها، إلا أنها تعطي مؤشراً هاماً عن سهولة دخول الإسلام بلاد الهند وسهولة تقبّله من أهل تلك البلاد. وتعود أحداث القصة إلى القرن السابع الميلادي حيث وصلت رسالة الإسلام إلى ساحل ماليبار الواقع في جنوب غرب الهند في ولاية كيرالا الحالية، وهي أول بقعة وطئتها أقدام الإسلام في الهند قبل احتلال العرب المسلمين هذه البلاد، أو بالتحديد شمال هذه البلاد في العهد الأموي. وقد انتشر الإسلام على ساحل ماليبار على يد الصحابي (أو التابعي، فقد اختلف المؤرخون إن كان صحابياً، وبالتالي عايش النبي، أو تابعياً) مالك بن دينار ومعه أربعة عشر رجلاً من أصحابه، فقد وصلوا إلى شواطئ كيرالا المشمسة في وضح النهار بعد أن أنهكهم التعب بسبب طول مدة السفر وعنائه، فافترشوا الأرض وخلدوا إلى الراحة، فرآهم رجل من إحدى الطوائف الهندية الدنيا، وكان يكسب قوت يومه من قطف جوز

١ أحمد فرحات، "العلاقات العربية الهندية"، **اللواء الثقافي**، ٢٠١٣/١/١٩.

٢ الدكتور ياسر عبد الجواد المشهداني، **من مكونات العلاقات العربية الهندية: رحلة ابن بطوطة نموذجاً**، جامعة الموصل.

الهند بالأجرة، فأثارت حالتهم شفقته، فبادر إلى إسقاط عدد من ثمار جوز الهند عمداً ليرووا عطشهم، فرفض مالك بن دينار وأصحابه هذا العرض لأن تعاليم دينهم تحرم عليهم أخذ شيء دون إذن أو علم صاحبه خاصةً وأنهم عرفوا أن هذا الرجل أجير وليس مالكاً. وترك هذا التصرف الغريب وغير المألوف أثراً كبيراً في نفس الرجل، فأبلغ سيده عن هؤلاء الغرباء وعمّا حدث له معهم، وسرعان ما سرى الخبر بين الناس حتى وصل إلى آذان الملك، وكان اسمه تشريمان برومال، ملك كيرالا آنذاك، فاستدعى مالك بن دينار إلى قصره وسأله عن خبره وعن سبب قدومه إلى بلده فأجابه أنه يحمل رسالة إلهية[1] جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور وتدعو الناس إلى التحلّي بالأخلاق الفضيلة والتخلّي عن الأخلاق الرذيلة، وهذا ما منعه هو وأصحابه من قبول هدية الرجل (رجل المزرعة). ثم تحدث عن الثواب العظيم لمن يؤمن بها (الرسالة) والعذاب الأليم لمن يكفر، ودعا الملك إلى الدخول في كنف هذا الدين العظيم الذي لا يقتصر على بلد دون آخر، أو قوم دون غيرهم، وهو رسالة عالمية. وقد اقتنع الملك – حسب هذه الرواية – بكلام مالك بن دينار الذي لم يدع لدى الملك أي شك في مصداقيته فأشهر إسلامه. وتقول الرواية إن الملك توجه إلى مكة بعد ذلك قاصداً أداء فريضة الحج، ويروي بعض المؤرخين أنه التقى النبي. ويوجد في القرية التي وصل إليها مالك بن دينار الآن مسجدٌ هو الأول الذي بني في الهند، واسمه مسجد تشيرمان على اسم الملك[2].

ويروي عدنان علي رضا النحوي قصة دخول الإسلام إلى الهند بشكل آخر فيقول: عندما ظهر الإسلام أرسل النبي إلى ملك ماليبار تشريمان برمال في عام (٧ هـ – ٦٢٨م) رسالةً يدعوه فيها إلى الإسلام، ويروى أن هذا الملك زار النبي، كما وصلت إلى بلاد ماليبار (كيرالا) جماعة من الدعاة العرب المسلمين على رأسهم مالك بن دينار ونزلوا في مدينة كان غور، ثم جابوا جميع أنحاء كيرالا داعين إلى الإسلام.

بدأ التفكير في فتح الهند في وقت مبكر منذ أيام عمر بن الخطاب، حيث طلب

---

١ تقول بعض الروايات إن ابن دينار كان يحمل رسالة من النبي، بينما ترى روايات أخرى أن قدومه كان في مطلع القرن الثامن، أيام حكم بني أمية.

٢ "قصة انتشار الإسلام في الهند ودلالاتها على العلاقات العربية الهندية"، موقع بوابة الهند، ٢٠٠٦/٤/١.

واليه على البحرين عثمان بن أبي العاص الثقفي (عام ١٥هـ) أن يرسل جيشاً بقيادة أخيه لفتحها، إلا أن عمر خشي ركوب الجيش البحر فلم يوافق، كما قال البلاذري في **فتوح البلدان**. والأمر نفسه أيام عثمان الذي طلب من واليه على العراق توجيه جيش لفتح الهند ففعل وأرسل جيشاً استطلاعياً، ولما عاد قائده طلب منه عثمان وصف المناطق التي دخلها فقال له، حسب رواية البلاذري، إن "ماءها وشل، أي قليل، وتمرها دقل، أي رديء، إن قل الجيش فيها ضاعوا وإن كثروا جاعوا"، وبعدها لم يأمر بغزوها. وفي أيام علي بن أبي طالب غزاها الحارث بن مرة العبيدي فظفر وأصاب مغنماً وسبياً. أما في أيام معاوية فقد أرسل المهلب بن أبي صفرة على رأس جيش عام ٤٤ هـ فغزا منطقة السند. وكانت هذه المحاولات بالإجمال محاولات غير منظمة. أما المحاولات الفعلية والمنظمة لفتح الهند فقد بدأت أيام عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦هـ) على يد الحجاج بن يوسف الثقفي الذي تولى إمارة المشرق، فأرسل عدداً من قواده لغزو هذه البلاد لكنه فشل، فوجّه ابن أخيه محمداً بن القاسم الثقفي عام ٩٢ هـ ففتح معظم بلاد السند والهند وانتشر الإسلام فيها، وأسس أول حكومة إسلامية مستقلة، وبقي محمد بن القاسم هناك حتى عزله سليمان بن عبد الملك عند توليه الخلافة (٩٦ هـ) واستدعاه لمقابلته. أما عمر بن عبد العزيز فقد دعا حكام الهند إلى الإسلام قبل أن يحاربهم "على أن يملّكهم بلادهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين"، وأسلم نتيجة ذلك عددٌ منهم وتسمّوا بأسماء عربية. واستمرت أعمال الفتح أيام هشام بن عبد الملك والحلفاء الأمويين الآخرين، فتوالى عدة ولاة عليها منهم خالد بن عبد الله القسري الذي استقرت الأوضاع في عهده، ثم تولى ولاية الهند عمر بن محمد بن القاسم الثقفي، فأحبه الناس لأعماله ولشهرة أبيه، كما أرّخ ابن الأثير في **الكامل في التاريخ**. واستمرت محاولات الخلفاء العباسيين إخضاع باقي أراضي الهند الشاسعة، مثلما فعل السفّاح (١٣٢ – ١٣٦ هـ) والمنصور (١٣٦ – ١٥٨ هـ)، ولكن كثرة الخلافات بين الولاة وتمردهم على الخليفة أبطأ عملية الفتح. ثم فتح عمرو بن جبل، قائد جيش المنصور، كشمير والملتان وجنوب البنجاب، وتتابع الولاة حتى عهد المتوكل. وإضافةً إلى هذه الفتوحات كان للتجار دور كبير في نشر الإسلام من خلال تعاملهم بأمانة وصدق مع أهل البلاد. ووجد الإسلام في الهند أرضاً خصبة سهلة،

فأصبح في كل ميناء أو مدينة اتّصل بها المسلمون جماعة اعتنقوا الإسلام وأقاموا المساجد وباشروا شعائرهم في حرية تامة. وكانت للعرب والمسلمين منزلة عند السكان في ذلك الوقت باعتبارهم أكبر العوامل في رواج التجارة الهندية التي كانت تدرّ على هؤلاء الحكام الدخل الوفير، كما يقول عبد المنعم النمر في كتابه **تاريخ الإسلام في الهند**.

توطدت العلاقات اللغوية والثقافية والاجتماعية بين الهنود والعرب، وخاصةً بعد دخول الإسلام إلى الهند، وكان لسلوك التجار العرب من جهة وجيوش الفاتحين من جهة أخرى أثرٌ كبير في تحقيق وثوق الهنود بهم وبصدقهم وأمانتهم، سواء كان الهنود حكاماً أم شعوباً، فدخلت بناءً على هذه الدوافع الأخلاقية الثقافية أفواج كثيرة منهم الدين الإسلامي دون أي ممانعة سياسية أو اجتماعية أو حتى دينية تذكر. ويُقال إن الإسلام، باعتباره ديانة توحيد، أقنع الكثير من الهنود ممّن كانوا يعانون التمزق والفرقة جراء نظام الطبقات القاسي الذي كان يفرضه عليهم دينهم الذي يؤمن بتعدد الآلهة[١].

لقد قامت علاقات متينة ومتعددة الجوانب بين الولايات الهندية والخلافة العربية المركزية، فقد اقتبس السلاطين الهنود عدداً من النظم الإدارية من الدولة العربية الإسلامية، لاسيما ما يتعلق بإقامة الدواوين التي تخصّ الشؤون المالية، وقد نقل بعضها بفضل الفاتحين الأول، ومنها ديوان بيت المال الذي نشأ وتطور في العصر الراشدي والأموي بعد توسّع الدولة العربية الإسلامية وزيادة حجم وارداتها جراء زيادة الفتوحات والخراج[٢].

كانت للهند عموماً علاقات حسن جوار وتعاون ومودة مع جيرانها في مختلف الجهات، كما كانت لها علاقات مماثلة مع مصر في المراحل اللاحقة من حكم الخلافة العباسية، خاصةً أيام المماليك، والأمر نفسه بالنسبة لعلاقاتها مع العراق التي كانت جيدة ومستقرة، وكان يوجد بشكل دائم عدد كبير من التجار والعلماء العراقيين في دلهي، ولم تكن علاقات الهند ببلاد الشام أقل مما كانت عليه مع العراق ومصر. وفي هذه الحالات كلها أقيمت علاقات اجتماعية متينة وعلاقات مصاهرة بشكل

١ أحمد فرحات، **اللواء الثقافي**، مصدر سابق.

٢ خولة الزحيلي، **بيت المال**، مطلعة وزارة الأوقاف، بغداد.

خاص، إضافةً إلى العلاقات الاقتصادية التي تحدث عنها فيما بعد ابن بطوطة كثيراً.

والأمر نفسه بالنسبة للعلاقات الثقافية، فقد عُرفت الهند بأنها أكثر البلدان عدداً في دور العلم، وأبرزها المساجد التي كانت أولى الأماكن لنشر التعليم. ونتيجة انتشار الإسلام في الهند والمعاملة الحسنة والرغبة في التعاون من دون إكراه "كان طبيعياً أن تظهر عناية الهنود والمسلمين بالعلوم الدينية المتعلقة بالإسلام عامةً والشريعة وعلوم القرآن والحديث والفقه خاصةً"، وطاول الأمر العلوم العقلية "التي اشتهرت الهند قبل انتشار الإسلام فيها على أنها بلد الفلسفة والمعرفة العلمية. وقد أدلى المؤرخون المسلمون، ولاسيما أولئك الذين زاروها، في مصنفاتهم، بآراء وأفكار قيّمة عن علوم الهند وفنونه وأفكاره، كما أوردت بعض المصادر العربية عدداً من المصنفات الهندية في مختلف المجالات، وكان بعض تلك المصنفات في العلوم والمعارف والتنجيم والفلسفة والرياضيات وغيرها"، كما أشار ابن بطوطة في كتابه **رحلة ابن بطوطة**. وقال فيه أيضاً إن بعض الأطباء الهنود عُرفوا بأساليب معالجتهم للأمراض بفضل أدويتهم التي تستخرج من بعض الأعشاب والمواد التي تتوفر "لاسيما العود والكافور والقرنفل وغيرها". وكان النبي محمد نوّه باستخدام الأدوية الهندية في علاج الأطفال، وقال في بعض الأحاديث إنها تشفي أكثر من سبعة أمراض. وروي حديث آخر عنه "عليكم بهذا العود الهندي فإن فيه سبعة أشفية يستعض به من الندرة ويلد من ذات الجسم"، كما أشار ياسر المشهداني في دراسته عن **رحلة ابن بطوطة**[1]. وقد سمح الحكام المسلمون بشكل عام للهنود من غير المسلمين بالانخراط في السلطة الإسلامية، وكانت الحياة اليومية للعرب وللطوائف الهندية، كما روى ابن بطوطة، مستقرة بتأقلم السكان فيما بينهم دون مصاعب.

استمر الحكم العربي لمنطقة السند حوالي ٢٠٠ سنة تقريباً، حيث أتى بعدهم حكم المسلمين من غير العرب. وكان كثير من العلماء والفلاسفة خلال هذه المدة يسافرون إلى بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، ويساهمون في تعريب العلوم المختلفة من رياضيات وهندسة وطب وفلسفة وغيرها. وأما من انخرط من الهنود أبناء السند في

١ اسر عبد الجواد المشهداني، **من مكونات العلاقات العربية الهندية: رحلة ابن بطوطة نموذجاً**، جامعة الموصل.

الجيش الإسلامي التابع للخلافة فقد نبغ منهم ومن ذريتهم شعراء وعلماء لغة وبلاغة[1].

كانت الهند كغيرها من الولايات الإسلامية التابعة لسلطان الدولة العباسية، ففي العصر الذهبي لهذه الدولة (١٣٢ - ٢٣٢هـ) كان نفوذها ممتداً على كل الأقاليم والولايات الإسلامية من شرقها إلى غربها بما في ذلك ولاية الهند، وكان عمال الدولة خاضعين لسلطان الخليفة العباسي في بغداد. فلما ضعفت شوكة الخلافة العباسية بدأت الكثير من الدويلات الإسلامية بالظهور والاستقلال، خاصةً في المناطق الطرفية، ثم بدأت غزوات الأسر الحاكمة الإسلامية للهند، فقامت الدولة الغزنوية (٣٩٢ - ٥٨٢هـ) التي أسسها ناصر الدين سبكتكين في مدينة غزنة، وكان أهم حكامها محمود الغزنوي، واعتمد السلاطين الغزنويون على قوة السيف وحده للمحافظة على ملكهم دون الاهتمام بإقامة نظام صالح، مما أدى إلى تداعي بناء الدولة حين تراخت الأيدي التي كانت تقبض السيف، إلى جانب تهالك أغلب الحكام ورجال الدولة على حياة البذخ والترف بسبب ما أصابوه من ثروات الهند وكنوزها الطائلة.

حكم الغزنويون الهند بعد عهد العرب وسيطروا على مناطق واسعة منها ومن السند. وتلا العهد الغزنوي عهد السلاجقة ثم التركمان وأخيراً العهد الغوري الذي جعل من دلهي عاصمته[2] وأرسى دعائم الاستقرار والازدهار في الهند، وانتشرت في هذا العهد اللغة العربية. والغوريون الذين حكموا الهند هم في الواقع أفغان كانوا حضاريين ومنفتحين على الأديان والجماعات الدينية كلها في الهند، وهم أول من اعتبر أن المواطنة هي أساس الدولة في شبه القارة الهندية. وقد قال نهرو في القرن العشرين إن الغوري شهاب الدين محمد، أول ملك الغوريين على الهند، اعتبر الهند دولته ووطنه وفهم الإسلام كدين رحمة للعالمين. ثم حكم المماليك الهند بقيادة قطب الدين أيبك في مطلع القرن الثالث عشر، وكانت عاصمتهم دلهي، وبنوا فيها مساجد ومآذن، وتحولت العاصمة دلهي إلى ملجأ آمن للكثير من العلماء والدعاة والفلاسفة الذين هاجروا إليها من بلاد ما بين النهرين هرباً من هجمات التتار. وأخيراً حكمها المغول حيث استولى تيمورلنك على دلهي ونهبها كما نهب السند والبنجاب. ثم

---

١ أحمد فرحات، مصدر سابق.

٢ كان اسم دلهي قبل الإسلام "دهلي".

بدأت فترة حاسمة في تاريخ الإسلام والمسلمين في الهند حيث تفككت هذه إلى ست دول ذات سيادة، فأصبحت كل ولاية دولة مستقلة.

إن "فتح" الهند، والسيطرة العربية عليها ونمط العلاقات التي قامت بين الولايات الهندية والدولة العربية المركزية (في العهد الأموي والقرن الأول من الدولة العباسية)، أخذ، إضافةً إلى العلاقات التجارية التاريخية بين الهند والجزيرة العربية قبل الإسلام، طابعاً خاصاً ومرّ بشروط خاصة تختلف عن فتح العرب المسلمين للبلدان الأخرى وطرق إدارتها وسياستها ونمط العلاقات التي قامت بين هذه البلدان وبين العرب حكومات وشعوباً. كما كان لنشر الإسلام فيها ظروف خاصة أيضاً لم تكن قائمة في البلدان الأخرى.

أشرت سابقاً إلى أن العرب حكموا ولايات الهند لمدة مئتي عام فقط، نصفها تقريباً في العصر الأموي والنصف الآخر في العصر العباسي، وتناوب بعدها على حكم الهند شعوب وأسر إسلامية تركية ومملوكية ومغولية وغيرها، وذلك لأن الدولة العربية المركزية في بغداد، أي الدولة العباسية، أخذت تضعف وتتفكك منذ القرن الثالث الهجري لحساب الولايات التي كانت قائمة والتي تحولت إلى دول أو ما يشبه الدول، تحكمها شعوب إسلامية غير هندية أو أسر مغامرة استطاعت تولي السلطة في الولايات التي تسكنها كالدولة الغزنوية (٣٩٢ - ٥٨٢هـ) والدولة الغورية (٥٨٢ - ٦٠٢هـ) ودولة المماليك (٦٠٢ - ٨١٥هـ) ثم أخيراً الاحتلال المغولي.

لقد كانت العلاقات بين الهنود والعرب في القرنين الأولين من قدوم العرب المسلمين علاقات مودة وتسامح، وكانت تختلف عن العلاقات التي أتت بعد ذلك التاريخ والتي لا تخلو من استغلال السلطات الإسلامية غير العربية التي حكمت الهنود وظلمها وجشع بعض حكامها، وعدم وجود علاقات تاريخية سابقة بينها وبين الهنود كما كان حال العرب، فكانوا حكاماً غربيين أجانب (محتلين) تندر نقاط التلاقي بينهم وبين الهنود، كما تكاد المشتركات تكون غير موجودة، سواء فيما يخص المصالح المشتركة أم العلاقات الإنسانية والتقاليد والقيم التي كانت مشتركة بين الهنود والعرب.

قبل أن يدخل العرب إلى الهند فاتحين بقرون دخلوها تجاراً يصدّرون بضائعها

إلى حوض المتوسط وأوروبا ويجلبون لها البضائع من تلك البلدان. وكانت مصالح الهنود (شعوباً وحاكمين) تقتضي الحفاظ على العلاقات الجيدة والمتينة مع العرب، إذ أن هذه العلاقات كانت تدرّ على الحكام الهنود المحليين، على اختلاف مراتبهم وصولاً إلى الصغار منهم، أموالاً هامة من خلال الرسوم التي يتقاضاها هؤلاء الحكام على الصادرات والواردات، وتدرّ على الشعوب فوائد كبيرة أيضاً من خلال تصدير منتجاتهم وتأمين السلع التي يحتاجونها. ونجح التجار العرب في بناء علاقات واسعة ومتشابكة تأخذ مصالح الهنود فقراء وأغنياء وحكاماً بعين الاعتبار، وأدركوا مبكراً أن مثل هذه العلاقة التي تؤمّن المصالح المتبادلة وتبعد الجشع هي العلاقة التي تدوم وتتعزز وتعطي فوائد ثابتة وهامة، وهذا ما تأكد فيما بعد. وقد تعلم بعض هؤلاء التجار اللغات المحلية وتكلموا بها، ودخلوا في النسيج الاجتماعي للبلاد وصاهروا أهلها وشكلوا جاليات، وكان ذلك كله قبل مجيء الإسلام. وفي الخلاصة كانت العلاقات دافئة بين الطرفين، تقوم على المصالح المشتركة أساساً وعلى الاحترام والتفاهم المتبادلين وعلى التسامح الذي اشتهر به الهنود والذي وجد التجار العرب مصلحتهم فيه وفي ممارسته لأنه كان شرطاً من شروط استمرار هذه التجارة مزدهرة. وعلى أية حال، بدأت العلاقات العربية - الهندية ودية ومتينة يمارسها الطرفان ويحترمانها، واستمرت كذلك طوال التاريخ وحتى الآن، لأن صورة العرب لدى شعوب الهند لم تهتز رغم تغير الظروف والأحوال، ولا يعود ذلك للأسباب التي ذكرتها فقط بل يمكن الإشارة إلى أسباب أخرى لا تقل أهميةً كتعدد الديانات الهندية وتعايشها وتسامحها وممارسات المسلمين الأوائل الأكثر عدالةً ورحمة بفقراء الهند من حكامهم.

إن تعدد الديانات الهندية من جهة وجنوحها إلى التسامح والممارسات الروحانية من جهة أخرى، ووجود ديانات بسيطة وبدائية عديدة في الهند، لم يمكّن الهنود من الوقوف بوجه الإسلام ورؤيته الشاملة للكون والحياة وقوة جيوش الفتح وقدرتها، وهذا كله سهّل "الفتح العربي" وأسقط معاداة متطرفين هنود يمكن أن يقفوا بوجه الجيوش الفاتحة. فكان الفتح سهلاً، كما كان تعامل الفاتحين مع شعوب الهند جيداً خالياً من الحقد والانتقام، وجلبوا معهم الدين والثقافة، وابتعدوا عن إيذاء السكان أو إرهاقهم بالرسوم والضرائب والإتاوات التي كان الحكام المحليون يجبونها من

السكان ويسومونهم سوء العذاب، فوقع الفتح العربي والفاتحون العرب موقعاً مرغوباً في نفوس الهنود، ولم يجدوا مبرراً لمقاومتهم ومعاداتهم، وهم أفضل من حكامهم المحليين بما لا يقاس، وكان هذا موقف فقراء الهند خاصةً.

كان الحكام المحليون في ولايات الهند ومدنها وريفها ومناطقها المختلفة، على مختلف درجاتهم، يتمتعون بسلطة شبه مطلقة ويظلمون السكان ويجبون المال والضرائب كما يحبون. ولم يكن للشعب في الواقع حقوق ولو في الحد الأدنى، ولذلك كان هؤلاء الناس فقراء معدمين لا يجدون لقمة عيشهم إلا بشق النفس، يتساوى في ذهنهم ووعيهم الحاكم المحلي مع الحاكم الأجنبي، بل ترجح كفة الأجنبي لأنه يعطي للشعب حقوقاً واضحة مهما كانت متواضعة، أفضل بما لا يقاس مما يعطيه حاكمه المحلي. ولذلك استوى عند شعوب الهند في ذلك الوقت المحتل والحاكم المحلي، بل رجحت كفة المحتل، وأحب الهنود العرب لأنهم مارسوا عدالة الإسلام وكانوا خلال حكمهم للهند أقرب إلى العدل، وفي الوقت نفسه لم يجدوا في الهنود مصدر خطر قومي أو ديني كما كان الحال مع الشعوب الأخرى التي "فتح" العرب بلادها. وأدّى هذا كله إلى استمرار التسامح والتصالح والعلاقات الودية بين الهنود وتكريس سمعة العرب الحسنة وصورة العرب المحبوبة، وتناقلها الهنود جيلاً بعد جيل. وزاد هذه الصورة نصوعاً الظلم الذي واجهه الهنود من حكم الشعوب والأسر الأخرى لهم والذي لم يكن يخلو من الظلم والنهب والإفقار، عكس ما كان الحال أيام حكم العرب للهند. وأخيراً، لم تكن في الهند دولة مركزية في ذلك الوقت، تحكمها أسرة إمبراطورية، بل كانت ولايات أو إقطاعات، وكانت تتشكل من تجمّع ولايات، ليس من شأنها الوقوف بصلابة أمام العرب والتصرف كأبناء شعب واحد وقومية واحدة، تقودهم حكومة واحدة.

استمر هذا التعاطف الهندي مع العرب وقضاياهم حتى عصرنا الحاضر، فمن جهة دعمت الحكومات الهندية المتتالية، منذ الاستقلال حتى الآن، حق العرب في فلسطين ونضال شعوبهم من أجل الاستقلال، وكانت دائماً تتصرف كحليف للعرب، وتعمقت هذه العلاقات أيام نهوض حركة التحرر الوطني العربية بقيادة عبد الناصر والتيار القومي العربي عامةً، حيث توصلت إلى سياسة الحياد الإيجابي وعدم الانحياز

التي كان جمال عبد الناصر وجواهر لال نهرو مع الرئيس تيتو من قيادييها. وبالمقابل لم يقف العرب (حكومات وشعوباً) موقف العداء من الهند بسبب صراعاتها مع الباكستان، الدولة الإسلامية، على كشمير وعلى غيرها، وحافظوا على الصداقة مع الهند، وأخذ الجانبان الهندي والعربي العلاقات بينهما التي تعود إلى عمق التاريخ بعين الاعتبار، وتعاطف الهنود دائماً مع القضايا العربية، ولم تخدش صورة العرب لديهم أو يتغير موقفهم الإيجابي من العرب.

الفصل الخامس

الصين البعيدة



تمهيد

كانت الصين طوال التاريخ بعيدة عن البلدان العربية، فلم تتأثر بأحداثها السياسية مباشرةً ولم تؤثر في هذه الأحداث بشكل كبير، ذلك لأن الصين كانت دائماً منكفئة على نفسها في جانبين:

الأول يشكل انكفاءً داخلياً للأسر الحاكمة، حيث كانت المشاكل الداخلية الصينية تستغرق جهود هذه الأسر واهتماماتها ومشاغلها، خاصةً أن بلاد الصين واسعة ومساحتها كبيرة. ولم يكن لدى الأسر الحاكمة الصينية غالباً اهتمام خارج أراضيها، لأن الأنظمة الأسرية أو الإقطاعية التي كانت سائدة في الصين في الألف الأول الميلادي لم تكن تهتم بالتوسع الخارجي، إنما كان همّها الحفاظ على ما لديها من ممتلكات وامتيازات، ولذلك لم تكن للصين علاقة جدية وشاملة مع شبه الجزيرة العربية إلا ما يتعلق بالتجارة، وكان التواصل العربي مقتصراً على حدود الصين الجنوبية الشرقية (جنوب شرق آسية) والشمالية الغربية (شعوب الإيغور وشرق منغوليا وتركستان وخراسان) بعد أن أسلمت. وينبغي الإشارة إلى أن العلاقات مع جنوب شرق آسيا تأسست بفضل التجار العرب الذين كانوا شبه مغامرين وعلى الأخص منهم الحضرميون والعمانيون.

أما الجانب الثاني فهو الأكثر عمقاً وشمولاً ويظهر ذلك جلياً في شمال غرب الصين حيث تأسست هذه العلاقة بعد أن أسلمت شعوب تلك المنطقة.

وفي الحالات كلها بقيت الصين منغلقة على نفسها ولا تهتم بالشؤون الخارجية، واستمر الحال كذلك مئات السنين، حتى النصف الثاني من القرن العشرين. وعلى ذلك تضاءلت معرفة الصينيين بالعرب، وبقيت أسيرة الأوهام والأساطير التي سيطرت

عليها منذ ما قبل الإسلام، ثم تعمقت الأوهام والأساطير بعد مجيء الإسلام وما وصل إلى وعي الصينيين منه. وكان ما وصل في الحقيقة هو مجموعة من الأساطير المتعلقة بالإسلام وبالنبي محمد وحتى بالفتوحات العربية الإسلامية، باستثناء بعض المعارف القريبة من الحقيقة والمتعلقة بالتجارة والتجار وآلية عملهم وطرق تعاملهم وعاداتهم وتقاليدهم.

كان أهم ما عرفه الصينيون عن شعوب الشرق الأوسط هو معرفتهم بالإمبراطورية الفارسية التي كانت سمعتها قد غطّت جميع بلدان آسيا وصولاً إلى الصين، وبسبب ذلك انتشرت الزرادشتية في هذه البلاد. وكانت هذه الإمبراطورية (الفارسية) هي الثوابت التي يعرفها الصينيون جغرافياً وسياسياً، فكانوا يشيرون إلى مواقع البلدان على أنها جنوب بلاد الفرس أو غرب بلاد الفرس أو ما أشبه ذلك، باستثناء بلدان وسط آسيا، وخاصةً بلدان شعوب الترك، التي كانوا يعرفونها من خلال تشابه ثقافة وتقاليد المغول بثقافة وتقاليد الترك، وكذلك أنماط عيشهم، وكثيراً ما خلطوا بين المغول والترك.

كانت معرفة الصينيين بالعرب لا تتعدى ما ينقله التجار عن البلدان العربية وبلاد الشام، وما ينقله بعض الرحالة (وما أقل عددهم). ومن الرحلات القديمة الهامة جداً رحلة تشانغ تشيان في القرن الثاني قبل الميلاد، وكان موظفاً كبيراً في البلاط الصيني، وقد أرسله إمبراطور الصين إلى بلدان الجهات الغربية المتاخمة للصين للتحالف مع القبائل في هذه الجهات ضد قبائل المغول. وقد قام تشانغ تشيان برحلتين: الرحلة الأولى عام ١٩٣ ق.م ووصل فيها إلى بلدان آسيا الوسطى وأفغانستان، والثانية بعد عشرين عاماً، وضمّت عدة فرق ووصلت إلى غرب آسيا وبلاد ما بين النهرين وبلاد الشام.

وهكذا كانت لدى الصينيين بعض المعرفة بالعرب وبلادهم، إلا أن هذه المعرفة لم تكن دقيقة تماماً وكان يشوبها بعض التخيلات اللاواقعية وتغلب المصالح والآراء على توصيفها. إلا أن الصينيين كانوا يعرفون، على أية حال، أن العرب قوم يسكنون في غرب بلاد فارس، وأن الوصول إلى بلادهم يستغرق ستين يوماً بالسفر البحري إذا كانت الرياح الموسمية مناسبة، وهذا يدل على أن معرفتهم الأساسية اقتصرت على معرفة الفرس، وأن معرفتهم بالعرب ليست معرفة كاملة ومنفصلة. وذكر بعض

الكتاب الصينيين، مثل شو – جو – كوا[1]، أن العرب بنظر الصينيين كانوا "يتصفون بالقوة والشجاعة وأن لهم مكانة كبرى بين الدول المحيطة بهم"، كما أشار إلى بلاد الشام التي اعتبر بعضها من بلاد العرب فقال "إن الطقس البارد يضرب بعض مناطق العرب شتاءً بحيث تهطل الثلوج ويبلغ ارتفاعها ما بين قدمين وثلاثة أقدام"[2]. ويبدو أنه كان يشير إلى مناخ إيران وبلاد الشام وجبالها.

كان رأي العرب منذ ما قبل الإسلام أن الصينيين ليسوا من الشعوب التي كانوا يسمونها همجية، كما كان حال الأتراك أو الصقالبة (السلاف) أو الفرنجة، بل هم شعب متحضّر مبدع فنان حاذق، صاحب صناعة وتجارة، بلاده غنية ولديه كثير من المواد القابلة للتجارة مع البلدان الأخرى[3]، حتى أنهم كانوا يطلقون اسم "صيني" أو "صينية" على أي سلعة دقيقة وجميلة.

روي عن النبي أنه قال: "اطلبوا العلم ولو في الصين"، ومع أنه ليس لدينا شاهد قاطع يدل على أن هذا الكلام قد جاء على لسان النبي فليس من المستبعد أنه قد عرف اسم هذه البلاد، لأن الصلات التجارية بين بلاد العرب والصين كانت قد توطدت قبل مولده بزمنٍ طويل، فكانت حاصلات الشرق التي تتلقاها بلاد الشام وموانئ البحر الأبيض تمرّ بنسبة هائلة عن طريق البلاد العربية، وفي القرن السادس الميلادي كانت بين الصين وبلاد العرب تجارة هامة عن طريق سيلان، وفي بداية القرن السابع كانت التجارة بين الصين وبلاد فارس وبلاد العرب هي السوق الرئيسية للتجار الصينيين[4].

لاحظ العرب أن الصينيين يعبدون الأوثان، إضافةً إلى عبادة الأسلاف، فقد كان الصيني يخرّ ساجداً إذا رأى صورة الملك أو صورة آبائه، وكانوا يرون أن البوذية وما شابهها من الديانات الشرقية ما هي في الواقع سوى عبادة الأوثان. ولكنهم، بسبب بعد الصين عنهم ولأن هذه البلاد لم تدخل ضمن ممتلكات الإمبراطورية الإسلامية، لم يهتموا كثيراً بعبادات الصينيين، ولم يتبنوا الجهاد لفتح بلادهم، وكانت وثنية الصينيين

١ كان شو يعمل موظفاً في جمرك ميناء كانتون في القرن الثالث عشر الميلادي مما جعله يتلقف معلومات من أفواه التجار والبحارة المسلمين. وقد اختلطت الحقيقة بالأسطورة في بعض ما كتب.

٢ ١- حاتم الطحاوي، "صورة العرب والمسلمين في المخيلة الصينية في العصور الوسطى"، مقالات متنوعة في الإنترنيت، ٢٠٠٦.

٣ حسين العودات، **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص١٦٠.

٤ حسين عرب، "العلاقات التاريخية القديمة بين الصين والعرب"، عن الإنترنيت.

بالنهاية ليست سُبّة بنظر العرب، فقد كانوا غير مبالين تجاه الديانات الصينية رغم وثنيتها[1].

كشف القزويني في قليلٍ من السطور صورة الصين في المتخيل العربي، فقال:

> بلاد واسعة في المشرق ممتدة من الإقليم الأول إلى الثالث، عرضها أكثر من طولها، قالوا: نحو ثلاثمائة مدينة في مسافة شهرين[2]، وإنها كثيرة المياه، كثيرة الأشجار، كثيرة الخيرات وافرة الثمرات، من أحسن بلاد الله وأنزهها، وأهلها أحسن الناس صورةً، وأحذقهم بالصناعات الدقيقة، لكنهم قصار القدود عظام الرؤوس، لباسهم الحرير، وحليهم عظام الكركدن والفيل، ودينهم عبادة الأوثان، وفيهم مانوية ومجوس، ويقولون بالتناسخ، ولهم بيوت عبادات.[3]

إن التواصل العربي التجاري الكثيف مع الصين قديم جداً ويعود إلى القرن الثالث الميلادي[4]، حيث كان التجار العرب يرتادون سواحل الصين، فمن المؤكد أن تجارتهم وصلت إلى هناك. وقد استقرت العلاقات العربية الإسلامية مع الصين وانتظمت وأخذت تلعب دوراً اقتصادياً هاماً في نهايات القرن التاسع الميلادي وبدايات القرن العاشر، حيث ازداد التبادل التجاري، ودخل الإسلام إلى بعض مناطق الصين (المدن الساحلية الجنوبية والمناطق الشمالية الغربية) عن طريق شعوب الإيغور والأتراك الآخرون واستقر العرب المسلمون في بعض المناطق. وقد نمت جالية إسلامية في مدينة كانتون، وكانت هذه الجالية كبيرة إلى حد اضطرت السلطات الصينية إلى تولية رجل منهم ليحكم بينهم ويصلي فيهم في الأعياد ويخطب فيهم ويدعو لخليفة المسلمين[5]. وكانت هذه الظاهرة تشكل احتراماً لخصوصية المسلمين الصينيين لأول

---

١ **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص١٥٩.

٢ كانت المسافات تقاس أحياناً بعدد الأيام اللازمة لقطعها.

٣ القزويني، **آثار البلاد وأخبار العباد**، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠، ص٥٣؛ شمس الدين الكيلاني، **الصين في مرآة الثقافة العربية (العصر الوسيط)**.

٤ كانت تدمر في أوج ازدهارها في القرن الثالث الميلادي، وترجع الكتابات التي اكتشفت في تدمر إلى هذا التاريخ، وكانت التجارة الدولية في تدمر تتوسع حتى وصلت إلى الصين.

٥ **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص١٦٠.

مرة، وترك لهم حرية التصرف والقرار في شؤونهم الداخلية غير السياسية.

إذن، قامت علاقات بين الصينيين والعرب خلال التاريخ كانت تزدهر أحياناً وتخبو أحياناً أخرى، ففي القرن السادس الميلادي وقبل مجيء الإسلام كانت بين الصين وبلاد العرب تجارة هامة عن طريق سيلان كما أشرنا سابقاً، وفي بداية القرن السابع كانت التجارة بين الصين وبلاد فارس وبلاد العرب هي السوق الرئيسية للتجار الصينيين[١]. وقد استمرت هذه العلاقات وتطورت أيضاً بعد ظهور الإسلام، فقد جاء في كتاب أسرة تانغ القديم، الجزء الرابع، ما مفاده أنه وصل وفد عربي في السنة الثانية الشهر الثامن اليوم الخامس والعشرون من حكم الإمبراطور قاو زونغ، وهو تاريخ يقابل سنة ٦٥١م، اليوم الثاني من شهر محرم سنة ٣١هـ، في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وهذا أول تسجيل صيني رسمي للاتصالات الصينية الإسلامية العربية على مستوى السفراء (الشعبيين)، وهو يعدّ أيضاً تاريخ دخول الإسلام إلى الصين في نظر الصينيين[٢]، وقد تعددت الوفود العربية الإسلامية المرسلة إلى الصين من الحكام العرب بعد هذا التاريخ. وتشير روايات أخرى إلى وفد عربي يلبس الأردية البيضاء، ثم إلى وفد يلبس الأردية السوداء، ولم يكن المؤرخ الصيني الذي روى ذلك يدرك أن ذوي الأردية البيضاء هم موفدون من الخليفة الأموي، حيث اللون الأبيض هو شعار الأمويين، وذوي الأردية السوداء هم موفدون من الحليفة العباسي حيث اللون الأسود هو شعار الدولة العباسية[٣].

وهكذا قامت علاقات هامة بين الصينيين والعرب منذ ما قبل الإسلام، منذ أن وصل التجار العرب إلى سواحل الصين الجنوبية والشرقية، وتبادلوا البضائع مع الصينيين. وكان الصينيون يتعاملون مع التجار العرب مطبّقين معايير العدالة واحترام حقوق الآخر وعدم استغلاله والحرص على المصالح المشتركة للطرفين[٤]. وكان من سياسة

---

١ "العلاقات التاريخية القديمة بين الصين والعرب"، مصدر سابق.

٢ المصدر السابق.

٣ يقول شو- هو- كوا: "وصل رسل العرب المسلمين إلى القصر الملكي لأسرة تانغ الملكية (٦٥٠-٦٥١م) من أجل تقديم الهدايا"، ثم تحدث بعد ذلك عن وصول رسل للعرب إلى البلاط الصيني، حيث دعاهم "العرب أصحاب الرداء الأبيض"، كما رصد وصول رسل وسفراء عرب بعد ذلك بعقود عدة ودعاهم "العرب أصحاب الرداء الأسود".

٤ **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص١٥٨.

الأسر الصينية الحاكمة تشجيع التجار الأجانب للقدوم إلى الصين باعتبارهم يجلبون بضائع أجنبية لبيعها في أسواقها ويدفعون الرسوم، والأهم أنهم يعودون إلى بلادهم محمّلين بالبضائع الصينية. وزادت الرحلات المتبادلة بين الصينيين والعرب بعد دخول الجمل إلى الصين. وكانت صادرات الصين الرئيسة إلى البلدان العربية هي الحرير والمنسوجات والأواني الصينية، كما ضمّت صادرات الفرس والعرب إلى الصين العطور والبخور والأحجار الكريمة والعقاقير الطبية والفواكه، لذلك سمي الطريق بين المنطقتين "طريق الحرير البري" أو "طريق العطور البري". وكان يرافق هذه النشاطات التجارية تبادل ثقافي وفني، إذ دخلت فنون الطرب وأدوات العزف والرسم والموسيقى إلى الصين من بلاد الفرس والعرب عبر طريق الحرير البري، ودخلت الديانة البوذية إلى الصين من الهند عن طريق آسيا الوسطى[1].

وعندما أصبحت الإمبراطورية العربية تمتد في آسيا وأفريقيا وأوروبا وتتحكم بعقدة المواصلات العالمية وتصهر الحضارات الشرقية والغربية في بوتقة واحدة، كانت تنظر بإعجاب إلى الصين التي تقع في الشرق وتتميز بحضارتها القديمة وتاريخها العريق. وقد قال الخليفة العباسي المنصور عندما اتّخذ بغداد عاصمةً له عام ٧٦٢م: "هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شيء، يأتينا فيها كل من في البحر"[2]. وكانت الحكومة الإمبراطورية الصينية تعامل من يأتي إلى الصين من بلاد العرب من رسل وتجار معاملةً حسنة وتقابل ما يعتنقونه من ديانات بالاحترام التام[3].

أصبح العرب، بسبب التجار والرحالة والجغرافيين، مطّلعين على الحياة الاقتصادية للصينيين (الصناعة وفنونها وأنواعها، المواد الخام الفائضة لدى الصينيين، المواد المصنّعة القابلة للتصدير، حذاقة الصينيين وإتقانهم مهنتهم... إلخ) ومطّلعين كذلك على حياتهم الاجتماعية (العلاقات الاجتماعية، العلاقة مع الأسرة المالكة، طقوس الزواج، مفهوم الأسرة ودور المرأة، العلاقات الزوجية... إلخ) كما كانوا يحيطون بالحياة اليومية للصينيين وخاصة ما يتعلق بطعامهم (يأكلون الأرز واللحم، يطهون اللحم... إلخ). ولعل معرفتهم بهذه الجوانب الاقتصادية والاجتماعية وبحياتهم

١ طالب بن محفوظ، "العرب والصين علاقات تاريخية قديمة"، الإنترنيت.
٢ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج١٠، دار سويدان، بيروت.
٣ "العلاقات التاريخية القديمة بين الصين والعرب"، مصدر سابق.

اليومية سهّلت فهم العرب للصينيين والتآلف معهم وأبقتهم في دائرة الشعوب المحترمة لدى العرب[1].

حصل صدام عسكري بين الصين والعرب عام ٧٥١م في إقليم تالاس الواقع بين طشقند وبحيرة بلخاش وإقليم آلما آتا في آسيا الوسطى، حيث تقاتل جيش القائد الصيني تاو شيان تشي والجيش العربي في تالاس، وهُزم الجيش الصيني وأُسر عدد كبير من الجنود الصينيين في المعركة، وتعدُّ معركة تالاس التصادم العسكري الصيني العربي الوحيد.

كانت العلاقات الثقافية العربية الصينية هامة ومؤثرة، وتأثرت بالصدام العسكري، إذ انتقلت صناعة الورق بعد المعركة السابقة من الصين إلى آسيا الوسطى، ومنها إلى ما بين النهرين ثم إلى قارة أوروبا. كما وظهرت لأول مرة كتابة صينية تتحدث بالتفاصيل عن الدين الإسلامي وحياة المسلمين في البلاد العربية. وكان بين الأسرى مثقف صيني كبير اسمه دو هوان، مكث في البلاد العربية ١٢ سنة بعد المعركة، تجول خلالها في أقاليم آسيا الوسطى والعراق والجزيرة العربية، وعاد إلى الصين في سنة ٧٦٣م عن طريق البحر من الخليج العربي إلى مدينة كانتون في جنوب الصين، ودوَّن بعد العودة مشاهداته وانطباعاته في كتاب **مشاهدات في الرحلات**، ووصف بكل دقة وصدق الدين الإسلامي وحياة المسلمين وعبادتهم لله وحده والصلوات الخمس يومياً وصلاة الجمعة وخطبة الإمام وتحريم الخمور ولحم الخنزير وأنواع العقوبات على المجرمين. وكتابه هو أول كتاب صيني يتحدث عن الإسلام والمسلمين، وصار مصدراً مهماً لدراسات تاريخ الإسلام في الصين.

الصين والإسلام

وصل الإسلام إلى الصين عن طريق محورين:

المحور البري: جاء إليها من الغرب، وتمثل في فتح تركستان الشرقية في العصر الأموي، في منطقة كاشغر. وقبل أن ينتهي القرن الهجري الأول وصلت غزوات قتيبة

[1] **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص١٥٩.

بن مسلم الباهلي الحدود الغربية للصين. وعلى الرغم من أن الفتوحات الإسلامية لم تتوغل في أرض الصين، إلا أن طريق القوافل بين غرب آسيا والصين كان له أثره في انتشار الإسلام عن طريق التجّار في غربي الصين، ولقد عُرف هذا بطريق الحرير. كما كان لمجاورة الإسلام في منطقة تركستان بوسط آسيا للحدود الغربية للصين أثره في بثّ الدعوة الإسلامية في غربي البلاد.

المحور البحري: وقد تمثل في حمل الإسلام إلى شرقي الصين، ففي نهاية عصر الخلفاء الراشدين، في عهد عثمان بن عفان، وصل مبعوث مسلم إلى الصين، ثم توالت البعثات الإسلامية على الصين حتى بلغت ٢٨ بعثة في الفترة بين سنتي (٣١هـ - ٦٥١ م) و(١٨٤هـ - ٨٠٠ م)، وتوالت على الصين عبر هذا المحور البحري البعثات الدبلوماسية والتجارية وأخذ الإسلام ينتشر عبر الصين من مراكز ساحلية نحو الداخل. وتوجد عشر قوميات في الصين الآن تدين بالإسلام هي: الإيغور والقازاق والأوزبك والطاجيك والتتار وهوي وسالار ودونغ وشيانغ وياوان[١].

تحدث شو- جو- كوا بأفكار مشوشة مختلطة بتراثه الديني البوذي عن ديانة العرب الذين اعتقد بأنهم شعب فارسي، فسمحت له معلوماته المضطربة بأن يذكر أنه خلال الأعوام ٦٠٥ - ٦١٧م (كانت الهجرة النبوية عام ٦١٠م وتوفي الرسول سنة ٦٣٢م) عاش رجل في الجزيرة العربية يتّصف بالحكمة البالغة، حيث وجد حجراً يحمل نقوشاً فاحتفظ به كتميمة لجلب الحظ، ثم قام بالدعوة بين الناس، وأخذ بتسليح رجاله وتابعيه الذين ازداد عددهم تدريجاً، الأمر الذي مكّنه من جعل نفسه ملكاً، حيث تمكّن من احتلال غرب الجزيرة العربية[٢]. ولعل هذه الرواية تؤكّد أن معلومات الصينيين عن الإسلام تشوبها الخرافة، حيث الحجر الأسود لجلب الحظ، والنبي ملكاً، ودخول سكان الجزيرة في الإسلام هو احتلال. وقد نسجت قصة خيالية أكثر عن الإسلام وعن النبي محمد.

ولم يستطع المؤرخ إغفال مدينة مكة ودورها الكبير في حياة المسلمين، غير أنّ معلوماته جاءت ملتبسة وأسطورية، فذكر أنها المدينة التي ولد فيها نبي المسلمين،

١ "الإسلام في الصين"، موسوعة الويكيبيديا.
٢ "صورة العرب والمسلمين في المخيلة الصينية"، مصدر سابق.

وأنه في كل عام يقام احتفال بالذكرى السنوية لوفاته حيث يحتشد الناس من جميع البلاد الإسلامية في مكة ويتسابق كل منهم في تقديم هداياه المصنوعة من الذهب والجواهر والأحجار الكريمة، وبعد ذلك يتم تزيين "البيت" من جديد بالأقمشة الحريرية... وهكذا يمكننا أن نلحظ بسهولة عدم إدراك المؤرخ الصيني لركن الحج لدى المسلمين (فاعتبره احتفالاً بالذكرى السنوية لوفاة النبي)، كذلك لم يدرك مكانة مكة (واعتبرها المدينة التي ولد فيها نبي المسلمين) ولم يدرك معنى الكعبة لديهم، كما لم يعرف تقليد تجديد كسوة الكعبة سنوياً قبل موسم الحج (فاعتبره تزييناً للبيت بالأقمشة الحريرية، وليس تجديداً لكسوة الكعبة المشرّفة).

دخل الإسلام الصين عن طريق التجارة لا الغزو العسكري، ونجد أخباراً كثيرة عن النشاطات التجارية العربية الإسلامية في الكتابات الصينية الرسمية إلى جانب القصص والروايات الشعبية والأخبار الواردة في كتب التاريخ والجغرافيا العربية وكتب الرحلات. ومن هذه النشاطات نستنتج ما يأتي:

أولاً: كان عدد التجار العرب في الصين كبيراً، حتى وصل هذا العدد وعدد المسلمين الصينيين إلى آلاف أو عشرات الآلاف في بعض مدنها (مدينة كانتون مثلاً).

ثانياً: كانوا يتمتعون بالثراء الواسع حتى عُيّنوا في المناصب الرسمية المرموقة بسبب ثرواتهم الضخمة، وترتّب على ذلك أمران كبيران لم يكونا في حسبان هؤلاء العرب الذين وصلوا إلى الصين للتجارة:

١- نشر الدين الإسلامي في الصين.

٢- مزج الثقافة العربية والثقافة الصينية وتهيئة الشروط المناسبة لتأثير كل منهما في الأخرى.

كان التجار العرب المسلمون يتجمعون في المدن الكبيرة بالصين، حتى تكونت أحياء إسلامية فيها، وكان لهم نظام إداري خاص بهم بمعرفة حكومة الصين التي كانت تختار من بينهم رجلاً صالحاً لتعيّنه رئيساً عليهم يتولّى شؤون الرقابة والقضاء والأمن داخل الحي ويساعد الحكومة على جباية الضرائب التي كانت تشكّل إيراداً كبيراً في خزانة الصين. وكان التجار المسلمون يبنون مساجد في أحيائهم، لذلك نجد أن أقدم مساجد بنيت في الصين هي المساجد التي بنيت في المدن التجارية الكبيرة.

كان التجار العرب يتحدثون باللغة العربية في البيوت وأثناء أداء الفرائض الدينية بالمساجد، ويتكلمون اللغة الصينية في السوق والمجتمع، ويدرس أولادهم اللغة العربية وعلوم الدين الإسلامي في البيت أو في المدرسة الصغيرة الملحقة بالمسجد، ويتعلمون اللغة الصينية وعلومها وثقافتها في المدارس الرسمية. وكانوا الأوائل الذين مزجوا الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الصينية التي قوامها المذهب الكونفوشيوسي، وذلك دون وعي منهم، وتوسّعت هذه الظاهرة توسعاً كبيراً بعد غزو المغول للعالم وجلوسهم على عرش الصين[1].

أدرج المؤرخ تو يو في موسوعته **تونغ تيين**، التي قدّمها إلى البلاط الإمبراطوري عام ٨٠١م، قصة الأسير الصيني تو هوان الذي أشرت إلى قصته قبل قليل والذي وقع في أيدي العرب بعد معركة تالاس بين القوات العربية والصينية عام ٧٥١ ونُقل سجيناً إلى العراق حيث بقي في الكوفة إلى أن سُمح له بالعودة إلى الصين عام ٧٦٢. ويقول تو يو، على لسان الأسير العائد، إن الرجال في الإقاليم التي يعيش العرب فيها ذوو أنوف كبيرة ولحى سوداء وشعر غزير على وجوههم مثل الهنود، ويحملون خناجر من فضة ويضعون أحزمةً فضية، ولا يحتسون الخمر ولا يعرفون الموسيقى، نساؤهم بيضاوات البشرة ويغطين وجوههن عندما يغادرن بيوتهن بغضّ النظر عن رفعة مرتبتهن الاجتماعية أو ضِعتها. وعندما يتشاجر الناس لا يوجّهون لكمات إلى بعضهم البعض. ولديهم معابد عظيمة تتّسع لآلاف المصلين. وفي كل سابع يوم من الأسبوع يتوجّه الملك بخطاب إلى رعاياه من عرشه العالي في المعبد (من الواضح أن المؤلف يشير إلى خطبة يوم الجمعة وإلى منبر المسجد العالي) بالكلمات الآتية: "حياة البشر صعبة جداً وليس سلوك الطريق القويم بسهل، والحقيقة خطيئة. وما من إثم أكبر من السرقة والنهب وخداع الناس بالكلمات، وأن يعرض المرء حياة الآخرين للخطر في سبيل أن ينعم هو بالأمان، وغش الفقراء واضطهاد الضعفاء. وأولئك الذين ماتوا بأيدي الأعداء (أعداء الإسلام) سيحيون مجدداً في الجنة، أما أولئك الذين هزموا العدو فسينعمون بالسعادة". ويرى المؤرخ أن هذا (أي الوعد بالجنة) هو سبب براعة "التازيين" (أي

---

[1] "العلاقات التاريخية القديمة بين الصينيين والعرب"، مصدر سابق.

العرب) في الحرب. وهم يصلّون خمس مرات للروح السماوية[1]. ومن البديهي القول إن هذه "الكلمات" التي أشار إليها الأسير هي خطبة الجمعة، وخطبة الجمعة متغيرة وتتناول كل أسبوع موضوعاً أو مواضيع مختلفة، وقد أوحى الأسير وكأنّ هذه الخطبة هي نفسها ثابتة لا تتغير.

أما عن ظهور الإسلام فيقول المؤرّخ الصيني إنه أثناء حكم سلالة سوي (عام ٦١٠م) كان رجلٌ من فارس (كان المؤرخون الصينيون يعتقدون أن العرب والفرس شعب واحد) يرعى قطيعه في جبال موتينا (المدينة المنورة) وظهر أسد وقال له: "في الجانب الغربي من الجبل الكثير الحفر، في واحدة منها سيف وقربه حجر أسود وكتابة باللون الأبيض، من يمتلكها يصبح حاكماً. ذهب الرجل وعثر على الأشياء كما وصفها الأسد، وأعلن نفسه حاكماً للحدود الغربية (الحجاز) وتغلّب على كل من واجهه، وفتح فارس وفولين (الإمبراطورية البيزنطية) واستولى في الجنوب على بولو (من بلاد البراهمة أو الهند) وغيرها من البلدان. وكان لديه ٤٠٠ ألف جندي، ودفعت مقاطعتا كانغ (سمرقند) وشي الجزية له، وشملت أراضيه عشرة آلاف لي، وبلغت تو كي شي (أراضي القبائل التركية) شرقاً، ومن الجنوب كان يحدّها البحر"[2]. تبدو الأسطورة هنا واضحة حول الإسلام والنبي محمد ومملوءة بالخيال، ولكنها أكثر واقعيةً فيما يتعلق بالفتوحات.

تقول الروايات الصينية (على لسان الموفدين العرب الذين لم تنقطع وفادتهم إلى الصين): إن قبيلة قريش كان يحكمها زعماء يتوارثون مناصبهم، والمعني بني أمية. وقد انقسمت قريش إلى أسرتين هما بني مروان وبني هاشم. وظهر رجل حكيم وحاذق يدعى محمداً اختاره الناس ليكون حاكماً. (لم يتصور الصينيون في رواياتهم وتخيلاتهم أنه نبي، وكانت الديانات السماوية بعيدة عنهم، وغالباً لم يسمعوا بها، وعليه فالحاكم هو الأساس والقوي وليس النبي). ووسّع "موهومو" (أي محمد) ممتلكاته إلى ثلاثة آلاف لي وفتح مدينة الحيرة (فتحت الحيرة في زمن الخلفاء الراشدين). وكان الحاكم الرابع عشر هو "مو هوان" (الخليفة الأموي مروان الثاني) الذي قتل أخاه "بي كي" واستولى على العرش. وكان شديد القسوة وانفصل عنه أتباعه

١ حسام عيتاني، **الفتوحات العربية في روايات المغلوبين**، مصدر سابق، ص١٦٩.
٢ المصدر السابق، ص١٦٩-١٧٠.

تباعاً. وظهر شخص يدعى "هو لو شان" من "مو لو" (خراسان) وتحالف مع "بو سي لين" (أبو مسلم الخراساني) للإطاحة ب"مو هو لان". وأعلنا للناس أن على كل من يؤيدهما ارتداء الثياب السود (شعار العباسيين). ومن هنا جاء اسم أتباعهما "هي بي تا شي" (التازي بالرداء الأسود). (وكان الفرس يطلقون اسم "تازي" على العرب، وأول من أطلقه هم البيزنطيون).

في عام ٧٥٦م أوفد الملك بعثةً إلى الصين، واستعاد الإمبراطور بمساعدة جيش الخليفة عاصمتَي الصين (يشير المؤرخ الصيني هنا إلى المعركة الكبرى التي وقعت قرب العاصمة الغربية تشانغ آن ضد المتمردين على الإمبراطور الصيني عام ٧٥٧م. وكانت العاصمة الشرقية في ذلك الحين هي لو بانغ)[١].

ومنذ ظهور الإسلام بات العرب موجودين على الساحة العالمية، وقد ذكرتهم حوليات صينية تعود إلى أسرة تانغ التي حكمت الصين بين ٦١٨م و٩٠٧م، وجاء فيها أن دولة التازيين سيطرت على الأراضي التي كانت تملكها "بو سو"[٢].

توفّر سجّلات سياسة أسرة تانغ التي حكمت الصين بين القرنين السابع والتاسع "مادةً غنية عن التحركات العربية على الجبهة الشرقية وتقدّم نظرةً إلى أحداث إيران من زاوية مختلفة جداً عن السرديات المعروفة، وتضع انهيار الإمبراطورية الساسانية في مسار الحروب التي كانت تخوضها ضد الغزاة الأتراك الآتين من الشرق والذين شكّلوا عدواً مشتركاً للصين وإيران في الفترة السابقة للفتح".

وتقول تلك السجّلات إنّ الصينيين، أثناء حكم سلالة تانغ، كانوا قد عرفوا بوجود دولة الخلافة التي كانوا يدعونها "تاشي كوو". و"تاشي" هي اللفظ الصيني لكلمة "تازي" التي كان الإيرانيون يشيرون بها إلى العرب وكذلك البيزنطيون.

وعن صورة العرب لدى الصينيين بعد مجيء الإسلام يقول الطبري على لسان مندوب فارس من قبل الملك يزدجرد ملك الفرس، الذي أوفده بعد هزيمته في معركة "نهوند" مبعوثاً إلى إمبراطور الصين، وعندما عاد سألوه عمّا رآه فسرد لهم حوار الإمبراطور معه، الذي تضمّن تعريف المبعوث بحال العرب المسلمين وتعليق الإمبراطور على

---

١ المصدر السابق، ص١٧١.
٢ المصدر السابق، ص١٦٨.

ذلك، فوضع هذا السرد القارئ أمام مقاربات حضارية جعلت إمبراطور الصين يقرّ بتفوق العرب المسلمين. وجاء في هذا الحوار على لسان المبعوث الفارسي ما يلي:

> لما قدمت على ملك الصين بالكتاب والهدايا، فأتانا بما ترون (بهدايا مماثلة) ثم قال لي: قد عرفت أنّ حقاً على الملك إنجاد الملك على من غلبهم، فصف لي هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فإني أراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذي تصف منكم، فيما أسمع من كثرتكم، إلاّ بخير عندهم وشرّ فيكم، فقلت: سلني عمّا أحببت. فقال: أيوفون العهد؟ قلت: نعم، قال: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلونكم؟ قلت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث: إما دينهم، فإن أجبناهم أجرونا مجراهم، أو الجزية والمنعة أو المنابذة، قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قال: أطوع قوم لمرشدهم، قال: ما يحلّون وما يحرّمون؟ فأخبرته فقال: أيحرّمون ما أُحلّ لهم و يحلّلون ما حرّم عليهم؟ قلت: لا. قال: هؤلاء قومٌ لا يهلكون أبداً[١].

وكتب إمبراطور الصين إلى يزدجرد يخبره أنه "لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين، ولكن هؤلاء الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون هدّ الجبال لهدّوها، ولو خُلّي بيني وبينهم لأزالوني ما داموا على ما وصف"[٢].

وتختزن رحلة وهب بن الأسود القرشي إلى إمبراطور الصين كثافة من الرموز والدلالات، فكل حادث أو جملة حوارية فيها مغزى يتعلق بحوادث الحضارات والتفاضل فيما بينها. لقد رحل القرشي من البصرة بعد ثورة الزنج، واجتاز البحور حتى وصل ميناء خانفو (وكانت "خمدان" التي ذكرها المسعودي والإدريسي وابن سعيد المغربي، وأطلق عليها ابن بطوطة اسم "الزيتون"، عاصمة الصين في القرن التاسع الميلادي، ولعلها "سينانفو" حالياً)، والتمس القرشي مقابلة الملك في خمدان، ومما له مغزاه ادّعاؤه "أنه من أهل بيت نبوة العرب"، فاهتمّ الملك بأمره لهذا السبب،

---

١ من الواضح أن هذا السرد صيغ بمنطق عربي غالب، لا بمنطق عدو مغلوب.

٢ شمس الدين الكيلاني، **الصين في مرآة الثقافة العربية**؛ الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، دار المعارف، القاهرة، ج٤، ص١٦٧.

فاستضافه في إحدى المساكن. لكن قبل أن يسمح بمقابلته أمر عامله في خانفو التقصّي عن صحة نسبه إلى النبي من التجار العرب المقيمين في المدينة (فكتب صاحب خانفو بصحة نسبه، فأذن له ووصله بمال واسع). وهذا يعكس تصور العرب بأن نبيهم له مكانته الرفيعة في نظر أباطرة الصين ورعيتهم، ولقد تأكدت للقرشي هذه الحقيقة، فضلاً عن تقديرهم مكانة ملوك العرب لديهم، عندما قابل الملك. ففي هذه المقابلة سأله الملك عن العرب، وكيف أزالوا ملك العجم، فأجابه: "بالله جلّ ذكره، وبما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس والقمر من دون الله"، فسأله مرة أخرى: "فما منزلة سائر الملوك عندكم؟ فأجاب القرشي: "ما لي علم بذلك". عندها قال له الملك رافعاً من مكانة العرب إلى مصافّ الأمة الأولى بين الأمم في علوّ المكانة، وباعتراف ملوك العالم بذلك، بينما وضع الصين وملكها في المرتبة الثانية، ووضع لكلّ أمة خصائصها وفضائلها المميزة، وجاء في قوله:

> إنا نعدّ الملوك خمسة، فأوسعهم ملكاً الذي بملك العراق، لأنه في وسط الدنيا، والملوك محدقة به، ونجد اسمه عندنا ملك الملوك، وبعده ملكنا هذا عندنا ملك الناس، لأنه لا أحد من الملوك أسوس منه ولا أضبط لملكه من ضبطنا لملكنا، ولا رعية من الرعايا أطوع لملوكها من رعيتنا، فنحن ملوك الناس، ومن بعدنا ملك السباع، وهو ملك الترك الذي يلينا، وبعدهم ملك الفيلة، وهو ملك الهند، ونجده عندنا ملك الحكمة لأن أصلها منهم، وبعده ملك الروم، وهو عندنا ملك الرجال، لأنه ليس في الأرض أتمّ خلقاً من رجاله ولا أحسن وجوهاً، فهؤلاء أعيان الملوك، والباقون دونهم[1].

وهكذا فإن ملك العرب عند الصينيين هو أعظم الملوك وأكثرهم مالاً وأبهاهم جمالاً، وهو ملك الدين الكبير (يقصد هنا الإسلام) الذي ليس فوقه شيء، ثم يعدّ ملك الصين نفسه بعد ملك العرب، ثم ملك الروم، ثم بلهر (أي ملك الهند)[2].

---

١ **الصين في مرآة الثقافة العربية**، مصدر سابق.
٢ المصدر السابق.

الفصل السادس

ثأر الأفارقة لعبوديتهم

تعود بداية العلاقات العربية الأفريقية إلى فترة ما قبل الإسلام، فقد كان العالم القديم يخضع لثلاث إمبراطوريات كبرى هي: الرومانية (البيزنطية) والفارسية والحبشية، وكانت هذه الإمبراطوريات الثلاث تهيمن على بلدان ذاك العالم، إما باستعمارها استعماراً مباشراً أو بالهيمنة الاقتصادية أو الثقافية أو السياسية عليها، بحكم توفر الشروط اللازمة، سواء للاستعمار أم للهيمنة.

كانت مملكة "أكسوم" الحبشية مملكة قوية سياسياً واقتصادياً، وقد بدأ صعودها في القرن الرابع الميلادي، وبلغت نضوج قوتها في مطلع القرن السادس الميلادي، وبدأت مرحلة من التوسع شمالاً حتى وصل نفوذها إلى بلاد النوبة، ثم تطلعت إلى احتلال الشاطئ الشرقي الجنوبي من البحر الأحمر، أي بلاد اليمن، ذات الأهمية الاستراتيجية جغرافياً واقتصادياً باعتبارها الطريق الرئيسة لمرور تجارة آسيا إلى أوروبا، فكانت تشكّل معبراً لبضائع الخليج والهند والصين المتجهة إلى بيزنطة. وكان البيزنطيون يهيمنون على شمال البحر الأحمر بينما يهيمن الفرس على تجارة الخليج والمحيط الهندي والطريق البري العابر لوسط آسيا، فرأى القادة الأحباش برئاسة أبرهة إمكانية إيجاد طريق تجاري جديد يمتد من صنعاء إلى مكة إلى دمشق، وكان ذلك يقتضي الهيمنة على اليمن، مما يساعد الأحباش على مشاركة الإمبراطوريتين السابقتين في التجارة العالمية. وجاءت الفرصة بعد أن أحرق ذو نواس ملك حميَر المسيحيين في نجران، تلك الحادثة التي وصفها القرآن بقوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ (البروج ٤-٧). لقد كان الأحباش مسيحيين، فشجّعهم البيزنطيّون على احتلال اليمن ثأراً لمسيحييها وإضعافاً للفرس، ولأن ذلك في الواقع يفيد البيزنطيين في صراعهم مع الفرس، فوجّه أبرهة أسطوله إلى اليمن وهزم ذا نواس وأتبع بلاد اليمن إلى مملكة أكسوم.

بعد غزو الجيوش الحبشية الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية تنصّرت مجموعات كبيرة من السكان العرب في هذه البلاد، واستغلت السياسة الأثيوبية الدين

المسيحي فيما بعد لتتصرف كأنها مالكة للبلاد، ونقل أبرهة عاصمة اليمن من ظفار إلى صنعاء. ولمّا استقرّ له الأمر فكّر باحتلال مكة لما لها من أهمية كمركز تجاري ومركز ديني (كانت مكة مركزاً دينياً قبل الإسلام لما تحتوي من أوثان حيث كان لكل قبيلة عربية وثن أو أكثر في الكعبة). وقد ساعدت أو ساهمت هذه الجيوش (الحبشية) في بناء الكنائس والأديرة في صنعاء (وفي مدن اليمن عامةً) لتحقيق هذا الهدف، ونشّطت الثقافة المسيحية وعلاقاتها الثقافية مع سكان جنوب الجزيرة العربية.

قام أبرهة ببناء كنيسة في عاصمة ملكه صنعاء لصرف أنظار العرب عن مكة التي يطوفون بها ويحجّون إليها ويحوّل حجّهم إلى صنعاء فيضمن تحويلهم إلى المسيحية، ولذلك ابتنى كنيسة صنعاء التي سمّاها "القليس" ونقل إليها بعض آثار شهداء نجران الذين أحرقهم ذو نواس، وأصدر مراسيم تقضي بوجوب حج العرب إليها حتى لو ألزمهم على ذلك. ولكن مشروعه هذا فشل بسبب عراقة مكة كمركز ديني، ووجود قريش الهام والمؤثر والقيادي بين العرب، ودورها (أي قريش) في التجارة إلى الشام (رحلة الشتاء والصيف) التي كانت تلعب دوراً في اقتصاديات شبه الجزيرة وقبائلها، ولم يكن بالإمكان نجاح هذه التجارة لولا دور قريش البشري والتاريخي وموضعها الجغرافي. فعزم أبرهة على القيام بمهاجمة مكة ومحاولة هدم الكعبة، كي تحلّ صنعاء محلها ولبسط نفوذه السياسي وتحقيق الرخاء الاقتصادي لبلاده، وكان ذلك في عام (٥٧٠م)، ولكنّ هذه الحملة فشلت بدورها ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ (سورة الفيل) ومات أبرهة وانتشرت الاضطرابات، وذهب سيف بن ذي يزن ملك اليمن الذي كان تحت هيمنة الحكم الحبشي إلى الإمبراطور البيزنطي يرجو عونه لطرد الأحباش من اليمن مقابل أن يتعهّد هو نفسه بحماية المصالح البيزنطية في المنطقة، ولكنّ الإمبراطور البيزنطي لم يشأ أن يمدّ له يد العون، فتوجّه سيف بن ذي يزن إلى طلب عون كسرى أنوشروان، الإمبراطور الفارسي المعادي التقليدي للسياسة البيزنطية، فأمدّه بقوه عسكرية قضت على الأحباش باليمن وثبتت ملكية سيف مقابل جزية سنوية. وبعد مقتل سيف بن ذي يزن احتلت فارس اليمن وضمّتها إلى دائرة نفوذها، واستمرّت لفارس السيادة عليها حتى ظهور الإسلام

ودخول اليمن وشبه الجزيرة العربية تحت السيادة الإسلامية. وقُدِّر لفارس بذلك أن تكسب الجولة قبل الأخيرة من جولات الصراع بينها وبين بيزنطة حول شبه الجزيرة العربية، بعد سباق طويل للسيادة عليها اقتصاديا وسياسياً، حيث اغتنمت فارس الفرصة واستولت عسكرياً على كل ساحل الجنوب الغربي لتصبح هذه المنطقة واقعة تحت السيادة الفارسية، إلا أن ذلك لم يُقدَّر له أن يستمر طويلاً بفضل الفتح الإسلامي لليمن[١].

كان إمبراطور الحبشة من أعظم الملوك والقادة في شرق أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية، ودائماً ما كانت هذه المناطق تحسب له ولجيوشه ألف حساب. وفي السنوات الأولى لنزول الإسلام هاجر بعض المسلمين بموافقة النبي وبأمرٍ منه إلى الحبشة لمقابلة إمبراطورها والاحتماء به، وقد حمى الإمبراطور (النجاشي) المسلمين وطرد مشركي قريش الذين تواجدوا في بلاده وفي قصره في الآن نفسه وتمنّوا عليه طرد المسلمين. ويقال إن المسلمين الذين قابلوه قرأوا عليه بعضاً من سورة مريم، فأدرك أنّ دينهم الجديد قريب من الديانة المسيحية على عكس ديانة قريش الوثنية[٢].

لم يدم حكم الأحباش لليمن أكثر من حوالي خمسين عاماً فقط، قامت خلالها العديد من المحاولات للتخلص من حكمهم إلا أنها لم تنجح، إلى أن تمكّن سيف بن ذي يزن بمساعدة الفرس من القضاء على هذا الحكم. وكان الفرس يأملون تحقيق حلمهم في الاستيلاء على جنوب الجزيرة العربية والطرق التجارية في البحر الأحمر والقضاء على نفوذ البيزنطيين السياسي، ولذلك أرسل كسرى جيشاً تمكّن من القضاء على الأحباش في اليمن، كما أشرت قبل قليل، وأعادها لحكم سيف بن ذي يزن (٥٧٥م) وأبقى عدداً من الفرس العسكريين والمستشارين يساعدونه في الحكم، ثم بعد مقتل سيف تولّى الفرس حكم اليمن مباشرةً وحوّلوها إلى ولاية فارسية. وقد استمر حكمهم لليمن حتى عمّ الإسلام الجزيرة العربية وأسلم حاكمها الفارسي بازان

١ المهلهل، "الصراع الدولي حول شبه الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي"، شبكة منتديات قدماء، ٢٠١٢.

٢ تشرح الأدبيات الإسلامية وكتب التاريخ والسيرة وغيرها بالتفصيل الهجرة إلى الحبشة ومقابلة المهاجرين الإمبراطور وحوارهم إياه وغير ذلك.

في سنة ٦٢٨م[1]. وكان الحكم الحبشي لجزء من الجزيرة العربية هو أول وآخر حكم أفريقي لها.

عرف العرب نوعين من الأفارقة السود قبل الإسلام، أولهما الأحباش، من خلال احتلالهم اليمن ومحاولة احتلال مكة، وثانيهما الرقيق الأسود، الذي كان متواجداً في الجزيرة العربية. وقد عرف العرب الأحباش – حسب الجاحظ – طيلة عشرات السنين بعد ظهور الإسلام، أي عرفوهم غزاة وفاتحين وحكاماً، كما عرفوا الأفارقة عبيداً يتباهون بالاحتلال الحبشي لجنوب الجزيرة ووصولهم إلى مكة. وقد قال الجاحظ في رسائله **فخر السودان على البيضان** إن الأحباش كانوا يرددون فخورين: "ونحن قد ملكنا بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة، وجرت أحكامنا في ذلك أجمع، وهزمنا ذا نواس، وقتلنا أقيال حمير، وأنتم لم تملكوا بلادنا"[2].

لقد تواصل العرب مع الأحباش قبل الإسلام وعرفوهم معرفةً جيدة، كما عرفوا الرقيق الأسود، الحبشي وغير الحبشي، الذي كان يشكّل فئةً كبيرة العدد في الجزيرة وفي الحجاز خاصةً. وكانت صورة العرق الأسود في ثقافة العرب هي أنهم مجموعة تقع في أسفل السلم الاجتماعي ولا تصلح إلا لكي تكون رقيقاً، وكان العرب لا يحترمونهم ولا يثقون بهم وينظرون إليهم نظرةً عنصرية واضحة لا لبس فيها[3].

لم تقتصر العلاقات بين شرق أفريقيا وغرب الجزيرة العربية على الهيمنة الحبشية العسكرية أو السياسية، وإنما طاولت العلاقات الاقتصادية المتبادلة، ولم يكن البحر الأحمر يوماً مانعاً للتواصل بين سكان ضفتيه. وكان من هذه العلاقات الاقتصادية أن بعض شيوخ القبائل الأفارقة كانوا يبيعون الرقيق للعرب في جزيرتهم، وكان انتشار هذا الرقيق واسعاً حتى صار يشكّل شريحة مهمة من المجتمع، وبدا ذلك واضحاً من خلال بروز شخصيات هامة من هؤلاء العبيد الذين لعبوا دوراً في نشر الدين الإسلامي فيما بعد، وتحمّلوا الأعباء بسببه وخاضوا حروبه، كما بدا من خلال الآيات القرآنية العديدة والتعاليم التي جاء بها الإسلام والمتعلقة بالعبودية، مما يدل على أن العبودية كانت منتشرة في المجتمع وتشكّل شاغلاً من شواغله وتتطلب موقفاً واضحاً منها. وعلى أية

١ موسوعة ويكيبيديا.
٢ **رسائل الجاحظ**، ج١، ص١٣٧؛ **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص١٩٤.
٣ **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص١٩٥.

حال كانت العلاقات العربية الأفريقية قبل الإسلام مزدهرة وواسعة، ثم ازدادت اتساعاً بعد الإسلام، الذي وضع منهجاً جديداً وأسلوباً للتعامل مع الرقيق. ويبدو أن العرب لم يمارسوا قبل الإسلام تجارة الرقيق بشكل واسع ومؤسسي وعلى شكل جماعي وتعاملوا مع الرقيق الذي بيع في المنطقة العربية تعاملاً فيه شيء من العطف والرحمة من حيث السلوك، وقد غيّرت تعاليم الإسلام واقع الأرقاء وعلاقاتهم مع مالكيهم ومع الآخرين تغييراً جذرياً، فلم يعودوا يعيشون بعد الإسلام في جو من "الكبت والقهر والاستغلال البشع" بل كانت الساحة العربية مفتوحة لذوي المواهب والكفاءات منهم، فضلاً عن أن تعاليم الإسلام شجعت على تحرير الرقيق[1]. ويذكر التاريخ العربي الإسلامي بفخر أخبار كثير منهم أو من أبنائهم أنهم بعد أن تحرروا وصلوا إلى مراتب اجتماعية وعسكرية عالية كأسامة بن زيد (وكان أبوه رقيقاً) الذي قاد جيوش المسلمين بجدارة رغم صغر سنه، وقد كلفه النبي ثم أبو بكر بقيادة الجيش الذاهب للفتح في الشام، والإمام نافع أحد أهم مرجع في القراءات، ورابعة العدوية وهي آية في النسك والزهد، وقطب الدين أيبك مؤسس دولة إسلامية ومجد الإسلام في الهند، وأبو عثمان الجاحظ عالم الأدب والبيان، فضلاً عن المماليك، أولئك العبيد (غير السود) الذين صدّوا المغول في عين جالوت ثم طردوا الصليبيين، وقائمة الأمجاد في هذا المجال تطول[2].

ولكن هذا الموقف العربي والإسلامي لم يكن هو السائد دائماً، فقد اضطر أهل النوبة إلى توقيع اتفاق مهين بين زعيم النُّوبة وقتئذ (كاليدوسوس) وحاكم مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وأسوأ ما جاء في الاتفاق هو إجبار النُّوبة على تقديم (٣٦٠) عبداً سنوياً إلى دولة المسلمين في بغداد. وبالمناسبة فإن هؤلاء الأرقاء، وغيرهم ممن جُلبوا من بلدان أفريقيا، هم الذين خاضوا فيما بعد ما عُرف بثورة علي بن محمد في جنوب العراق (ثورة الزنج)[3]. غير أنَّ بعض الروايات تقول إنَّ العدد الإجمالي كان

---

١ أدخلت تعاليم الإسلام تحرير الرقيق ضمن وسائل طلب العفو والمغفرة، ولكنها لم تحرمه.

٢ د. جلال السيد الخضاوي ود. عبد الرزاق إبراهيم، **تجارة الرقيق وأثرها على العقل الأفريقي**.

٣ قامت حركة الزنج في عام ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م، وأنهكت دولة الخلافة العباسية قبل أن تقضي عليها. وكان عماد هذه الحركة في بادئ الأمر بعض العرب المغامرين من المهالبة والهمدانيين وغيرهم، أما الفئات التي شاركت فيها فهي متنوعة: الزنج، أهل القرى، العرب، عشائر عربية ثائرة على السلطة... أما فيما يتعلق بالشخصية التي قادت هذا الجمع فهو فارسي الأصل من أهل الري يُدعى "بهبوذ" وتسمّى بعلي =

(٤٠٠) عبد إلا أنه يقدّم (٤٠) منهم إلى حاكم أسوان عبد الله بن أبي سرح ويرسل باقي الرقيق إلى دولة الإسلام[١]. ومن الواضح أن تقديم الرقيق إلى الحاكم العربي كان بديلاً للجزية أو الضريبة التي ينبغي أن تدفعها بلاد النوبة.

لم يكن العرب يعرفون عن شعوب وسط أفريقيا وجنوبها معرفةً شاملة ودقيقة حتى بعد فتح شمال أفريقيا واستقرار الإمبراطورية العربية الإسلامية، واقتصرت معرفتهم على بعض المدن والمرافئ الأفريقية الساحلية الشرقية وبعض موانئ شمال أفريقيا. ولم يكن اليونان والرومان والبيزنطيون الذين استعمروا شمال أفريقيا لعدة قرون يدخلون إلى جوف أفريقيا، واكتفوا باحتلالها شمالاً والتواصل مع الشعوب التي تسكن بلدان هذا الشمال. ولم تكن شعوب الشمال هذه شعوباً زنجية، فقد كان معظمها من قبائل الأمازيغ. أما العرب، على عكس اليونان والرومان، فلم يكتفوا بفتح شمال إفريقيا والدخول في عمق سواحل أفريقيا الشرقية، بل توغلوا في وسطها وغربها واجتازوا الصحراء الكبرى، إضافةً إلى بلدان غرب أفريقيا (وقد أطلق العرب اسم "السودان" على الغرب الأفريقي فيما بعد واستمرت هذه التسمية مئات السنين اللاحقة). وتشير أحداث التاريخ التي ترصد بعض مظاهر تجارة الرقيق من السودان بين القرن السابع والتاسع عشر إلى أنَّ العرب هم أول الأجانب الذين توغّلوا في أدغال أفريقيا لإشباع الرغبة الملحة بل الحاجة الملحة لامتلاك الرقيق في العالم الإسلامي، وولجوا إلى أعماق القارة، وقد وجدت تجارة الرق حافزاً قويًّاً لديهم وكانت لها أهمية قصوى[٢].

لقد عقد التجار العرب صلات تجارية بين شعوب أفريقيا من جهة وشعوب الجزيرة العربية والشام والعراق وشعوب أوروبا أيضاً من جهة أخرى. ووصف التجار والرحالة العرب بلاد الزنج والسودان في غرب أفريقيا وفي وسطها وشرقها وصفاً مطولاً اختلط فيه وصف الواقع بالأساطير، والخيال والتخيل بالخرافات

= بن محمد وادّعى انتسابه إلى عبد القيس ثم إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي، وهو شخصية محيرة فعلاً حيث يلاقي الباحث صعوبات جمّة في معرفة نسبه، وذلك بفعل تقلباته السريعة، تبعاً للظروف التي كان يمر بها. ودامت الثورة حتى عام ٨٨٣م.

١ د.عمر مصطفى شركيان، "الأفارقة والعرب"، الصحيفة الإلكترونية **سودانايل**.

٢ المصدر السابق.

والأوهام، فكانت صورة الزنج في نظر الثقافة العربية ليست مطابقة للحقيقة في الواقع بل بعيدة عنها كثيراً. فبعض الرحالة قال بعدم وجود رقاب لبعضهم، والآخر قال إن أعينهم في وسط وجوههم، والثالث قال إن لهم أذناباً، كما نشروا كثيراً من الخرافات والأوهام حول تقاليدهم الاجتماعية وطرق عيشهم وأنماط حياتهم وأوضاعهم الاقتصادية... إلخ. وربما كان التجار العرب أول من دخلوا هذه البلاد (بل اكتشفوها) من غير الأفارقة[1].

لقد انصرف اهتمام بعض العرب إلى أسر الرقيق أو شرائهم أكثر من اهتمامهم بنشر التعاليم الإسلامية والثقافة العربية حسب بعض الباحثين، ويتضح ذلك في تعاملهم مع تجارة الرقيق، كما اهتموا بالإماء. والأَمَة، كما هو معروف، هي أنثى العبد، وكانوا يمارسون الاستمتاع بهن كزوجاتهم، ولذلك كانوا يفضلون الإناث، وعليه كانت نسبة الزنوج الأفارقة الذكور في شبه الجزيرة العربية، الذين جاؤوا إليها عن طريق تجارة الرقيق، أقل من نسبة الإناث، أما الإماء فقد تمّ التعامل معهن حسب مبدأ "ما ملكت أيمان العرب". وعند المقارنة مع العالم الغربي نلاحظ أنَّ الغربيين فضّلوا الرجال الأشداء الأقوياء على النساء، وقد جلبوا مع أولئك الرجال عدداً من النساء لحفظ النوع وضمان عملية التكاثر. وكان دافعهم (أي الغربيين) استجلاب الرقيق القوي الأمين للعمل في مزارع القطن في الولايات المتحدة الأميركية، وحقول قصب السكر في جزر الهند الغربيَّة (البحر الكاريبي)، وتعبيد الطرق، وتشييد القناطر، وحفر السرادق، وبناء العمران، والعمل في مصانع الغرب الرأسمالي إما إبَّان الثورة الصناعيَّة في أوروبا أو خلال بناء دولة الولايات المتحدة الأميركية الحديثة النشوء[2]. أما العرب فقد جلبوا الرقيق لاستخدامه غالباً في الخدمة المنزلية، أو في الرعي أحياناً، أو في أعمال فردية. وكان شرق أفريقيا مكان تجمّع البضائع والرقيق في آلية التجارة العربية من أفريقيا، وتوسّعت قوافل التجار وتجارة الرقيق، وتعمّق معها التواصل مع شعوب أفريقيا (الأحباش والنوبيين والزنج)[3]. وقامت بسبب ذلك صلات كثيفة وعميقة بين العرب والشعوب الأفريقية، ودخل الإسلام دخولاً واسعاً إلى هذه البلدان كما دخلت

١ **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص١٩٦.

٢ "الأفارقة والعرب"، مصدر سابق.

٣ **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص١٩٧.

الثقافة العربية واللغة العربية، وكان الدين الإسلامي والثقافة العربية هما السائدان في بلدان أفريقيا الوسطى والغربية حتى مجيء الاستعمار الأوروبي.

إن ما يؤكد الصلة المتينة بين الشعوب العربية والشعوب الأفريقية هو شدة التشابه الثقافي واللغوي القائم حالياً والذي مازالت تأثيراته وتفاعلاته موجودة رغم التطور المنفصل لكلٍ من الطرفين بين الناطقين باللغات الحامية (الأفريقية) والناطقين باللغات السامية (الآسيوية)، ولعل هذا ما دعا الرئيس سيدار سنغور، رئيس السنغال الأسبق، إلى القول في هذا المجال "إن العرب الأفارقة ما هم إلا مجموعات متفرقة من الشعب الأفريقي، وتكويناتهم اللغوية هي سلسلة متصلة من الشمال إلى الجنوب، وثقافاتهم متفاعلة ومتشابهة حول المفاهيم الإنسانية واللاهوتية"، ويضيف أنّ "الزنجي الأفريقي استوعب منهج ومنطق الفكر العربي، وكذلك العربي الأفريقي استلهم العاطفة من الجنوب، جنوب الصحراء، فالخلافات باقية وكذلك التعاون بين كافة الأفارقة"[١]. وهذا ينطبق في الواقع على العرب جميعهم وليس فقط على العرب الأفارقة كما رأى الرئيس سنغور، إلا أن العرب الأفارقة أكثر معرفةً بحال الشعوب الأفريقية وخاصةً شعوب جنوب الصحراء، وأكثر تفهماً لها ولذهنيتها ومصالحها.

كانت النظرة العربية إلى الأفارقة الزنوج والسود نظرة عنصرية في الغالب الأعم، فهم – حسبها – متخلفون ليس لهم ثقافة، ولم يُبعث فيهم رسول، تسيّرهم غرائزهم، قليلو العقل بل قاصرون عقلياً، قريبون من أخلاق البهائم، غير منتظمي السلوك، لكنهم كثيرو الطرب والطبل[٢].

لقد تبدّت هذه النظرة العنصرية في وصف العرب لأشكال الأفارقة وسحنهم بعد دخولهم أفريقيا، وفي وصف حياتهم الاقتصادية والاجتماعية في بداية تعرّفهم إليهم، حيث وصفوهم بأنهم يقومون ببعض الرعي وبشيءٍ يسير من الزراعة وبقليلٍ من التجارة، والغالب على لباسهم الجلود، ولا يوجد الخبز إلا عند الملوك المتخلقين بأخلاق البيض، ويأكلون الموز والذرة والعسل واللحم، وهم نصف عراة، يسكنون الأكواخ، ولهم ممالك، ويمكن أن يقتلوا الملك الجائر. وعلى أية حال بقيت أفريقيا

١ "رؤية أفريقية، العلاقات العربية الأفريقية"، عن الإنترنيت.
٢ **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص١٩٦-١٩٧.

مصدراً للعبيد بالنسبة إلى العرب، إضافةً إلى الذهب والنحاس والعنبر وريش النعام.
ولم يتخلَّ العرب عن نظرتهم العنصرية إلى السود والزنج، وبقيت صورة الأسود والزنجي في الثقافة العربية تعتبره رقيقاً، ومتخلفاً، وخبيثاً، ولا بدّ من الحذر منه، ولا يمكن إصلاحه.

بذل النبي محمد جهداً كبيراً ليقنع المسلمين أنّ الإنسان الأسود يساوي الأبيض، وأنّ غير العربي يساوي العربي، فقد أكّد لرجلٍ أسود أنّ له الحقوق نفسها في الآخرة بما فيها دخول الجنة إن صلحت أعماله، وكان هذا التأكيد مجال دهشة المحيطين به من المسلمين الأوائل، واختار بلالاً الحبشي مؤذناً، وهي مهمة كانت عظيمة في سنوات الإسلام الأولى، حتى أن بعض المسلمين احتجّوا عندما صعد بلال سطح الكعبة وأذّن للصلاة، وكان أول أسود يعتلي سطح الكعبة، فأذّن بلال والحارث بن هشام وصفوان بن أمية قاعدان، فقال أحدهما للآخر: انظر هذا الحبشي، فردّ عليه الآخر: إن يكرهه الله يغيّره[1].

تلازمت صفة العبودية مع اللون الأسود في الثقافة العربية، باعتبار أن القسم الأكبر من العبيد حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين كان من السود[2]، فتلازم السواد مع العبودية في ذلك الوقت. وبعد وفاة الرسول جدّد العرب مفاهيمهم السلبية عن السود والزنوج التي كانت قبل الإسلام، وعملوا بها، وتعاملوا معهم كعبيد، فالأسود عبد حتى لو أُعتق، وبقوا يعتبرونهم من أحطّ الفئات الاجتماعية. واستمرّ الأمر كذلك مئات السنين الأخرى، وخاصةً أن الإسلام شرّع العتق فقط، ولم يلغِ الرق، وأوصى بالإحسان إلى الرقيق والعمل على حسن معاملته، إضافةً إلى أنه أوصى بعتقه. ولعل التقاليد العربية أبقت موقف العرب من السود ملتبساً، فقد قال ابن عبد ربه (القرن العاشر) في **العقد الفريد** إنّ "السودان هم شر خلق الله". وقال ابن بطوطة (في القرن الثالث عشر): "جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم".

كانت النظرة العربية العنصرية تجاه السود واضحة، بل كانت أكثر أنواع العنصرية تطرفاً، فكانت النظرة الدونية إلى الأسود أمراً بديهياً ولم تجد من يستنكرها، ولذلك

---

١ ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، ١٩٨٥، ج٣، ص٢٣٥.
٢ بعد توسّع الفتوحات ازداد عدد الرقيق من البلدان المفتوحة، أي من غير الزنوج.

لاقت تعاليم الإسلام بمساواة الأبيض والأسود بعض الاستهجان حتى بين الذين آمنوا بالإسلام، ومشهورةٌ قصة عنترة بن شداد قبل الإسلام (٥٢٥ – ٦٠٨م) الذي لم يعترف به أبوه لأنه أسود[١]. وقد كرّس الكتّاب هذه النظرة العنصرية، فحسب ابن الفقيه "يخرج الولد بين أسود وحالك ومنتن الريح زفر، ومفلفل الشعر، مختلف الأعضاء، ناقص العقل، فاسد الشهوة كالزنج والحبشان، فهم بين فطيرٍ لم يختمر ونضج قد احترق". ولم تعجب أشكالهم العرب، ووصفوها وصفاً مبالغاً فيه، وأعطوا لأشكالهم مواقف قيمة ورأي، ففيهم – حسب الكاتب نفسه (ابن الفقيه) – من الخلق الكريه والصور المشوّهة، كجحوظ أعينهم وفطس أنوفهم وسعة مناخيرهم وتهدّل شفاههم وتصورها بصور شفاه البهائم والأنعام. ولعل هذه الأوصاف وهذه الثقافة التي تمّ الإلحاح عليها كانت فيما بعد عاملاً في تبرير تجارة الرقيق التي لم تتوقف في التاريخ العربي، حتى منتصف القرن العشرين في عُمان وموريتانيا وبعض بلدان الجزيرة العربية (ويقال إنها موجودة حتى اليوم في موريتانيا).

اختصر ابن خلدون (القرن الرابع عشر) رأي العرب بالزنوج بأنهم "خفيفو العقل، كثيرو الطرب والطبل والرقص، غير منتظمي السلوك". ولا شكّ أن رأي ابن خلدون هو الرأي الذي كان سائداً في عصره، أي في القرن الرابع عشر الميلادي، مما يؤكد أن هذا الموقف من السود ليس عابراً وإنما هو قيمة اجتماعية راسخة. وكما أشرت، فما أن توفي النبي حتى ارتدّ العرب والمسلمون إلى آرائهم السابقة للإسلام تجاه السود والأحباش والعبودية والرق والزنوجة، وقد استمر الكتّاب العرب في الكلام عن نواقص السود وعن السواد، حتى قالوا إن الأسود في الدنيا يجازى خيراً في الآخرة بالابيضاض (أي أن لون البشرة السوداء ملعون لديهم).

غذّت الخرافات الصورة السلبية عن السود والنظرة الدونية تجاههم في ثقافة العرب، ومن هذه الخرافات قول البكري: "في أقاصي بلاد الحبشة قومٌ يمشون على أربع كالدواب". وقد وصف ابن حوقل (القرن العاشر) ورحّالة آخرون بإسهاب الإباحية الجنسية لديهم وعرض النساء الفاضح. وحتى رفاعة الطهطاوي، الشيخ

١ تقول الرواية إن عنترة كان محارباً شجاعاً، وبدأ قومه ينهزمون في إحدى المعارك، فطلب منه أبوه أن يحارب، فقال له إنني عبد، فأجابه والده: "كرّ فأنت حر".

والكاتب المتنور والحداثي، سمّاهم في القرن التاسع عشر في كتابه **تخليص الإبريز في تلخيص باريس** "همل بلاد السودان"، ووصفهم بأنهم "كالبهائم السارحة لا يعرفون الحلال من الحرام، ولا يقرأون ولا يكتبون ولا يعرفون شيئاً عن الأمور المسهّلة للمعاش".

وقد تجاهل الموقف العربي من السود تعاليم الإسلام وممارسات النبي في هذا المجال، وباستثناء حالات نادرة تسلّم فيها قادة عسكريون أو سياسيون أو دعاة سود مهمات معينة، فإن الموقف العربي من السود لم يتغير كثيراً، أعني أن النظرة الدونية إليهم بقيت قائمة ومعمولاً بها، وكانت تشكّل قيمة اجتماعية نادراً ما تلقى الاستنكار. وربما لم تشكّل هذه النظرة عائقاً أمام تجار الرقيق العرب، فلم يكن يرفّ لهم جفن وهم يأسرون السود أو يشترونهم من رؤساء القبائل وينقلونهم ليبيعوهم في بلاد أخرى.

رغم التطور الذي حصل في المجتمعات العالمية ولدى الشعوب، وتغيّر المفاهيم والقيم، وتغلغل الحداثة ومعاييرها في هذه المجتمعات، وانتشار قيم الحرية والديمقراطية والمساواة، وإلغاء الرق من خلال قوانين دولية ومحلية، وطيّ العالم صفحة التفرقة بين الشعوب والأديان والألوان والإثنيات، فمازال في نفوس بعض العرب شيء من النظرة الدونية إلى الأسود وبعض الشكوك حول مساواة الأسود بالأبيض.

لقد استغلّ بعض التجار العرب شعوب أفريقيا السوداء من خلال التعامل الاقتصادي معهم في المراحل الأولى لدخول الإسلام إلى أفريقيا، وخاصةً في مجال التجارة، حيث تورّط بعضهم في تجارة العبيد في مراحل مبكرة من العصر الوسيط، قبل أن يتورّط بها الأوروبيون، وهذا ما يؤكده المؤرخون الأفارقة بمن فيهم المسلمون، وفي هذا المجال يتحدث محمد شريف جاكو عن قدم نشاط بعض العرب في الاتّجار بالبشر في أفريقيا في حقب مختلفة، قد تعود إلى حقبة ما قبل التاريخ الأوروبي لهذه التجارة غير الإنسانية وامتداداتها حتى اللحظة الحاضرة، وخاصةً في موريتانيا واليمن

في أيامنا[١]، وفي زنجبار قبل عدة عقود[٢]. وعلى أية حال، فبعد شروع الأوروبيين بتجارة الرقيق بعد اكتشاف أميركا تعاونوا مع العرب، وساهم العرب كالأوروبيين في هذه التجارة، وإن كانوا يقومون غالباً بدور الوسيط بين رؤساء القبائل الأفريقية، أو بين "صيّادي" العبيد وبين التجار الأوروبيين. ولم يكونوا يشعرون بالذنب لأن الشريعة الإسلامية لم تحرّم العبودية كما أسلفنا. وقد أفتى بعض الفقهاء بشرعية هذه التجارة، أو على الأقل لم يفتوا بتحريمها أو بتجنّبها.

لقد نمت تجارة العبيد بعد توسّع الاكتشافات الجغرافية ووصول الأوروبيين (الإسبان والبرتغاليين والبريطانيين والفرنسيين) إلى القارة الأميركية أو العالم الجديد، حيث استوطنوه بعد أن طردوا سكانه من الهنود الحمر (السكان الأصليين) أو قتلوهم، وبعد شعورهم بالحاجة إلى يد عاملة. كان المستوطنون البيض في أميركا (شمالها وجنوبها) بحاجة إلى اليد العاملة لتسيير أعمالهم التي تشبه الاستثمارات الصغيرة وتحتاج إلى العمل اليدوي، كي يتفرغوا هم للقيام بدور رجال الأعمال، خاصةً أن العبيد لم يكونوا يكلفونهم سوى الثمن الذي يدفعونه لشرائهم، وبعض الطعام (القليل) الذي يقدمونه لهم مقابل تشغيلهم على مدار الساعة بدون حقوق.

لقد وصلت أول شحنة من العبيد الأفارقة إلى جزر الهند الغربية، أي إلى القارة الأميركية، في عام ١٥٠١، أي بعد تسع سنوات فقط من أول رحلة قام بها كريستوف كولومبس واكتشف أميركا، ثم توالت الشحنات بعد ذلك بشكل هائل، خاصةً بعد أن دخل ساحة هذه التجارة اللعينة الإسبان والبريطانيون والفرنسيون والهولنديون، وكوّنوا شركات تجارية دولية كبرى للعمل في هذا المجال، مثل شركة جزر الهند الغربية الهولندية التي تأسست عام ١٦٢١م وشركة السنغال الفرنسية التي كانت تعمل في غرب أفريقيا[٣].

وفي عام ١٤٤٤م، أي قبل اكتشاف أميركا، كان البرتغاليون، وهم من أوائل

١ رغم إلغاء الرق رسمياً من قبل الأمم المتحدة ومنظماتها، ومن الحكومات العربية جميعها، إلا أنه واقعياً مازالت العبودية موجودة في موريتانيا واليمن، أما في زنجبار فربما تخلصت منها بعد الثورة التي قامت فيها، وكانت واقعياً ضد العرب، ومارست بحقهم مذابح كبيرة.

٢ محمد شريف جاكو، "أزمة العلاقات الأفريقية العربية في الماضي والحاضر"، جريدة **أفريقيا اليوم** الإلكترونية، ٢٠١١/٣/٦.

٣ "الكشوف الجغرافية وتجارة العبيد"، مجلة **العربي** الكويتية، العدد ٤٠٦، ١٩٩٢/٩/١.

المستعمرين الأوروبيين لأراضي أفريقيا، يمارسون النخاسة ويرسلون إلى البرتغال سنوياً ما بين ٧٠٠ - ٨٠٠ عبد من مراكز تجميع العبيد على الساحل الغربي لأفريقيا، وكان هؤلاء العبيد يُخطفون من بين ذويهم في أواسط أفريقيا. وقد فتح البرتغاليون بذلك الطريق لتجارة العبيد، ووضعوا السبل والتقاليد لها، في طريقة الخطف أو القنص المباشر أو توظيف رؤساء القبائل لذلك، وطرق التجميع والنقل ثم أساليب البيع في البرتغال، بما في ذلك الأسعار. وعلى ذلك، وجد الأوروبيون بعد اكتشاف أميركا، وتنامي الحاجة إلى العبيد، الطريق ممهدة من ألفها إلى يائها، وكان سهلاً عليهم ممارسة مهنة شراء العبيد وجمعهم ونقلهم إلى أميركا أساساً وإلى بلدان أوروبا جزئياً.

لقد مارس البرتغاليون القنص المباشر للعبيد في أفريقية وقاموا بأنفسهم بنقلهم إلى السواحل ثم تجميعهم ونقلهم بالسفن إلى العالم الجديد، واستخدموا في ذلك أبشع وسائل العنف والوحشية وخاصةً في أنغولا والكونغو وغينيا وغانا وموزانبيق. وبعد فترة تشاركوا مع النخّاسين الأفارقة والعرب، وعملوا معهم، وانضموا إليهم.

وفي القرن السادس عشر مارست إسبانيا تجارة العبيد، خاصةً أنها كانت بدورها من الدول المستعمرة لبعض الأراضي الأفريقية، ولكن الأهم هو أنها كانت تحتاج إلى تشغيل العبيد في مستعمراتها الأميركية الجنوبية، حيث كانت تدفع بهم قسراً من أفريقيا إلى مستعمراتها في المناطق الإستوائية بأميركا الجنوبية ليعملوا في الزراعة بالسخرة[١].

وتشير أحداث التاريخ إلى بعض مظاهر تجارة الرقيق عند العرب الذين كانوا يجلبون الرقيق من السودان (أي غرب أفريقيا) بين القرنين السابع والتاسع عشر، وتؤكّد أنَّ العرب هم أول الأجانب الذين توغّلوا في أدغال أفريقيا لإشباع الحاجة والرغبة الملحة إلى الرقيق في العالم الإسلامي. ومن خلال ولوجهم إلى أعماق القارة وجدت تجارة الرق حافزاً قوياً وأهميةً قصوى[٢]. ورغم ذلك بقيت تجارة الرقيق إلى البلدان الإسلامية محدودة، لأن هدفها كان في الأساس تأمين الخدم للمنازل وبعض الرعاة أو العاملين في المجال الاقتصادي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأن

١ "تاريخ العبودية"، موسوعة ويكيبيديا.
٢ "الأفارقة والعرب"، مصدر سابق.

الفتوحات أتاحت للمحاربين العرب المسلمين امتلاك أعداد كبيرة من الأسرى الذين كانوا يتحولون غالباً إلى عبيد، ومعظمهم من ذوي البشرة البيضاء، وفي الحالات كلها لم تتحول تجارة الرقيق لدى التجار العرب إلى ظاهرة كبيرة ملفتة إلا بعد أن بدأ الأوروبيون ممارسة هذه التجارة، حيث كانت القارة الجديدة تحتاج إلى آلاف بل عشرات الآلاف من العبيد كي يعملوا في المشاريع الإنتاجية، سواء بالزراعة أو غيرها.

تقاسم تجّار العبيد العرب المهمة مع الأوروبيين على أن يقوم الأوربيون بإمداد النخاسين العرب بالسلع والبنادق والذخيرة والخمور، ثم يتولى هؤلاء، أي التجار العرب، التوغل إلى قلب القارة وجلب العبيد المتفق على عددهم ونوعيتهم، ويتم تسليمهم وإيداعهم لوكلاء يوصلونهم إلى السفن التي تشحنهم إلى المناطق التي اتفقوا على توصيلهم إليها. وقد وجد الأوربيون في ذلك أمراً أفضل ممّا لو قاموا هم أنفسهم بهذه المهمة، فقد جنّبهم ذلك مشقة القنص والتعرض للرطوبة والحرارة الشديدة والحشرات الاستوائية والأمراض المتوطنة داخل القارة الإفريقية. ولهذا كانت سياسة انتظار الأوروبيين قوافل العبيد هي الوسيلة المميزة للحصول عليهم في الفترة ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر[١]. وكانت إنكلترا قد بدأت تشارك منذ منتصف القرن الخامس عشر بتجارة الرقيق، وأمدّت المستعمرات الإسبانية في أميركا الجنوبية بالعبيد، ثم تبعتها فرنسا وهولندا والدنمارك. وعلى أية حال بدأت دفعات العبيد الأفارقة تصل إلى أميركا في أوائل القرن السابع عشر واستمرّ وصولها حتى أوائل القرن التاسع عشر، أي طوال مائتي عام.

وجد بعض زعماء القبائل الأفريقية أنّ الدخول في لعبة أسر العبيد والتجارة بهم أمرٌ مربح، فأخذوا يشنّون غارات على القبائل الأخرى لأسر الرجال والنساء والأطفال وبيعهم للنخاسين، وغالباً ما كان هؤلاء النخاسون من العرب الذين يقومون بدورهم بتوريد ما اشتروه من العبيد إلى الأوروبيين، وخلال هذه العمليات المتتابعة سقط ضحايا بين أبناء القبائل الأفريقية وتشرّدت أسر وتشتّت قبائل، ولحقت بالأفارقة مآسٍ كبيرة ترسّخت نتائجها في ثقافة الشعوب الأفريقية حتى الآن[٢]. وأُلقيت تبعات ذلك

١ "الكشوف الجغرافية وتجارة العبيد"، مصدر سابق.

٢ ولعل الحزن والأسى الواضحين في الغناء الأفريقي جاء من تأثيرات ومآسي تلك الفترة.

ليس فقط على النخاسين وتجار العبيد بل على العرب كلهم سواء كانوا نخاسين أم لا، ذلك لأن هؤلاء التجار هم الذين كانوا يتسلّمون من رؤساء القبائل وقنّاصي العبيد ما اصطادوه وينقلونه إلى الأوروبيين، وكان الأفارقة يشاهدون العرب يقترفون هذه الجريمة ونادراً ما كانوا يشاهدون الأوروبيين يقترفونها، وبالتالي اعتبروا العرب مسؤولين عن سقوط الضحايا والتسبب في الآلام. ولم يخفف هذه الآلام تشجيع الإسلام التسامح مع الرقيق واستحسان تحريرهم، ولم يكن تجار الرقيق المسلمون يمارسون مهنتهم، على أية حال، في إطار تعاليم الإسلام، ولم ينفع تحريم مصر تجارة الرقيق عام ١٨٦٣ في عهد الخديوي إسماعيل في تخفيف إدانة العرب، بل ربما لم يسمع الأفارقة بهذا التحريم ولا بتوقيعه معاهدة مع إنكلترا عام ١٨٧٧ تمنع الاتّجار بالرقيق وتنظّم التعاون بين البلدين في هذا المجال. وبالإجمال تكونت نتيجة ذلك صورة سلبية عن العرب لدى الأفارقة هي أكبر بكثير من الأخطاء التي ارتكبوها، لأنها تحمّلهم القسم الأكبر من المسؤولية إن لم يكن المسؤولية كلها. وعلى الرّغم من غياب إحصاء دقيق عن دور العرب في تجارة الرقيق في أفريقيا، غير أنَّ بعض المؤرخين يقدّرون عدد أولئك الذين تمّ نقلهم قسراً كعبيد إلى شبه الجزيرة العربيَّة وإلى شبه جزيرة الهند بعشرات الملايين، فضلاً عمّن تمّ نقلهم إلى القارة الأميركية، والتصقت تجارة الرقيق من أفريقيا بالعرب، مع أنهم ليسوا الأكثر مساهمةً بها بل كانوا مساهمين ثانويين، ولا شك أن الأوروبيين ليسوا بريئين من نشر هذه الأفكار عن العرب وتثبيتها في أذهان الأفارقة، لإبعاد الشبهة عنهم.

لقد استمرت أفريقيا مصدراً للعبيد الذين كان العرب يستوردونهم منها، ونُقلوا أو صُدِّروا من غربها ووسطها وأُرسلوا إلى فاس والقيروان والأندلس، وإلى القاهرة وسورية والعراق، وكانت سومطرة ومناطق شرق أفريقيا هي أماكن تجمّعهم الأساسية، إضافةً إلى ما كان يستورده العرب من أفريقيا من الذهب والنحاس والعنبر وقرون الكركدن وريش النعام.

لكل هكذا تشكلت مواقف القسم الأكبر من شعوب أفريقيا السوداء لتدين العرب وتصوّرهم على أنهم تجار رقيق ومستغلون لعبوا دوراً سلبياً في تاريخ أفريقيا، وقد عبّرت بعض شعوب أفريقيا في العقود الأخيرة عن موقفها من العرب ومن ممارستهم

تجارة الرقيق من خلال مبادرتين: الأولى تمثلت بالمطالبة بتعويضات من الجامعة العربية نظير ممارسة العرب العبودية وتجارة الرق في القارة، والثانية التحرك لمعاقبة السودان على الجرائم التي ارتُكبت في دارفور[1].

لقد حاول الأوروبيون كعادتهم، وللنجاة من المسؤولية، إثارة التناقضات بين العرب والأفارقة بشكل عام، وبين بلدان أفريقيا الشمالية العربية وأفريقيا جنوب الصحراء الزنجية على الخصوص، وهذا ما ساهم به وأكّد عليه كتّاب أوروبيون عديدون، حيث قسّم بعضهم القارة الأفريقية أنتروبولوجياً على أساس العرق واللون والثقافة. وقد تلقّف بعض الكتّاب الأفارقة المعاصرين هذه الفكرة، أي تغذية التناقض بين العرب والأفارقة، وتبنّوها ونشروها وعملوا لأجلها، مثلما فعل وول سوينكا الحاصل على جائزة نوبل في الآداب، فقد كان سوينكا من أكثر المؤمنين بفكرة مسؤولية العرب والمسلمين عن الرقّ، حيث رأى أنهم مذنبون فيما يتعلق بالعبودية وتجارة الرق الأفريقي. وحاول معظم الذين تبنّوا هذه الفكرة إلقاء مسؤولية تجارة الرقيق كلها على العرب وتجاهل دور الأوروبيين وبالتالي تبرئتهم، وفي الحالات كلها ألقوا مسؤوليات على العرب تجاوزت أضعاف الأخطاء التي ارتكبوها. ولا شك أن بعض الكتّاب الأفارقة تأثروا بالمواقف السياسية أكثر من تأثرهم بحقيقة الأحداث التاريخية، كما أن آراء بعضهم لم تكن بريئة، فقد كانت في الواقع مواقف سياسية مسبقة تبحث عن مبررات.

يتعامل العقل الأفريقي مع مسألة تجارة الرقيق والعبودية بحساسية شديدة لها ما يبررها في الواقع، وقد استغلت دوائر استعمارية غربية هذه المسألة للوقيعة بين العرب والأفارقة، باتّهام العرب بالمسؤولية التاريخية عن تجارة الرقيق والعبودية، وخاصةً في ظل الإسلام. ولكن النخب الأفريقية لم تستكن كلها للمزاعم الغربية، ولذلك انقسمت بين مدافع عن وجهة النظر الغربية التي تلقي المسؤولية على العرب وتسعى للوقيعة بينهم وبين الأفارقة، وبين مهاجم لها من الكتّاب الذين لم تخطفهم المواقف السياسية أو الاتهامات الأوروبية، وانحازوا إلى التحليل التاريخي للأحداث ودراسة الظروف والشروط التي أحاطت بمسألة تجارة الرقيق. ومن هؤلاء عمر بامب الذي

[1] انظر: عمر بامب، **العقل الأفريقي والمسؤولية عن تجارة الرقيق**، مركز الدراسات الإسلامية.

يؤكّد على أن أخطر تجارة للرقيق في أفريقيا وأكثرها تأثيراً عليها هي التجارة الأوروبية الغربية، وليس العربية، خاصةً عبر الأطلنطي، منذ بداية الكشوف الجغرافية وبناء العالم الجديد، حيث نُقل عبر الأطلنطي ملايين الأفارقة الذين اقتنصوا عبيداً ونُقلوا إلى القارة الأميركية، وكانت موانئ أوروبا هي محطتهم الأولى في الغالب الأعمّ. أما التجار العرب فلم ينقلوا الملايين من العبيد الأفارقة إلى شبه الجزيرة العربية أو إلى بلدان آسيا، ولم يتجاوز دورهم في نقل العبيد إلى أميركا بأنهم كانوا حلقة وسيطة وجزئية، تشتري العبيد من رؤساء القبائل وتبيعهم إلى الأوروبيين على سواحل أفريقيا الغربية، وما كانوا ليمارسوا هذه التجارة بمثل هذا الاتّساع لولا تحريض الأوروبيين ومشاركتهم، وحاجة أميركا إلى الرقيق.

أما تجارة الرقيق التي مارسها الأوروبيون فلم تتعلق بتجارة أفراد وإنما كانت ظاهرةً عامة نقلت ملايين العبيد، وجائحةً كبيرة قامت بها مؤسسات وشركات وليس أفراداً كما كان حال التجار العرب، ودخلت في آلية الاقتصاد العالمي في القرن السابع عشر. وكانت تجارة الرقيق – حسب رأي بعض الباحثين – أول استثمار دولي لرأس المال على نطاق واسع، فمعدّل الربح على الصعيد العالمي لهذه التجارة كان هائلاً[1].

تعرّضت أفريقيا لتجارة الرقيق من قبل ثلاث جهات رئيسية: الأولى هي تجارة الرقيق الغربية عبر الأطلنطي التي أخذت العبيد ونقلتهم بالقوة إلى العالم الجديد، حيث تم خطف ونقل (وقتل) ملايين الأفراد الأفارقة لتلبية حاجة العالم الجديد وأوروبا، من خلال هذه التجارة البغيضة التي قام بها الأوروبيون؛ والثانية، تجارة الرقيق الشرقية، حيث تم أخذ العبيد إلى مناطق ودول الشمال الأفريقي وشبه الجزيرة العربية، وهذه مارسها التجار العرب؛ والثالثة هي التجارة الأفريقية الداخلية للرقيق، حيث تمّ الاتّجار بالرقيق الأفريقي داخل أقاليم أفريقيا جنوب الصحراء، ونقلوا من إقليم إلى أخر، وهذه قام بها الأفارقة أنفسهم (رؤساء القبائل والمغامرون ومن في حكمهم)، وبلغت ذروتها عام ١٨٥٠م فيما سُمّي "التجارة الأهلية". ويؤكد عمر بامب أنه مثلما عرفت معظم الأمم والحضارات القديمة الاتّجار بالرقيق، فقد عرفته القبائل الأفريقية القديمة كذلك، وكان الأساس فيه أسرى الحرب، سواء كانوا من السود أم من البيض. وقد

١ "الكشوف الجغرافية وتجارة العبيد"، مصدر سابق.

اشترك العرب كغيرهم في هذه التجارة، لاسيّما في شرق أفريقيا وفي أواسطها[1]، خاصةً وأنّ التواصل العربي مع هذه البلاد له تاريخ طويل ولم ينقطع في أي وقت.

لقد حاول الغرب الاستعماري إحداث وقيعة بين العرب والأفارقة بسبب الموروث الاستعماري الذي قام بالتفرقة بين العربي والأفريقي، ولا يستطيع أحد الآن أن ينكر أو يتجاهل حقيقة أن صورة العربي لدى الأفريقي هي صورة سلبية؛ فقد ساهم الاستعمار في تصوير العربي بأنه تاجر رقيق مرةً، وتاجر جشع مرةً أخرى، وانتهازي ولديه أهداف توسّعية في أفريقيا مرةً ثالثة[2]. واستند الاستعمار بذلك إلى ممارسات عربية حقيقية في هذا المجال، حيث من الصعب إنكار مساهمة العرب في هذه التجارة.

لقد خلق الاستعمار البريطاني حاجزاً مصطنعاً بين العربي والأفريقي في السودان، كما قام الاستعمار الفرنسي في موريتانيا بمحاباة الأقلية الزنجية على حساب الأغلبية العربية وفتح لأبنائها أبواب التعليم في المدارس الفرنسية التي كانت تؤهلهم لتسلم المناصب الإدارية والترقّي في الخدمات العامة، وهو ما جعلهم يتغلغلون في كثير من مناصب المستعمرة الموريتانية قبل استقلالها، ومن ثم في الدولة الموريتانية بعد الاستقلال، وغدت نسبتهم في الوظائف السياسية والاقتصادية أعلى من نسبتهم العددية بالنسبة إلى سكان موريتانيا. كما عملت الإدارة الفرنسية على نشر اللغة والثقافة الفرنسيتين بين الزنوج، وفي الوقت نفسه اجتهدت في إضعاف التعليم باللغة العربية بهدف استيعاب الزنوج الموريتانيين وإبعادهم عن الثقافة العربية والتأثيرات الإسلامية المنتشرة بين القبائل العربية، وقد أدّت هذه السياسات بالفعل إلى تعميق الفروق والخلافات العرقية بين العرب والزنوج. كما قامت الإدارة الاستعمارية الفرنسية – حسب أنور أسامة عبد القادر[3] – بتشجيع "فكرة الزنوجة" ومساندة المفكرين الذين آمنوا بها مثل الرئيس السنغالي الأسبق ليوبولد سنغور. وخطورة "فكرة الزنوجة" أنها تفرز سياسات عنصرية سلبية تركّز على وحدة الزنوج دون العرقيات الأفريقية الأخرى، وبخاصةً عرب الشمال الأفريقي، والرضوخ لعلاقات

---

١ **العقل الأفريقي والمسؤولية عن تجارة الرق والعبودية**، مصدر سابق.

٢ أنور أسامة عبد القادر، "العلاقات العربية الأفريقية – عوامل الصراع ومستقبل التعاون"، موقع **قراءات أفريقية**، ١٠/٤/٢٠١٢.

٣ المصدر السابق.

الولاء وللنظم الاستعمارية التي كانت في كثير من الدول الأفريقية، لاسيّما من قبل النخب والتيارات المستفيدة منها، حتى أن بعض قادة ومثقفي أفريقيا أخذوا يعتقدون أن حجم المساعدات العربية لأفريقيا لا ترمي إلا لتحقيق بعض الأغراض قد تكون سياسية أو دينية، ولا تقع في إطار تأكيد الصداقة والشراكة والتعاون بين الطرفين، ولا لدعم تطور الشعوب الأفريقية والمساهمة في مساعدتها على تقرير مصيرها.

لعبت السياسات الإعلامية دوراً سلبياً في العلاقات بين الطرفين العربي والأفريقي في العقود الأخيرة، وساهم هذا الدور في الإساءة إلى صورة كل من الطرفين لدى الآخر، واختلاق أسس الخلافات وزرع الشك والريبة بينهما. ويصحّ القول إن التعبئة الإعلامية التي سادت عند كلا الطرفين كانت أحياناً أداةً لتشويه صورة الأفارقة في العالم العربي، وخاصةً أخبار الكوارث الطبيعية والمجاعات والحروب الأهلية والأمراض الفتاكة في بلدان أفريقيا، وتشويه صورة العرب لدى الأفارقة، والمبالغة في أخبار الإرهاب والتطرف الديني والتخلف السياسي في الوطن العربي. وقد ساهمت هذه التعبئة إلى حدٍّ ما في التأثير في التعاون العربي الأفريقي[1] وعززت حذر كلٍّ منهما من الآخر وخوفه منه، بل واعتبار التعاون معه مضرّاً.

من جهة أخرى نشأت حركة ثقافية وحركة تحررية فى أفريقيا نفسها، كما انتشرت الاتجاهات المعبّرة أكثر عن التحرر الثقافي الأفريقي من الهيمنة الثقافية الغربية والاستعمار الجديد، وتكرّست هذه الاتجاهات بعد استقلال معظم دول أفريقيا جنوب الصحراء عام ١٩٦٠، وخاصةً منها المستعمرات الفرنسية. وقد تعمّق مفهوم الثقافة الأفريقية والتوجهات الفكرية والسياسية في بلدان القارة على أساس أن دول أفريقيا المستقلة حديثاً هذه ينبغي أن تتجه نحو تكوين هويتها الثقافية والقومية وتعزيز هذه الهوية كرابطة أساسية بين أبنائها، وتعزيز شعار التحرر وتقرير المصير، والعمل الدؤوب من قبل شعوب هذه البلدان لإنجاز تحررها في ضوء بناء ثقافتها الوطنية وهويتها الوطنية. ومن أبرز الظواهر التي نشأت نتيجة ذلك حركة الزنوجة التي تزعّمها الرئيس السنغالي الأسبق ليوبولد سنغور، وكانت تهدف إلى إبراز الشخصية الأفريقية السوداء في مواجهة هيمنة الثقافة الغربية، أي أنها كانت عاملاً لاستكمال

[1] "رؤية أفريقية"، مصدر سابق.

التحرر الثقافي فضلاً عن التحرر السياسي، وكذلك حركة الأصالة الأفريقية التي تزعّمها الرئيس الزائيري الأسبق موبوتو، والتي وجدت نماذج مؤيدة لها في تنزانيا (نيريري) وغيرها، حيث تمّ استبدال الأسماء الغربية بأسماء أفريقية، وتفضيل أساليب الحياة الأفريقية على الحياة الأوروبية. ونما، على التوازي، التحامل على العرب في بعض الأحيان وتحميلهم بعض مسؤولية التخلف الأفريقي، ووصل الأمر إلى حدّ المطالبة أحياناً بمنظمة إقليمية لأفريقيا السوداء كبديل عن منظمة الوحدة الأفريقية، أي المطالبة بمنظمة أفريقية جديدة لا يشارك فيها العرب.

بالإجمال، أدّت تجارة العرب بالرقيق، مهما كانت هذه التجارة بسيطة وبدائية وجزئية، منذ ما قبل الإسلام حتى القرن التاسع عشر بل وأواسط القرن العشرين، إلى تشويه صورة العرب لدى الأفارقة والإساءة إلى العلاقات بين الطرفين، شأن ما حصل في موريتانيا، حيث توترت العلاقات بينها وبين السنغال (نتيجة قيام عناصر متطرفة موريتانية عنصرية ضد كل ما هو موريتاني أسود، بحجة أنهم من أصول سنغالية، وقاموا بطرد معظم القبائل الأفريقية من موريتانيا إلى السنغال)[١]، وعمّقوا بذلك ما أسسه الفرنسيون من حذر وكره وعداوة بين العرب والزنوج الموريتانيين، ومازالت المشكلة قائمة حتى الآن.

هكذا، إذن، ساهم الاستعمار الأوروبي عامةً في تشويه صورة العرب، إلا أنه مع ذلك، ورغم هذه المساهمات والتعبئة الإعلامية، بقي تيار هام من الرأي العام الأفريقي يعتقد بوجود صورة إيجابية للعرب ويراهم بعين الرضا. وعلى الرغم من الاتجاهات العامة التي توصلت إليها بعض الدراسات من أن صورة العرب في وسائل الإعلام في عدد من الدول الأفربقية تتّسم بطابع سلبي في مجملها، وأن التركيز في التناول والتغطية الإعلامية الإخبارية غالباً ما ينطلق من النزعة المتحيزة والنظرة المسبقة، مثل ما أشارت إليه دراسات كثيرة[٢]، إلا أن الكاتب النيجيري د. الخضر عبد الباقي ينفي أن يكون الأمر كذلك فيما يتعلق بصورة العرب لدى الأفارقة، التي تظل بنظره حيادية رغم المؤثرات السلبية، ويرى أن الأفارقة بمختلف توجهاتهم يرفضون عدداً من المقولات

١ "أزمة العلاقات الأفريقية العربية في الماضي والحاضر"، مصدر سابق.

٢ دراسات مثل دراسات جاك شاهين ١٩٧٩، ومحبوب هاشم ١٩٩٧، وأيمن ندا ٢٠٠٠، وحنان يوسف ٢٠٠٢.

التي روّجت لها الدراسات الغربية، ومنها أن العرب هم مصدر المتاعب والإرهاب في العالم، وأن لهم ضلعاً في مأساة استرقاق الأفارقة القدامى. كما يبدي بعض الأفارقة تحفظاً كبيراً فيما يتعلق بمظاهر العنصرية العربية تجاه الأفارقة الوافدين. ولعل التاريخ المشترك بين العرب والأفارقة، والثقافة المشتركة أو المتعاطفة على الأقل، والدين الإسلامي الذي انتشر في أفريقيا، كان لها دور في هذا التحفظ الأفريقي على الاتهام الأعمى للعرب الذي لا يستند إلى أدلة مقنعة كافية.

يؤكد د. الخضر أنّ هناك التباساً واضحاً وعدم وضوح رؤية لدى الأفارقة من حيث الفرق بين العروبة والإسلام، حيث تظل هناك ثلاثة عناصر متداخلة مع مفهومي العروبة والإسلام لدى الشعوب الأفريقية غالباً، وهي: كل من هو مسلم وأبيض فهو عربي، وكل أبيض يتكلم العربية فهو مسلم، ثم قضية الخلط بين الدين ولون البشرة[1].

وبالإجمال هناك صور إيجابية عديدة عن صورة العرب لدى الأفارقة، كما يعرضها خلف علي حسن[2]، وعن طبيعة الصورة الذهنية التي يحملونها عن العرب والدول العربية، وتنطوي هذه الصورة على العديد من الصفات والانطباعات الإيجابية منها: أن العرب شعب مبدع فى مجال إنتاج الفكر الديني الإسلامي بدرجة كبيرة، وبدرجة أقل في العلوم الطبيعية والحياة المدنية والتقنية الحديثة، وأنّ الدول العربية تمثّل واحة الأمن والاستقرار السياسي والاجتماعي وتتمتع بمظاهر التقدم والمدنية، وأن العرب قوم يتمتعون بثقافة عالية واطّلاع واسع على الثقافات الأخرى... أما السلبيات التي يراها الأفارقة عند العرب – حسب المؤلف – فهي أن أنظمة الحكم في البلاد العربية محتكرة ووراثية في أسر وقبائل معينة، وبالرغم من وجود مشاعر الاهتمام بالإنسانية لدى العرب، إلا أنّ هناك تعصباً وعنصرية ضد السود، وكذلك نزعة الكراهية ضد الأفريقي الزنجي في بعض الأوساط والمجتمعات العربية. وترى هذه النظرة أيضاً أن العرب شعب منقسم على نفسه بكثرة الخلافات والنزاعات البينية، وضعف الإرادة السياسية بين قادتهم... ومن السلبيات أن العرب أناس بيروقراطيون يحبون الروتين والجمود في طبيعة معاملاتهم الإدارية. وأخيراً يرى الأفارقة – حسب هذه الدراسات – أن الدول العربية مقصرة في

١ آمال عويضة، "كيف يرى الأفارقة العرب"، **الأهرام**، العدد ٤٣٥١٢، ٢٠٠٦/١/٢٣.

٢ خلف علي حسن، "صورة العرب في خيال الأفارقة: شعوب منقسمة وعنصرية ضد الأفريقي الزنجي"، **المصري اليوم**، العدد ٢٢٠٩، ٢٠١٠/٧/١.

القيام بالواجب الكافي نحو القضية الفلسطينية، كما يرون أن الهوية العربية بعيدة تماماً عن الهوية الأفريقية، ولا يمكن أن تلتقيا بسبب طبيعة كل منهما المتنافرة والمتضادة مع الأخرى[١]. وينبغي أن نشير إلى أن ٧٥ % من الأراضي العربية توجد في القارة الأفريقية، وأن ٦٠ % من العرب يسكنون في أفريقيا، وأن نسبة ٢٨ % من سكان أفريقيا هم عرب، وهذه الأرقام والإحصائيات تؤكد على وجود إمكانية التقارب بين المجموعتين. ولكن خوف المسؤولين وبعض المثقفين الأفريقيين من تزايد وتعاظم نفوذ الوجود العربي والإسلامي في الساحة الأفريقية ربما أعاق هذا التقارب في بعض الأحيان وعمّق الحذر الأفريقي التاريخي من العرب، الذي استقرّ، في الواقع، في عمق الثقافة الأفريقية.

١ "صورة العرب في خيال الأفارقة"، المصدر السابق.

الفصل السابع

اليهود أول الأعداء... وآخرهم

سكن اليهود في يثرب وفي بلدات حجازية أخرى، مثل خيبر وفدك وتيماء...، قبل ظهور الإسلام، واتّصف يهود الحجاز بأمرين رئيسيين: أولهما أن مناطق سكناهم كانت قابلة للزراعة (تربتها وأمطارها مناسبة)، وبالتالي كانت سبباً في يسرهم المادي النسبي واستقرارهم في البلدات وفي يثرب، حتى أنهم كانوا يستخدمون السكان العرب في مناطقهم في الأعمال الزراعية ويتعاملون معهم كتعامل ربّ العمل مع العامل في ذلك العصر المتقدم، أي كأنهم أسيادهم، وهذا ما كانت القبيلتان العربيتان الرئيسيتان في المدينة تقبله، خاصةً وأنهم أقل غنىً من اليهود، وهم بالتالي أجراء لديهم. أما الأمر الثاني الذي اتّصف به يهود الحجاز فهو الصلف والتكبّر وإشعار الآخر أنه أقل منزلةً، ذلك لأنهم، إضافةً إلى يسرهم، أصحاب كتاب، ولأن دينهم سماوي متطور قياساً إلى الأديان السائدة في الحجاز في ذلك الوقت، مما أغراهم بتأكيد فكرة أنهم شعب الله المختار، ولعل هذا ما جعلهم - في الغالب الأعمّ - لا يقبلون أن تتهود قبائل أخرى عربية. وكان هذان الأمران هما السببان الرئيسيان لافتخار اليهود وإغرائهم باحتقار الآخرين، من عبدة الأوثان، والفقراء، وهذا ما طبّقوه على الأوس والخزرج، وهما قبيلتان عربيتان كانتا تسكنان يثرب وكانتا من أسيادها في مرحلةٍ ما. ويروى أن اليهود هم الذين أطلقوا على يثرب اسم المدينة، وهي كلمة آرامية الأصل.

حسب معظم المؤرخين، أتى قسم من يهود الحجاز مهاجرين من فلسطين على دفعتين: الأولى في القرن السادس قبل الميلاد (٥٧٠ ق.م) بعد الغزو البابلي لفلسطين وتدمير الهيكل، والثانية بعد تدمير الرومان للهيكل عام ٧٠م. ولكن ليس كل يهود الحجاز أتوا مع هاتين الهجرتين، إذ تعود أصول قسم كبير منهم إلى قبائل عربية تهودت، وبعضها قدم من اليمن، وخاصةً بعد الغزو الحبشي لها وانتقامه من أتباع ذي نواس الذي أحرق المسيحيين هناك. وفي الحالات كلها استوطن يهود الحجاز المدينة (يثرب) والبلدات المحيطة بها، لكنهم لم يندمجوا بالمجتمع المحيط سواء منهم اليهود العرب أم اليهود المهاجرون من فلسطين، وكانوا منغلقين على أنفسهم،

ويميزون أنفسهم عن غيرهم، ويرفضون دخول أحد في دينهم، إلا أنهم تثقفوا بالثقافة العربية، وتبنوا التقاليد العربية، والأعراف، والقوانين غير المكتوبة، وفي الخلاصة تطبّعوا بالطباع العربية. وفي الوقت نفسه تبنّى أهل المدن والبلدات العربية الحجازية بعض الشعائر اليهودية مثل الختان، والغُسل بعد الجنابة، وتجنّب المرأة أثناء الحيض، وهذا كان أمراً طبيعياً لدى القبائل العربية، وكأنها تقاليد عربية. وتبنّى الإسلام بعد مجيئه معظم هذه الشعائر مع بعض التنوعات وتباين الدرجات، فقد كان المسلمون في صلاتهم – على سبيل المثال – يتّخذون القبلة التي كان اليهود يتّخذونها، فكانوا يتوجهون بصلاتهم إلى القدس، وتأثر المسلمون بفكرة الصيام لدى اليهود عبر ما كان يمارسه العرب قبل الإسلام من صيام اليوم العاشر من محرّم، والذي كان يعرف بيوم عاشوراء ويتوافق مع يوم التكفير عند اليهود. وبعد هجرة النبي محمد إلى المدينة وتغيير قبلة الصلاة من القدس إلى مكة أُطيلت مدة الصيام من يوام واحد إلى عشرة أيام، هي الأيام العشرة الأوَل من محرّم، وبعد القطيعة النهائية بين المسلمين واليهود صار الصوم صوماً لشهر رمضان بالكامل[1].

حاول يهود المدينة في المرحلة الأولى من الدعوة الإسلامية أن يستوعبوا هذه الدعوة ويوظفوها لصالحهم، إلا أنهم سرعان ما أخذوا يشكّكون بها ويطلبون من النبي محمد معجزات كشرط لتصديقه ويحرجونه بطرح الأسئلة ويطالبون بمطالب أخرى. وقد نزلت الآية (١٥٣) من سورة النساء رداً عليهم: ﴿يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتابًا مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسى أَكْبَرَ مِنْ ذلِكَ فَقالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ فَعَفَوْنا عَنْ ذلِكَ وَآتَيْنا مُوسى سُلْطانًا مُبِينًا﴾.

رحّب قادة قبيلتي الأوس والخزرج بالدعوة الإسلامية وعقدوا اتفاقاً مع النبي وهو في مكة، ذلك أنهم كانوا يطمحون لأمرين: أولهما مواجهة يهود يثرب بدين سماوي مثل دينهم يسحب من أيديهم وسيلة التباهي بكتابهم المقدس وبدينهم، ومعارضتهم بكتاب مقدس آخر هو القرآن، وبدين سماوي هو الإسلام؛ والأمر الثاني كان طموح الأوس والخزرج في الخلاص من هيمنة قريش على طرق التجارة إلى دمشق وعلى

[1] علي الدشتي، **٢٣ عاماً، دراسة في الممارسة النبوية المحمدية**، دار بترا، دمشق، ٢٠٠٩، ص٩٩.

الحجاز بكامله. ولهذا، ولحاجة النبي إلى مدينة يثبّت أقدامه وأقدام الصحابة فيها، اتّفق الطرفان على بيعة العقبة. ويروى أن العباس بن عبد المطلب، وكان يومئذ على دين قومه ولكنه كان يحمي ابن أخيه، قد حضر التفاوض مع النبي وأشراف الأوس والخزرج في العقبة، وقد تكلّم مستوثقاً للنبي وملحّاً على الطرف الآخر أن يصدق النية، فقال لأهل يثرب بعجل إن قريشاً قد تهاجم محمداً وأن عليهم لهذا السبب أن يبايعوا محمداً، وأن يمنعوه مما يمنعون نساءهم وأبناءهم، وألا يخدعوه بوعود فارغة. ولقد ردّ على ذلك بحماس أحد الخزرج، وهو البراء بن مغرور، فقال إنهم أبناء الحروب وأهل الحلفة (الدروع) ورثوها كابراً عن كابر، وأنهم سيمنعون النبي مما يمنعون نساءهم وأبناءهم. فاعترض القول، والبراء يكلّم النبي، أوسيٌّ مجرّب متبصّر بعواقب الأمور، هو أبو الهيثم بن التيهان، فقال لمحمد: "إن بيننا وبين القوم حبالاً ونحن قاطعوها – وكان يعني اليهود – فهل عسيت إن أظهرك الله ونصرك أن تدعنا وأن تتركنا إليهم؟"، ويقول ابن هشام إن النبي تبسم ثم قال: "بل الدم الدّم والهدم الهدم، أنتم مني وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم"[١].

كان النبي حذراً من اليهود منذ البدء، لا يأمن جانبهم من جهة، ويحاول استصغارهم والإقلال من شأنهم والتأكيد على مقولة أنهم الأضعف من جهة أخرى، وذلك لتجاوز صلفهم وغرورهم وادّعاءاتهم بأنهم الأفضل، وإرضاءً للأوس والخزرج وكسب ودّهم وتخليصهم من الشعور بالخوف من اليهود والشعور بالدونية تجاههم. ولهذا، حالما فشل حصار قريش للمدينة في غزوة الخندق وانجلى تهديد قريش لها، وبسبب رفضهم التعاون مع أبي سفيان (زعيم قريش) كان السبب الرئيس لانتهاء المعركة لصالح المسلمين، فقد حسبوا أنهم يستحقون رفق النبي ولينه على الأقل. غير أن محمداً قرر أن يجليهم لأن وجودهم الدائم في المدينة ضربٌ من الخطر الكامن، كما أن هلاكهم سوف ينشر الخوف من قوة الإسلام ويأتي بالغنائم للمسلمين ويجعل الأوس والخزرج أشدّ ولاءً له وإخلاصاً[٢]. وفيما بعد، وللأهداف نفسها، أحرق النبي نخل بني النضير، ولم يطبّق النبي في الواقع مضمون "صحيفة المدينة" التي كانت

١ المصدر السابق، ص١٣٨.
٢ المصدر السابق، ص١٧٥.

اتفاقية واضحة للتعايش بين المسلمين واليهود، وما أن استقر المسلمون في المدينة وقويت شوكتهم حتى تطلّع النبي لطرد اليهود منها.

كان بنو قينقاع هم أول من طرد من المدينة، واعتمد النبي في طردهم على سبب غير استثنائي في ظروف ذلك الوقت، وهو أن امرأةً مسلمة قدمت إلى سوق بني قينقاع لتبيع حاجات، فطلب منها البائع اليهودي أن تكشف وجهها فرفضت، ثم عقد طرف ثوبها إلى ظهرها، فلما قامت كشفت ما هو مستور، فصاحت واستنجدت فأنجدها مسلم حيث قتل البائع اليهودي، فقام اليهود بالمقابل بقتله، فأمر الرسول بحصار حي بني قينقاع وقطع المؤن عنهم، فاستسلموا بعد خمسة عشر يوماً حسب الشروط التي فرضها المسلمون، وأهمها أن تسلم رقابهم شريطة الجلاء عن يثرب، وأن يتركوا كل ما لهم ومتاعهم سوى ما يمكن للبهائم حمله، ثم وزّعت ممتلكاتهم على المهاجرين المعوزين.

ثم جاء دور بني النضير، الذين غضبوا بسبب اغتيال أحد أشرافهم (كعب بن الأشرف) بأمر من النبي لأنه حاول التآمر مع قريش ضد المسلمين، وحاولوا التمرد على النبي واغتياله، فحاصر المسلمون حيهم، فقاتل بنو النضير بشجاعة، وطالت مدة الحصار، فأمر النبي بقطع نخيل بني النضير وحرقه، ثم اضطر بنو النضير للاستسلام بعد عشرين يوماً، ورحلوا ومعهم ما تستطيع إبلهم حمله وتركوا الباقي من أملاكهم ليوزّع على المسلمين.

لم يكن تعامل النبي مع بني قريظة بعد اتّهامهم بالتواصل مع جيش قريش الذي حاصر المدينة في غزوة الخندق أمراً عادياً، فقد حاصرهم النبي عشرين يوماً، وأخيراً حفر خندقاً ودفن فيه قتلاهم، وانتهى بذلك أمر اليهود في المدينة. أما وجودهم في الحجاز وفي الجزيرة العربية عامةً فقد أنهاه عمر بن الخطاب، الذي هجّرهم إلى العراق والشام، وبذلك انتهى الوجود اليهودي في الجزيرة. وفيما بعد، أي بعد احتلال مدينة القدس من قبل المسلمين، اتّفق عمر – حسب بعض الروايات – مع البطريرك صفرونيوس، واستجابةً لرغبة هذا الأخير، على ألاّ يدخل اليهود المدينة المقدسة. وهذا ما جاء في وثيقة الاتفاق بينهما التي سمّيت لدى المؤرخين "الوثيقة العمرية".

كان اليهود قد سكنوا عدة مدن في الجزيرة العربية أهمها يثرب (المدينة) وخيبر

وفدك وتيماء وغيرها، وقد أشرت قبلاً أن قسماً منهم قدم إلى هذه المدن من اليمن بعد أن غزاها الأحباش ثأراً للنصارى الذين اضطهدهم ذو نواس اليهودي وقتلهم ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بِاللّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (البروج/ ٤-٨)[1]. ويهود اليمن هم عرب تهوّدوا وليسوا كيهود الحجاز (العبرانيين) الذين كانوا يسكنون شمال وغرب الجزيرة العربية، والذين هربوا من فلسطين إلى الجزيرة نجاةً من بطش الرومان بهم[2]. وهذا القسم من يهود شبه الجزيرة العربية (الحجاز خاصةً) قدم من فلسطين على دفعات، بعد السبي البابلي (٥٧٠ ق.م) أو بعد أن هدم الرومان الهيكل مرتين في عامي (٧٠ و١٣٢م)، وسكنوا المدينة (يثرب). ويرى بعض الإخباريين أن ابتداء أمر اليهود في الحجاز ونزولهم مدنه إنما كان في أيام بختنصر (السبي البابلي لليهود ٥٧٠ ق.م)، حيث لمّا جاء بختنصر إلى فلسطين هرب قسمٌ منهم إلى هذه المواضع واستقروا بها حتى مجيء الإسلام[3].

سبى البابليون اليهود بعد احتلالهم فلسطين. ولأن البابليين كانوا يسيطرون على العراق وبلاد الشام، حسب تسمياتنا الحالية، فلم يكن أمام اليهود مخرج سوى أن يهاجروا أو يهربوا إلى الحجاز التي كانت تقع خارج هيمنة البابليين. وقد تكرّر الأمر نفسه أثناء هيمنة الإمبراطورية الرومانية، حيث هدم الرومان الهيكل مرتين، وفتكوا باليهود، فهاجر بعضهم إلى الحجاز، كما فعلوا أيام الغزو البابلي، لأن الإمبراطورية الرومانية كانت تحتل بلاد الشام أيضاً، وفي الحالتين لم يكن لليهود مخرج سوى الهجرة أو الهروب إلى بلاد الحجاز، التي سكنوها قبلاً وتعايشوا مع أهلها واستعربوا فيها. وهذا ما يؤكّده ابن خلدون الذي يقول إنه ورد في روايات أهل الأخبار إشارات عن هجرة بعض اليهود إلى أطراف يثرب وأعالي الحجاز إثر ظهور الروم على بلاد الشام وفتكهم بالعبرانيين وتنكيلهم بهم، مما اضطر بعضهم إلى الفرار إلى تلك الأنحاء

---

١ **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص٤٩.

٢ **ويكيبيديا**.

٣ عبد الرحمن بن خلدون، **التاريخ**، بيروت، ١٩٥٦، مج٢، ص٥٩٤؛ جواد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٠، ج٦، ص٥١٨.

الآمنة البعيدة عن مجالات الروم، وهذا يستند إلى أساس تاريخي صحيح[1] كما يروي ابن خلدون.

إنّ ما اتّفق عليه أكثر المؤرخين إذن هو أن معظم منتسبي قبائل اليهود في الحجاز هم عبرانيون نازحون جرّاء الاضطهاد الروماني في الفترة ما بين عامي ٧٠م و١٣٥م، إضافةً إلى الذين هاجروا جرّاء احتلال البابليين، ولم يكونوا عرباً، أي أنهم الناجون من دمار القدس على يد تيطوس أو الذين تمّ إجلاؤهم (بنو النضير وقريظة) على يد الإمبراطور هادريان، ولذا يطلق عليهم اسم "الكاهنين" نسبةً إلى هارون النبي أخي موسى. وحين انتقلوا إلى الحجاز في الجزيرة العربية جاؤوا إلى يهود سبقوهم (بنو قينقاع)، ويدّعي يهود بنو قينقاع أن أصلهم موغل في القدم بيثرب ويعود إلى زمن موسى، تماماً كما تدّعي الإسرائيليات التي حاول اليهود ترويجها ونقلها إلينا المؤرخون المسلمون.

إذن، فقد فرّ بعض اليهود لاجئاً إلى الجزيرة العربية أثناء فترة حكم الرومان لفلسطين، خاصةً مع تعدد ثورات اليهود وقمعها على يد الرومان وتدميرهم الهيكل وفرض ضرائب خاصة عليهم، مما حدا ببعضهم للفرار بعيداً عن الرومان، فذهب ليستقر في الجزيرة العربية. وهناك، بحكم عامل الاحتكاك بين دين سماوي له كتاب وعقيدة واضحة مترابطة وفقه متين وبين أديان أرضية لا تملك أيّاً من هذا، كان من الطبيعي أن يتغلب الدين السماوي على الأرضي في مجال اللاهوت وفي مجال الثقافة أيضاً.

كان من أهم قبائل اليهود التي هاجرت إلى يثرب: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة وبنو عكرمة وبنو عذرا وبنو زيد وبنو ثعلبة. وقد تعرّبت هذه القبائل، بدءاً بأسمائها وصولاً إلى تقاليدها وعاداتها، مروراً بأنماط حياتها وثقافتها. فبعد مئات السنين من الإقامة بين ظهراني أكثرية عربية لم يكن لهم بدّ من أن يتقرّبوا إليهم، إلاّ أن دينهم وتعاليمه التي زعموها، وخاصةً ما يتعلق منها بأنهم شعبٌ مختار ليس كالشعوب الأخرى، وصلفهم، ونوع الحرف التي مارسوها والتي لم يكن بينها الرعي ولا التجارة مع الشام، وسكناهم متجاورين متكتلين في "غيتو" أو ما يشبه "الغيتو"، هذا كله

[1] تاريخ ابن خلدون، مصدر سابق، مج٢، ص٥٩٤.

أدى إلى عدم ذوبانهم في المجتمع العربي المحيط، وساعدهم على أن يحافظوا على خصوصية مفرطة هدّدها ظهور الإسلام وقيام الدولة العربية المركزية في الجزيرة العربية أولاً، ثم توسع الفتوحات ثانياً، إلى أن أمر عمر بن الخطاب بترحيلهم إلى بلاد الشام والعراق. واستندت السلطات الإسلامية الحاكمة في ذلك الوقت على تعاليم حديث مشكوك بصحته يقول: "لا يسكن في جزيرة العرب دينان". ولا شك أن أسباب ترحيلهم لم تكن دينية، وإنما - حسب عديد من المؤرخين والدارسين - كانت تنفيذاً لاستراتيجية تمّ وضعها بقيادة عمر بن الخطاب تقضي بإطباق الإسلام على الجزيرة العربية وإقامة دولة عربية إسلامية صافية بها. وتنبغي الإشارة إلى أن عمر بن الخطاب أعطى كلاًّ منهم وثيقةً تلزم والي الجهة التي يتوجهون إليها في بلاد الشام أوالعراق بأن يعطيهم مثل أملاكهم التي تركوها في الحجاز، وهذا ما حصل فعلاً سواء مع من هاجر أو من هُجِّر إلى العراق أو سورية.

تعايشت القبائل اليهودية مع القبائل التي كانت تسكن يثرب وخاصةً مع الأوس والخزرج (وهما قبيلتان عربيتان يمنيتان كبيرتان)، واشتغل اليهود بالزراعة والصناعات المعدنية وخاصةً صناعة الأسلحة والصياغة. ونظراً للكسل وعدم الخبرة في الزراعة والتجارة، فإن حياة الأوس والخزرج كانت أقل ازدهاراً من جيرانهم اليهود، وغالباً ما كان أبناء القبيلتين يعملون لديهم. لذلك أثّر فيهم سلباً التفوّق الاقتصادي لدى اليهود عموماً، وكانوا يرون فيهم أسياداً لهم، على الرغم من تحالفهم مع هذه القبيلة اليهودية أو تلك. وتباهى اليهود بتعاليم التوراة وبالدين اليهودي، ولاقت ثقافتهم اهتماماً كبيراً من القبائل العربية في يثرب خاصةً وفي الحجاز عامةً، وكانت هذه الثقافة محطّ إعجاب بعض العرب واحترامهم، خاصةً وأن معظم سكان الحجاز كانوا وثنيين متواضعي الثقافة العامة والثقافة الدينية. وربما كان من أسباب سرعة دخول بعض قبائل يثرب العربية (مثل الأوس والخزرج) في الإسلام أنهم كانوا يأملون أن يتسلّحوا بالإسلام كدين وثقافة يواجهون به اليهود ويخففون غلوهم وافتخارهم الكبير وغير العادي بما لديهم من دين وثقافة، ولأنه إذا ما ثبّت هذا الدين أقدامه فلن يعود بمقدور اليهود أن يدّعوا التفوق بسبب امتلاكهم كتباً مقدسة وكونهم شعب الله

المختار[١]. كما أمل المسلمون أن يؤيّد اليهود دعوتهم لأن الإسلام "متمم للأديان ومكارم الأخلاق" وذو مستوى ثقافي ولاهوتي متقدم أو مثيل لما لديهم على الأقل، وبالتالي فمن المفروض أن يؤيدوه. وهذا ما فعل يهود المدينة عكسه تماماً.

كان اليهود قد انتشروا جماعات استقرت في مواضع المياه والعيون من وادي القرى وتيماء وخيبر إلى يثرب، فبنوا فيها الحصون لحماية أنفسهم وأرضهم وزرعهم ومنع اعتداء الأعراب عليهم. وقد أمّنوا على أنفسهم بالاتفاق مع رؤساء القبائل الساكنة في جوارهم و"وافقوا" على دفع إتاوة لهم وعلى تقديم الهدايا إليهم لاسترضائهم. وكان من شأنهم أيضاً التفريق بين الرؤساء وإثارة الشحناء بين القبائل، حتى لا تصفوا الأحوال فيما بين هذه القبائل وتلتئم، ولئلا يكون اتفاقها والتئامها خطراً يتهدّد اليهود[٢]. وقد واصلت اليهودية انتشارها، واعتنقها كثيرٌ من القبائل العربية والشعوب الأخرى في وقتٍ لاحق، فوصلت أولاً إلى اليمن والحبشة، وبلغ انتشارها ذروته في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد، حيث جُمعت الأسفار من مصادر مختلفة، وكُتبت التوراة في فلسطين بعد انتقال مركز الديانة إليها، أي بعد مضي أكثر من ثلاثة قرون على أسر البابليين لكهنة بني إسرائيل، وبعد ذلك واصلت الديانة الجديدة انتشارها في الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا. وهذا كله قبل ظهور النصرانية والإسلام، وعليه فقد كانت اليهودية ديناً موجوداً في البلاد العربية بين جميع شعوبها والشعوب المجاورة لها من الآشوريين والبابليين والكلدانيين والآراميين والمصريين والأحباش أيضاً. وعند ظهور الإسلام كانت بعض قبائل الجزيرة العربية وحواضرها يدين باليهودية، وكانت مدن تيماء وخيبر ويثرب ونجران مراكز يهودية معروفة[٣]. ومن المؤكد أن سكان الجزيرة كانوا على معرفة كافية باليهود واليهودية منذ ما قبل الميلاد حتى مجيء الإسلام.

رغم انتشار اليهود في عديدٍ من مدن الجزيرة العربية، وتبنيهم عادات وتقاليد وثقافة وأنماط حياة القبائل العربية، وتماهيهم مع النظام القبلي القائم في هذه المدن، فإن هذا لم يمنعهم من السكن في أحياء شبه مغلقة (غيتو)، أو يقلل من حبهم للمال

١ **٢٣ عاماً**، مصدر سابق، ص١٣٥.
٢ جواد علي، **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٠، ج٦، ص٥١٨.
٣ ويكيبيديا.

واشتغالهم بالربا، ونفاقهم للأقوى وللحاكم، وخداعهم الآخر، وإصرارهم على التعالي والرفعة تجاه الناس العاديين. وربما كان اضطرارهم لاتباع هذا الأسلوب سبيلاً لحماية أنفسهم في مراحل التاريخ المختلفة تجاه ما لاقوه من اضطهاد وغزو وتدمير معابدهم وبيوتهم، حتى صار هذا السلوك سلوكاً تقليدياً لهم مارسوه في عديد من البلدان وخلال مراحل التاريخ المتتالية، ولعلّ من المفهوم اتّباع مثل هذا الأسلوب دفاعاً عن النفس.

وفي الوقت نفسه، وكما أشرنا قبلاً، لم يكن أصل بعض القبائل اليهودية من اليهود الذين هاجروا من فلسطين أو من اليمن إلى بلاد الحجاز، أي لم تكن (هذه القبائل) من أصل يهودي، إنما كانت قبائل عربية عديدة (دخلت دين اليهود، لاسيما القبائل المسماة بأسماء عربية أصيلة، ولبعض هذه الأسماء صلة بالوثنية وكانت على الوثنية قبل دخولها دين اليهود)[1]. والظاهر أن هذه القبائل تهودت بعد هجرة اليهود الأولى والثانية والثالثة من اليمن وفلسطين بتأثير التبشير اليهودي في المراحل الأولى لهجرتهم، خاصةً أن الوثنية التي كانت تدين بها القبائل العربية لم يكن بإمكانها أن تصمد أمام ديانة توحيدية (اليهودية) فكان من الطبيعي أن تتهود بعض القبائل بالتبشير، وربما إعجاباً بالدين اليهودي أو بالثقافة اليهودية.

قال ابن قتيبة أثناء حديثه عن أديان العرب في الجاهلية: "إن اليهودية كانت في حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة وبعض قضاعة". وذكر الأمر نفسه ابن حزم الأندلسي الظاهري في **جمهرة أنساب العرب** عند حديثه عن الموضوع نفسه، وقال ذلك ياقوت الحموي في **معجمه**. وقد ذكر صاعد البغدادي الأندلسي، صاحب **المصنّفات**، الذي كان من المقرّبين من محمد بن أبي عامر المعروف بالمنصور، عدداً من القبائل التي تسربت إليها اليهودية، مثل حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة. وذكرت مصادر أخرى أن اليهودية وُجدت في بعض الأوس من قبائل الأنصار وبني نمير وبعض غسان وبعض جذام، بل أن بعض المصادر تذكر أنّ الآية القرآنية ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة/٢٥٦) نزلت بسبب أن بعض

١ **المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، مصدر سابق، ج٦، ص٥٢٥.

الأنصار هوّدوا أولادهم قبل الإسلام، وعندما جاء الإسلام أرادوا أن يقسروا أبناءهم على اعتناق الإسلام، فنزلت هذه الآية التي تنهى عن الإكراه في الدين[1].

من جهة أخرى يعتقد بعض المؤرخين أن يهود الجزيرة العربية جميعاً أصلهم عربي، معللين ذلك بأنهم لا يفترقون عن بقية القبائل العربية في العادات والتقاليد في شيء، حتى أشعارهم لا تتبدّى بها إلا الطبيعة العربية الخالصة، ويضربون المثل على ذلك بشعر السموءل بن عادياء الذي يذكر في **لاميته** المعروفة أنه من بني الديان. وقد عاد اليهود، بعد أن تعزز وجودهم وكيانهم وتحسنت ظروفهم في الحجاز، إلى التقليد اليهودي التلمودي الذي لا يشجّع على دخول "الأغيار" الديانة اليهودية لا بالتبشير ولا بغيره.

على أية حال، كان اليهود معروفين معرفةً واسعة في جزيرة العرب، وكذلك اليهودية، بأيديولوجيتها العامة وعقائدها الكبرى وتوجهاتها اللاهوتية. وقد ساهمت تعاليم التوراة، التي كان يتحدث بها يهود المدينة كثيراً ويفتخرون بتعاليمها أمام مواطنيهم من سكان يثرب، في سهولة تقبّل أهل المدينة الدين الإسلامي عندما تواصل معهم النبي وشرح لهم الدين الجديد وعقيدته وتعاليمه، خاصةً وأنهم كانوا قد سمعوا من اليهود أفكاراً تتعلق بالإله "الواحد المطلق" وخلق الكون والبعث والحساب والجنة والنار وغير ذلك. إلاّ أن انتشار اليهودية في شبه جزيرة العرب بقي حكراً على بعض "المثقفين" ولدى شرائح من الفئة الأرستقراطية والفئات العليا من المجتمع القبلي وقادته وفي المدن الرئيسة خاصةً، أو بين الصنّاع والتجّار، ولكنها لم تكن منتشرة انتشاراً جماهيرياً أو معروفة تماماً لدى الطبقات الدنيا، وكانت معرفتها غالباً حكراً على النخبة باستثناء بعض مناطق اليمن التي كانت اليهودية فيها ديانة شعبية في مرحلة تاريخية سابقة.

كان العرب قبل الإسلام، إذن، يعرفون شيئاً عن اليهود واليهودية، ويقيمون معهم علاقات عادية، شأنهم شأن أية أقلية في الجزيرة داخل هذا المجتمع العربي القبلي الكبير، وكانوا يكنّون للدين اليهودي والثقافة اليهودية احتراماً خاصاً، إلا أن سلوك يهود الجزيرة، وطريقة تصرف المجتمعات اليهودية مع المجتمعات التي تعيش معها

[1] **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق.

أو تجاورها، والتي كانت لا تخلو من التعالي والغطرسة والزهو والفوقية، جعل الأفراد والمجتمعات العربية تنظر بريبة وحذر إلى اليهود وتتّهمهم بالأنانية والنفاق، وأنهم أصحاب الفتن وهواة التفرقة الذين لا يمكن الاطمئنان إلى صداقتهم أو إلى أقوالهم. وكان الجشع المميز لسلوكهم يجعلهم مشدودين إلى الاعتبارات المصلحية المادية الآنية، فهم يقدّسون المال بكيفية تنسيهم إيمانهم، ويتصرفون بغطرسة وعدوانية بدعوى الأفضلية التي منحهم إياها الله. هذا في الوقت الذي يجسّدون فيه أكثر أشكال الجبن التي تدفعهم إلى ممارسة أساليب التآمر والغدر والخيانة، لا التزام لهم ولا عهد يمكن الدخول فيه معهم، لهم نزوع نحو بثّ الفوضى وخلق الفتن، فضلاً عن أنهم يتصرفون بوقاحة وبسفاهة[1].

ومن المهم التذكير هنا بأن اليهود كانوا يعملون أساساً بالزراعة والصناعة، أي في مهن متقدمة على الرعي، وكانت مجتمعاتهم المحلية تتصف ببعض الصفات التي تفرزها عادةً المجتمعات الزراعية أو الحرفية وفي كل المجالات، وخاصةً فيما يتعلق ببعض القيم والتقاليد والسلوك وأنماط الحياة اليومية. وهكذا فإن نظرة عرب الجزيرة إلى اليهودي كانت لا تخلو من مفارقة: إعجاب بثقافته وعقيدته الدينية من جهة، واحتقار لسلوكه وغطرسته وعدوانيته من جهة أخرى، وقد أشار القرآن إلى هذه النظرة وإلى تلك الصفات في أكثر من آية.

خلاصة القول إن اليهود كانوا جزءاً من سكان الجزيرة العربية، وخاصةً من سكان الحجاز واليمن، التي كان لهم فيها وجود سياسي واجتماعي تاريخي. ورأينا أن اضطهادهم للمسيحيين في اليمن كان مبرِّراً لقدوم جيوش الأحباش بدعوة من القائد العربي سيف بن ذي يزن، حيث احتلوا اليمن. إلا أن هذا الوجود السكاني، قليلاً كان أم كثيراً، لم يؤهّلهم ليكونوا جزءاً من النسيج الاجتماعي المتلاحم مع الفئات الاجتماعية الأخرى والتماهي معها، القبلية أو الدينية، وبقوا متمسكين بخصوصية تضع حواجز بينهم وبين هذه الفئات. وكانوا أيام ضعفهم يقبلون دخول الآخرين في ديانتهم، إلا أنهم ما أن تخلصوا من ضعفهم هذا وشعروا بالمساواة مع الآخر حتى عادوا وأخذوا يرفضون الدخول في ديانتهم، لأنها أنزلت إليهم فقط، ولأنهم شعب

[1] انظر محمد نور الدين أفاية، **الغرب المتخيل**، المركز الثقافي العربي، الرباط، ٢٠٠٠، ص٢٩٠.

الله المختار، وكانوا يرفضون أن يشاركهم أحد هذه المأثرة. ولقد أدّت معتقداتهم هذه، وخاصةً بعد أن تحسنت ظروفهم، إلى التمسك بتقاليدهم بالاستعلاء والغطرسة، وإلى الانغلاق على أنفسهم والانعزال عن شرائح المجتمع الأخرى، مما أوصلهم إلى تبنّي قيم وتقاليد شكّلت صورتهم "النمطية" تاريخياً ولدى كل الشعوب، كالتعالي والشعور بالتميز والفردانية من جهة، والانغلاق والجشع وحب المال وعشق "الغيتو" وكره الآخرين من جهة أخرى.

عندما هاجر النبي إلى المدينة وجد أن اليهود يشكلون قسماً كبيراً من سكانها، فهم عدة قبائل وعلى صلة مع قبائل أخرى قريبة من المدينة، وكان بإمكانهم أن يكونوا عدواً عنيداً وقوياً يستطيع الوقوف بوجه الدعوة الإسلامية الجديدة، سواء لأنهم كتابيون وأهل دين سماوي أم لأن لهم ثقلاً سكانياً مؤثراً في يثرب أم أخيراً لأن الدين الجديد يشكل خطراً عليهم. ولهذا تعامل النبي معهم تعاملاً خاصاً وناجحاً بأن انطلق من الاعتراف بتعددية سكان المدينة، وصاغ ميثاقاً بهذا المعنى يحترم حقوق الجميع سمّي "صحيفة المدينة" أو "وثيقة المدينة" وأحياناً "دستور المدينة". والوثيقة هي معاهدة عدم اعتداء (عهد الموادعة) وتنصّ علي التعاون في ظروف معينة، ذلك أن هذه الموادعة أقرّت بقاء المسلمين واليهود كلٍّ على دينه على أنّ بينهم النصر على من دهم يثرب، سواء كانت قريش أم أية قبيلة أخرى، وعلى أن يكون على كل أناسٍ حصتهم من جانبهم الذي قِبلتهم فيتحمل كل طرف كافة عملياته الحربية في مواجهة القبائل المعادية[1].

تقول الروايات العربية، كما روى الطبري عن ابن عباس، أن اليهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج (القبيلتان العربيتان الكبيرتان في يثرب) برسول الله قبل بعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، حيث كانوا يقولون بقرب مجيء رسول يؤكد ما كانوا يطرحونه على أنه ديانتهم، كما كانوا يعتقدون أن هذا النبي المنتظر سيكون من اليهود، وقد ساهموا بنشر هذه الأسطورة في يثرب وفي المدن الأخرى التي يسكنها اليهود، حتى دخلت في عمق ثقافة الناس وتوقعاتهم، ولعلهم فعلوا ذلك لتأكيد أهميتهم وإخافة الآخرين مما سيأتي. فقال لهم معاذ بن جبل

[1] **٢٣ عاماً**، مصدر سابق، ص١٤٩.

وبشر بن البراء بن معرور: يا معشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبرونا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته. فقال سلام بن مشكم: "... ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم"، أي أن ما جاء به محمد يختلف عن معتقداتنا، وليس هو من كنا نقول لكم أنه سيأتي. وقد نزلت الآية ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة/٨٩) ردّاً على موقفهم.

أنكر يهود المدينة نبوة محمد ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة/١٠١) وقالوا إنه ليس النبي المنتظر، وطالبوه أن ينزل عليهم كتاباً من السماء: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ (النساء/١٥٣). وقد اتّهم بعض اليهود النبي محمداً بأنه اقتبس وبصورة محرّفة من التوراة، وأنّ له أطماعاً شخصية في بسط هيمنته على المدينة، وأنه كي يزيد معرفته بالديانة اليهودية قام بمصادقة اليهود والتقرّب إليهم وتقليد طقوسهم ثم ارتدّ عليهم. وقد وجّه يهود المدينة سلسلةً من الطعنات لشخصية النبي محمد، حيث اتُّهم من قبل اليهود بأنه يحاول السيطرة على مقاليد الحكم في المدينة، وأنه استعمل أحبار اليهود ليتعلم أكثر عن الدين ويعرف التسلسل الزمني لظهور الأنبياء الذي لم يكن على علم به، وزعموا أنه عندما انتهت حاجته إليهم بدأ بتصفيتهم، وطالبوا بأن يكلّمهمً الله مباشرةً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ (البقرة/١١٨)، وأكّدوا أنهم لم يقاوموا النبي محمداً الذي لا تسنده المعجزات، وتحالفوا مع القبائل العربية ضد المسلمين.

بعد الهجرة إلى يثرب أصدر النبي محمد "صحيفة المدينة" في العام الأول الهجري وأعلنها بنفسه. وقد عالجت، إضافةً إلى ما أشرنا إليه آنفاً، تعايش عدة مجموعات من سكان يثرب كانت متباينة أحياناً ومتنافرة أحياناً أخرى، منها المسلمون والمشركون والأنصار والمهاجرون واليهود (على مختلف قبائلهم). وكان من الضروري إيجاد

صيغة عقدية تضع هذه الشرائح جميعها في إطار واحد وتخضعها لقانون واحد في عصر كانت تغلب عليه العلاقات القبلية (سياسياً واقتصادياً واجتماعياً) وتحكمه هذه العلاقات بقيمها وتقاليدها. وقد أدرك النبي أن يثرب ستكون نواة (أو عاصمة) الدولة الإسلامية الناشئة بعد انتصار الإسلام، فأراد من هذه الوثيقة كما يبدو، التي سمّاها "صحيفة المدينة" وتسمى الآن في الأدبيات الإسلامية المعاصرة "دستور المدينة"، أن تكون أساساً لعقد اجتماعي سياسي ليس لسكان المدينة فقط بل لسكان الدولة المقبلة كلها.

كانت تركيبة سكان المدينة شديدة التعقيد، تقوم فيها، شأن المدن والأرياف في الجزيرة العربية في ذلك الوقت، الصراعات القبلية والنزاعات الإقليمية والخلافات الدينية أيضاً، سواء قبل مجيء الإسلام أم بعده. فكلٌّ من فئات سكانها له نزعة تفوّق خاصة، حيث يعتبر انتماءه هو الأهم، وكان من الصعب إيجاد صيغة أو قانون أو عهد أو وثيقة تؤالف بين جميع النزعات وبين هذه التيارات القبلية والدينية والإثنية. ومن هنا جاءت أهمية هذه الوثيقة التي كانت في الواقع صالحة لتكون "دستوراً" أولياً للدولة الإسلامية بعد انتصارها، مع الأخذ بعين الاعتبار الظروف والزمان والمكان والتنوع الإثني والديني والقبلي الذي كان قائماً في ذلك الوقت، بالإضافة إلى نزعات التعصب وضعف التعاون بين الفئات المتنوعة والمتنافرة في أحيان كثيرة.

أصدر النبي "صحيفة المدينة" باعتباره زعيم فئة دينية واجتماعية وربما كرئيس دولة مقبل، وليس كنبي، وبالتالي فـ"صحيفة المدينة" هي أمر دنيوي أخذ باعتباره ظروف يثرب وسكانها وتشكيلاتها الاجتماعية والاقتصادية وحاجة الدين الجديد إلى قاعدة يقف عليها. ويلاحظ أن بعض تيارات الإسلام السياسي في أيامنا تتحدث عن "صحيفة المدينة" بوصفها أول دستور في تاريخ البشرية، وتطرحه على أنه صالح لكلِّ زمانٍ ومكان، كما هو صالح ليكون أساساً لأي دستور معاصر، متجاهلةً (أي قيادات الإسلام السياسي المعاصرة) الظروف والزمان والمكان الذي أُعلنت فيها "الصحيفة"، خاصةً وأنها كانت حاجة حياتية لا علاقة لها بالدين. وهذا لا ينتقص من أهمية "الصحيفة" التي أدركت في وقتٍ مبكر من تاريخ العرب أهمية تنظيم الحياة

الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بما يشبه العقد الاجتماعي في أيامنا، ولا شك أن "صحيفة المدينة" كانت خطوة سياسية اجتماعية متقدمة على ما كان في عصرها من نظم وأنماط علاقات بين التجمعات السكانية قبل نشوء الدولة الإسلامية المركزية في الجزيرة العربية.

وقد نصّت "الصحيفة" بالنسبة لليهود على ما يلي[1]:

> إنّ الْيَهُودَ يُنْفقُونَ مَعَ الْمُؤْمنينَ مَا دَامُوا مُحَارَبينَ، وَإنّ يَهُودَ بَني عَوْف أُمّةٌ مَعَ الْمُؤْمنينَ للْيَهُود دينُهُمْ وَللْمُسْلمَيْن دينُهُمْ مَوَاليهمْ وَأَنْفُسُهُمْ إلّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثمَ فَإنّهُ لَا يُوتغُ إلّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْته، وَإنّ ليَهُود بَني النّجّار وليَهُود بَني الْحَارث وليَهُود بَني سَاعدَةَ وَ ليَهُود بَني جُشَم وَليَهُود بَني الْأَوْس وَليَهُود بَني ثَعْلَبَةَ مثْلَ مَا ليَهُود بَني عَوْف إلّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثمَ فَإنّهُ لَا يُوتغُ إلّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْته. وَإنّ بطَانَةَ يَهُودَ كَأَنْفُسهمْ وَإنّهُ لَا يَخْرُجُ منْهُمْ أَحَدٌ إلّا بإذْن مُحَمّد صَلّى اللهُ عَلَيْه وَسَلّمَ. وَإنّ عَلَى الْيَهُود نَفَقَتَهُمْ وَعَلَى الْمُسْلمينَ نَفَقَتَهُمْ وَإنّ بَيْنَهُمْ النّصْرَ عَلَى مَنْ حَارَبَ أَهْلَ هَذه الصّحيفَة وَإنّ بَيْنَهُمْ النّصْحَ وَالنّصيحَةَ وَالْبرّ دُونَ الْإثْم (مفهوم المواطنة الصالحة) وَإنّهُ لَمْ يَأْثَمْ امْرُؤٌ بحَليفه. وَإنّ النّصْرَ للْمَظْلُوم وَإنّ الْيَهُودَ يُنْفقُونَ مَعَ الْمُؤْمنينَ مَا دَامُوا مُحَارَبينَ. وَإنّ يَثْربَ حَرَامٌ جَوْفُهَا لأَهْل هَذه الصّحيفَة (مفهوم الحدود الجغرافية). وَإنّ يَهُودَ الْأَوْس، مَوَاليَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ عَلَى مثْل مَا لأَهْل هَذه الصّحيفَة مَعَ الْبرّ الْمَحْض منْ أَهْل هَذه الصّحيفَة.

وقد تضمّنت "صحيفة المدينة" أهم المبادئ الأساسية والإدارية للدولة بمفاهيم ذلك العصر وعلى رأسها[2]:

احترام حرية الاعتقاد، إقامة العدل، القصاص، الدفاع عن الوطن والإنفاق عليه بصورة جماعية، العمل لحفظ أمن الدولة والمواطنين، تحديد مرجعية للخلافات وتحريم التعاون مع العدو أوحمايته، وقررت أن لا يعاقب شخص بذنب أو جريمة

---

١ هذا هو النص الأصلي، وقد أوردنا بين قوسين تفسير الكلمة التي تسبق هذين القوسين كما شرحها الدكتور محمود عثمان رزق في دراسة على الإنترنيت.

٢ ١٦– اقتباس من الدكتور محمود عثمان رزق، "المدينة أول دستور أسس دولة في التاريخ"، الإنترنيت.

شخص آخر، وأوصت بعدم التستر على المجرمين وحمايتهم، وإيقاف ثارات الجاهلية، وأشارت إلى الحدود الجغرافية، وطالبت بضمان العهود والمواثيق.

اليهود في صدر الدولة الإسلامية[1]

لقد فشلت كل محاولات اليهود لإثارة الفتنة في المدينة، ومحاولات التفرقة بين القبائل وبين المهاجرين والأنصار، واتّهام محمد بأنه غير صادق ومحاولة الاستهزاء به، والزعم بأنه يستقي معظم تعاليمه من التوراة، والتشهير به لعدم استطاعته تقديم المعجزات، وأخيراً فشل تآمرهم ومحاولاتهم السرية بالاتفاق مع مشركي قريش للقضاء على محمد وأنصاره، وخاصةً خلال غزوة الخندق، وفي النهاية خاب أمل اليهود في القضاء على الدين الجديد وعلى انتشاره وتوسعه، فاضطروا للسكوت، وفي الواقع للاستسلام، وحوّلوا أنفسهم إلى مواطنين من الدرجة الثانية في الدولة الإسلامية الناشئة. ولكنهم كانوا يستغلون كل فرصة لإثارة الفتنة، والتشكيك بالدعوة الجديدة، وإثارة الخلافات بين القبائل وبين المهاجرين والأنصار، ومقاومة قيام دولة مركزية. ومع ذلك، ففي عهد الخلفاء الراشدين نُظّمت العلاقة بين المسلمين واليهود على قاعدة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" التي أقرّها الإسلام لأهل الذمة، وذلك بإقامة علاقات على أساس من الاعتراف والاحترام، والرفق بهم، والعطف عليهم، وإباحة التعامل الشخصي معهم في الوظائف وفي البيع، وحق الحرية في العقائد، وإسناد الأحوال الشخصية بهم إليهم كالزواج والطلاق وغيره[2]. ثم، ولأسباب مختلفة، تمّ تهجير بني قينقاع ثم بني النصير ثم بني قريظة من المدينة.

ولكن هناك أمر يصعب إيجاد تفسير له هو قرار عمر بن الخطاب تهجير يهود الحجاز جميعهم إلى العراق والشام، خاصةً وأن عمر هو الذي طبّق من دون تردد موضوعة "لنا ما لهم وعلينا ما عليهم"، وكان الأكثر عدلاً، فاحترم عقائدهم وحقوقهم ومواطنتهم. وعليه فإن رجلاً من يهود دمشق كان أول من دعا عمر بالفاروق، حسب

١ **الآخر في الثقافة العربية**، مصدر سابق، ص٩٧.

٢ مراد بن أحمد القدسي، "عداء اليهود للإسلام عبر التاريخ"، منبر موسوعة الخطب.

رواية الطبري، حيث كان اليهود يعتبرونه وجهاً خلاصياً. ويرى بعض المؤرخين أن أمر التهجير لا علاقة جدية له بالدين أو بتعاليم الدين، وإنما هو أمر سياسي كان لتثبيت الدولة المركزية في الجزيرة وتقويتها بحاجة إليه. وهذا ما فعله عمر، بدليل أنه أمر حكّام الولايات، التي هاجر إليها اليهود واختاروها، أن يمنحوهم مقابل أملاكهم التي كانت في الحجاز دون أي نقصان. ولم يبقَ الموقف من اليهود نفسه بعد توسّع الفتوحات كما كان بعد هجرة الرسول وأيام دولة المدينة، لأنهم رحلوا من المدينة إلى جنوب سورية وإلى العراق أو رُحّلوا إلى هذه البلدان.

لقد تقلّص الوجود اليهودي في الجزيرة العربية بإسلام الكثير ممن تهوّد من القبائل العربية طواعيةً، مثل قبائل الحارث بن كعب وكنانة وكندة وقضاعة وجذام وغيرهم. وشاركت تلك القبائل في حركات الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وفي عهد الدولة الأموية وشطراً من الدولة العباسية، حتى أسقطهم المعتصم مع سائر القبائل العربية من ديوان الجند مستبدلاً بهم الأتراك، كما شاركت تلك القبائل في الفتنة الكبرى كمعظم القبائل العربية. وقد خرج بعض اليهود من الجزيرة العربية، واكتمل الخروج من شمال الجزيرة في عهد عمر بن الخطاب. أما في جنوب الجزيرة العربية فقد ظل الوجود اليهودي متواصلاً في اليمن بلا انقطاع حتى اليوم، وإن تقلّص كثيراً بالهجرة الطوعية إلى خارج اليمن. كما لا تزال هناك جالية يهودية صغيرة في البحرين[1]. ولم يعد اليهود نِدّاً لأتباع الدين الجديد كما كان الأمر عند الهجرة النبوية، خاصةً بعد أن انتصر الإسلام واستكمل عقيدته وشريعته واتّسعت فتوحاته وخضعت له شعوب وأديان، فأصبح اليهود من حيث عددهم أو من حيث عقيدتهم يشكّلون نقطة في بحر الدين الجديد ولاهوته واتّساعه وسلطته وفي فضاء الدولة العربية الإسلامية. ولم يعد المسلمون يخشونهم أو يخافون تآمرهم ومكائدهم ونفاقهم وتواطؤهم مع الآخرين ضدهم. كما لم يعد باستطاعتهم الاستمرار في الحراك السلبي ضد الدولة الجديدة أو الدين الجديد. فتغير موقف المسلمين منهم تغيراً بيّناً وغدا أكثر جرأةً، وانتقل المسلمون من مرحلة الحذر والخشية من اليهود، التي كانت في الأيام الأولى للهجرة إلى المدينة، إلى مواقف هجومية فيها شيء من العدوانية، فنقدوا واستمروا في

[1] ولهذه الجالية نائب في المجلس النيابي البحريني ولها سفيرة بحرينية أيضاً.

نقد لاهوتهم ومعتقداتهم نقداً عنيفاً، ومعاملتهم كأتباع للدولة غير متساوين معهم، وأخذوا يفرضون عليهم الضرائب ويتدخلون في تحديد نمط سلوكهم ونوع لباسهم واحتفالاتهم وممارسة عباداتهم وما أشبه ذلك. وظهر هذا جلياً في مراحل ثلاث: الأولى أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي، والثانية أيام الخليفة المتوكل العباسي، والثالثة أيام الحاكم بأمر الله الفاطمي.

كان اليهود منتشرين في معظم الدول الإسلامية، في العراق وبلاد فارس وآسيا الوسطى، وكان أغلب العاملين في الشؤون المالية في الشام يهوداً. واشتهر اليهود باحترافهم حرفاً خاصة كالصيرفة ودباغة الجلود والصياغة، واشتغلوا خاصةً بالحرف التي كانت حرفاً يرفض العرب امتهانها كالصناعة والدباغة والحلاقة وغيرها، وقد قال الجاحظ ساخراً من حرفهم: "ولا نجد اليهودي إلا صبّاغاً أو دبّاغاً أو حجّاماً أو قصّاباً أو شعّاباً"[1]. وكان يوجد نزاع شديد وكره متبادل بين اليهودية والفلسفة اليونانية من جهة (ولكلٍّ منهما أسبابها)، وبينهما معاً وبين المسيحية من جهة أخرى، وخاصةً فيما يتعلق بالعقيدة واللاهوت والثقافة وطبيعة الانتماء إلى المجتمع، باعتبار أن المسيحيين كانوا من نسيج المجتمع العربي الذي يعيشون فيه ومتحدين معه، بينما اليهود كانوا دائماً في عزلة وغريبين عنه. وعلى أية حال، كانت لهم ثقافة خاصة باعتبار أن دينهم، كما يرونه، أساس الأديان، ونبيهم الأول (إبراهيم الخليل) أب لكل الأنبياء، وكتابهم التوراة مرجع للإنجيل والقرآن، وعاصمتهم القدس عاصمة الإسلام الأولى وعاصمة للمسيحية. وكانت هذه الثقافة واسعة وغنية نسبياً في مختلف جوانبها الدينية والتاريخية والقانونية وغيرها، وهي في معظمها مستندة إلى التلمود على سعة حجمه[2]. وقد تسربت ثقافتهم ووجهات نظرهم ومواقفهم من الكون والحياة إلى بعض جيرانهم العرب، وبهذا الشأن قال أبو هريرة وهو راوي حديث مشهور: "كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها لأهل الإسلام بالعربية".

من جهة أخرى، كان العداء اليهودي للإسلام شديداً وعنيفاً منذ الأيام الأولى للدعوة الإسلامية كما أشرنا، سواء لأنه دين سماوي يمكن أن يكون ندّاً لعقائدهم

١ رسائل الجاحظ، ص٢٣٩.
٢ يبلغ حجمه ثلاثين مجلداً.

بسعته وشموله وتوحيده أم لأن العرب هم الذين تلقوه في جزيرتهم وتبنّوه، فهو ابنها ووليدها وأول دين سماوي في الجزيرة ينافسهم، أم ربما لأن هجرة المسلمين إلى المدينة (وكان اليهود يقيمون فيها) شكّلت خطراً عليهم، فقابلوا الإسلام والمسلمين بالازدراء، وكانوا يشعرون بالتفوق عليهم.

اليهود في الأندلس

مع تفكك الخلافة الأموية والحكم المركزي في إسبانيا انقسمت الأندلس إلى دويلات وإمارات إسلامية صغيرة خضعت لما سمّي "حكم الطوائف" (١٠٠٨م)، فاستخدم الأمراء كثيراً من اليهود مثل صموئيل بن نغريلة وزير أمير غرناطة، وكان اليهود عموماً يعملون مستشارين ماليين وسياسيين لأمراء الدويلات، وفي البعثات الخارجية للدول الأخرى، ورجال بلاط وملتزمي ضرائب[١].

كان العصر الإسلامي في الأندلس يمثّل العصر الذهبي لليهود، إذ ازدهر الفكر اليهودي الديني والفلسفي نتيجة الاحتكاك بالمسلمين العرب، واكتسبت اللغة العبرية أبعاداً جديدة من خلال علاقتها بالعربية، ودخلت عناصر الحياة على الشعر العبري كما هو واضح في أشعار يهودا اللاوي وهاليفي وموسى بن عزرا. وكتب المؤلفون اليهود موشّحات لم تكن تحاكي الموشّحات العربية بشكل عام وحسب، وإنما قلّدت موشحات عربية بعينها دون تعديل أو تحوير. ونشأ فن المقامة في العبرية، وتُرجمت **مقامات الحريري** و**كليلة ودمنة** إلى العبرية، واشتهر موسى بن ميمون[٢]، أهم المفكرين الدينيين اليهود على الإطلاق، حيث كان لفكره العربي الإسلامي اليهودي أعمق الأثر

١ سعد عبد السادة، "تاريخ اليهود في إسبانيا"، المنتدى الإسباني، ٢٠١٠/٨/٣.

٢ موسى بن ميمون بن عبيد الله القرطبي (١١٣٥–١٢٠٤) المشهور (بالرمبم) أي الحاخام موشيه بن ميمون، واشتهر عند العرب بلقب الرئيس موسى. وُلد في قرطبة ببلاد الأندلس في القرن الثاني عشر الميلادي، ومن هناك انتقلت عائلته سنة ١١٥٩ إلى مدينة فاس المغربية حيث درس بجامعة القرويين، وسنة ١١٦٥ إلى فلسطين، واستقرت في مصر آخر الأمر، وهناك عاش حتى وفاته. عمل في مصر نقيباً للطائفة اليهودية، وطبيباً لبلاط الوزير الفاضل أو السلطان صلاح الدين الأيوبي، وكذلك استطبّه ولده الملك الأفضل علي. كان أوحد زمانه في مهنة الطب ومتفنن في العلوم وله معرفة جيدة بعلم الفلسفة. يوجد معبد باسمه في العباسية بالقاهرة.

في الفكر اليهودي في كل أنحاء العالم[1].

لاقى يهود الأندلس ما لاقاه المسلمون من اضطهاد وتهجير ومثول أمام محاكم التفتيش وإعدام وغير ذلك من صنوف التعذيب، وهاجروا إلى البلدان العربية (بلدان شمال أفريقيا وبلاد الشام) وإلى الدولة العثمانية التي تسامحت معهم وساعدتهم. وقد استقبلتهم هذه البلدان كما استقبلت المسلمين المطرودين، ورحّبت بهم، وأفسحت لهم المجال للعمل والعيش، وعاملتهم كمواطنيها، وقد أشرنا إلى أن موسى بن ميمون (المفكر اليهودي المشهور) كان مستشاراً للقائد صلاح الدين الأيوبي أيام الحروب الصليبية.

التعاون مع الدولة العثمانية

أثناء الفتح العثماني لآسيا الصغرى وبعض أنحاء أوربا تعاون يهود أوروبا مع القوات العثمانية الفاتحة، فقد تعاون معها يهود بورصة التي فتحت عام (١٣٥٤م) وأدرنة والقسطنطينية عامي (١٤٣٣ و١٤٥٢م) وبودا عام (١٥٢٦م) وبلغراد عام (١٥٤٣م)، ولذلك رحّبت الدولة العثمانية بالمهاجرين من أعضاء الجماعات اليهودية، فهاجرت أعداد كبيرة إليها وخاصةً من يهود الأندلس وتحوّلوا إلى عثمانيين بمحض إرادتهم، أي أنهم هاجروا إليها واستوطنوا فيها وجعلوها وطنهم الوحيد، واندمجوا في الحضارة الإسلامية. ولكن، مع ذلك، لم يسكن في الدولة العثمانية عبر تاريخها سوى أقلية من يهود العالم، إذ أن مركز اليهود السكاني كان قد انتقل إلى أوروبا ابتداءً من القرن الرابع عشر الميلادي، ولم يتجاوز عدد اليهود في الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر ثلاثمائة ألف، أي أقلية صغيرة للغاية بالقياس إلى يهود العالم الغربي الذين كانوا على عتبات الانفجار السكاني (حيث زاد عددهم إلى عشرة ملايين مع أواخر القرن التاسع عشر)، وهو انفجار لم يكن له ما يناظره في الدولة العثمانية[2].

يبدو أن اليهود ساهموا في نقل بعض جوانب تكنولوجيا السلاح من الغرب إلى

١ "تاريخ اليهود في إسبانيا"، مصدر سابق.

٢ د. عبد الوهاب المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، الفصل الثالث: "اليهود في الدولة العثمانية وفارس بعد انتشار الإسلام"، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩.

الدولة العثمانية، وهو ما سبب حنق السياسيين الغربيين عليهم لأنهم عدّوهم مسؤولين عن التفوق العسكري العثماني. كما أنهم نقلوا فن الطباعة، واشتغلوا بالصناعة، فأسّسوا كثيراً من مصانع النسيج، واشتغلوا بالتجارة الدولية، وشكّلوا جماعة وظيفية وسيطة بين الدولة العثمانية وأوربا. وعمل اليهود في الوظائف المالية مثل الإقراض بالربا، كما أنهم اضطلعوا بوظيفة المديرين الماليين للولاة العثمانيين ولكثير من الباشوات العثمانيين.

دأب الأوروبيون على الخلط بين العرب والمسلمين، واعتبار أي منهما هو الآخر، وفي ضوء ذلك، فمثلما ألقوا مسؤولية احتلال أوروبا من قبل العثمانيين على الإسلام والمسلمين، ألقوه أيضاً على العرب، بكل ما فيه، واعتبروا أن الممارسات والتقاليد والقيم والعادات العثمانية هي إسلامية وبالتالي عربية. ولذلك لا بدّ من أخذ التواجد اليهودي في الدولة العثمانية بالاعتبار، لأهميته في معرفة صورة العرب لدى اليهود ولدى الأوروبيين عامة.

من أهم الوظائف التي اضطلع بها اليهود تلك الوظائف المرتبطة بالضرائب، سواء أكانوا جامعي أو ملتزمي أو مفتشي ضرائب أو موظفي جمارك. وكانت أغلبية العاملين في الضرائب في الدولة العثمانية من أعضاء الجماعات اليهودية، كما كانت الدولة العربية الإسلامية وولاياتها قبل ذلك قد استعانت، منذ تأسيسها أيام الأمويين وطوال المراحل التاريخية اللاحقة، باليهود في تسيير الشؤون المالية للدولة وللولايات. وقد امتهن اليهود هذه المهنة (الشؤون المالية) واشتهروا بها، وخاصةً في مجال جباية الضرائب وتنظيم الأمور المالية للخليفة أو الوالي أو الدولة، ولعل ذلك لم يكن في الدولة الإسلامية وما تفرع عنها من دول ودويلات وإمارات فقط، وإنما أيضاً في دول أخرى، وبقي اليهود حتى عصرنا الحاضر مشهورين بالصيرفة وبالعمل في الشؤون المالية، بما في ذلك الربا، ولعلنا نتذكر مسرحية شكسبير **تاجر البندقية**، حتى أن الإيصالات في بعض أيام العثمانيين كثيراً ما كانت تُكتَب بحروف عبرية. ومن أهم الوظائف التي اضطلعوا بها أيضاً وظيفة أمين الإمدادات والتموين للقوات الإنكشارية، وهي وظيفة تختلف عن نظيرتها في العصر الحديث في أنّ من كان يضطلع بها لم يكن موظفاً حكومياً وإنما كان مموِّلاً يقوم بنشاط تجاري حر مثل شراء التموينات والزيّ العسكري للإنكشارية وتدبيرها لهم، وكانت الوظيفة وراثية محصورة في

عدد محدود من الأسر اليهودية. وقد نشأت هذه العلاقة بين الإنكشارية والمموِّلين اليهود أينما وُجدت قوات الإنكشارية في إسطنبول وسالونيكا ومعظم المدن التركية الأخرى. ونشأت حول المموِّلين شبكة تجارية صناعية مالية من اليهود، فكانت مصانع النسيج اليهودية فعلاً تساهم في صناعة الأزياء العسكرية للإنكشارية. ولعل ارتباط اليهود بصناعة النسيج في كثير من البلاد، مثل الولايات المتحدة وغيرها، كان سبباً في أنهم يرتبطون بالمؤسسة العسكرية التي تحتاج إلى كميات كبيرة من المنسوجات الخاصة بالزي العسكري. واستمرت العلاقة بين الإنكشارية وأعضاء الجماعة اليهودية حتى عام ١٨٢٦م عندما حُلَّت الإنكشارية. وقد اتسمت العلاقة بين أعضاء الجماعة اليهودية والنخبة الحاكمة بكثير من الانسجام والتفاهم لأن العنصر اليهودي كان مكمِّلاً لنشاطات أعضاء النخبة الحاكمة لا متناقضاً معها، على عكس الوضع في كثيرٍ من بلاد أوروبا[1].

لقد شكل يهود الدولة العثمانية آلية اقتصادية شبه مغلقة، من خلال توليهم نشاطات اقتصادية متشابكة، وخاصةً تلك المتعلقة بالجيش الانكشاري، وهو الفصيل القوي في العسكرية العثمانية، واستفادوا من علاقتهم معه، ليس فقط في مجال تأمين أزيائه وألبسته، وإنما أيضاً في تنشيط العلاقة مع المؤسسات ذات العلاقة، والتي حاولوا أن تكون نشاطاتها بيد اليهود أيضاً.

أما في بلاد الفرس[2]، فبعد الفتح الإسلامي للمنطقة ودخول الفرس إلى الإسلام تمّ دمج أعضاء الجماعة اليهودية في فارس في الإطار الإسلامي الأكبر، وأصبح أعضاء الجماعة تابعين لرئيس اليهود في بغداد الذي كان يُسمَّى "رأس الجالوت، أي أمير يهود المنفى"، وكانوا يعتمدون على الفتاوى التي تصدرها الحلقة التلمودية في العراق. وقد ازدهرت حياة اليهود الثقافية وتأثروا بالمحيط الإسلامي، وظهر المذهب القرّائي تعبيراً عن هذا التفاعل. وتمتّع يهود فارس بحرية الحركة والانتقال التي تمتّع بها أهل الذمة آنذاك نتيجة توحيد المنطقة تحت راية الإسلام ولاستتباب الأمن والأمان.

١ المصدر السابق.

٢ إن اعتبار المسلمين والعرب فريقاً واحداً في تعاملهم مع اليهود ينطبق أيضاً على الدولة الفارسية، كما انطبق على الدولة العثمانية، ولعل التفريق بين العرب والمسلمين في موقفهم من اليهود هو أمر حديث العهد بل أمر معاصر، وربما تأكد بعد قيام دولة إسرائيل.

لم يكن وضع اليهود الاقتصادي مختلفاً عن وضع بقية أهل الذمة، فكان منهم النسّاجون والصبّاغون وصائغو الذهب والفضة، وكان منهم التجار وخاصةً تجار الخمور. وظهرت طبقة من التجار اليهود الأثرياء في أصفهان وشيراز والأهواز. وتزايدت أهمية بعض أثرياء اليهود (الصيارفة) ابتداءً من القرن العاشر الميلادي، فكان منهم الجهابذة، أي صيارفة البلاط الذين كانوا يُقرضون الوزراء والخلفاء العباسيين والسلاجقة من بعدهم. وحينما غزا المغول الدولة الإسلامية تعاون معهم أعضاء الجماعة اليهودية، وبرز نجم سعد الدولة الذي أصبح وزير مالية الإمبراطور المغولي وظل يشغل هذا المنصب حتى اغتياله عام ١٢٩١م، وقد عُيِّن بعده رشيد الدولة الذي أُعدم عام ١٣١٨م. ثم ظهرت الأسرة الصفوية التي فصلت اليهود عن المحيط الحضاري السنّي، فدخلوا المحيط الحضاري الشيعي[١].

ونلاحظ أن الأقلية اليهودية في الدول والدويلات العربية والإسلامية تعاونت دائماً مع الفئة الحاكمة مهما كانت مستبدة أو فاسدة، وكانت تفصل نفسها عن النسيج الاجتماعي للبلاد وعن قضاياها العامة، ولذلك تعاون اليهود مع المحتلين كما هو حالهم مع المغول ومع العثمانيين بما في ذلك (الجيش الإنكشاري). وكان اليهود يفصلون أنفسهم اختيارياً عن باقي فئات الشعب وهمومها واهتماماتها ومطامحها، ويهتمون فقط بشؤونهم هم وبمصالح جاليتهم، حتى لو كان ذلك يخالف التوجّه العام للفئات الشعبية الأخرى. وساءت أحوالهم أيام الحكم الصفوي الذي تعامل معهم باحتقار وازدراء وضيّق عليهم، على عكس ما كان الأمر تحت حكم الدولة العثمانية. وهكذا اختلف حال اليهود عندما حكمت الأسرة الصفوية التي جعلت المذهب الشيعي دين الدولة، كما جعلت طبقة رجال الدين الشيعة الملالي (عمودها الفقري). واتّسم حكمها باضطهاد الأقليات، فطُبِّق على اليهود المفهوم الشيعي الخاص بنجاسة أهل الذمة، وانقطعت العلاقة تماماً بين أعضاء الجماعة اليهودية ورأس الجالوت في بغداد، وأصبحت لهم قيادتهم المحلية.

لقد زادت عملية قمع اليهود تحت حكم الأسرة القاجارية (١٧٩٥م – ١٩٢٥م)، كما كان الحال في مشهد عام ١٨٣٩م، وفُرض الإسلام قسراً على بعض أعضاء

١ المصدر السابق.

الجماعة اليهودية فتحولوا إلى يهود متخفّين، أي أبطنوا اليهودية وأظهروا الإسلام، وأُطلق عليهم مصطلح "جديدو الإسلام"، وأصبح من حق اليهودي الذي يعتنق الإسلام أن يرث ممتلكات كل أعضاء أسرته الذين ظلّوا على دينهم.

تَدنَّى وضع اليهود الاقتصادي في الدويلات الفارسية وازداد إقبالهم على صناعة الخمور، الأمر الذي أدَّى إلى زيادة التوترات بينهم وبين الأغلبية المسلمة. على عكس وضع اليهود في الدولة العثمانية حيث كان آخذاً في التحسّن، الأمر الذي نتج عنه تزايد اندماجهم في المجتمع العثماني، حتى أن يهود أوربا كانوا يفرّون من بلادهم طلباً للسلام والأمن والعدالة في الدولة العثمانية. وفي هذه الفترة اشتهر اليهود في فارس بأنهم يعملون في أمور التسلية والترفيه في بلاط النبلاء، فكان منهم الراقصون ولاعبو السيرك والمغنّون. وحتى هذا التاريخ كان أعضاء الجماعة اليهودية يشكّلون جزءاً من التشكيل الحضاري الشرقي في فارس[1]. ولكن، مع منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وظهور الاستعمار الغربي وما صاحب ذلك من تزايد نفوذ الدول الغربية في بلاد العالم الإسلامي، بدأت هذه الدول تتدخل في شؤون الأقليات الدينية بحجة حمايتها والدفاع عن هويتها، وذلك لاستخدامها كرأس حربة في مشروعها الاستعماري. وقد زعم المستعمرون الغربيون في هذا المجال أنهم حماة المسيحيين في الدولة العثمانية، واضطروا حكومات هذه الدولة بعد ضعفها أن تقبل بوجود قناصل أوروبيين فيها لهم صلاحيات واسعة جداً، وأن توكل لهؤلاء القناصل بعض شؤون المسيحيين فيها، إضافةً لإصدارها الإصلاحات في القرن التاسع عشر (خطي شريف كولخانة وهمايون اللذين أعطيا حقوقاً للمسيحيين وللأقليات وبعض الامتيازات). وعلى العموم كان يهود العالم الإسلامي أيضاً من أوائل المجموعات التي تَوجَّه إليها الغرب، فأخذت حكوماته تتدخل لصالح يهود إيران، كما راحت القيادات اليهودية في الغرب، التي تدور في إطار المصالح الغربية، تقابل المسؤولين الإيرانيين الذين يزورون العواصم الأوربية وتطلب إليهم تحسين أحوال اليهود. ولعل من أكثر الأمثلة إثارةً ما حدث عام ١٨٧٣م أثناء زيارة الشاه نصر الدين لأوربا، إذ قابله وفد يهودي في برلين في ٤ أيار/ مايو، وآخر في أمستردام في ١٠ حزيران/ يونيو، وثالث في بروكسل في ١٧ حزيران/ يونيو، ورابع في لندن (مندوبو

١ المصدر السابق.

الرابطة الإنكليزية اليهودية) في ٢٤ حزيران/ يونيو، وخامس في باريس (الأليانس) في ١٢ تموز/ يوليو، وسادس في فيينا في ١٦ آب/ أغسطس، وسابع في القسطنطينية في ٢٠ آب/ أغسطس. وحينما كان الشاه في لندن اجتمع على انفراد (في قصر بكنغهام) بالسياسي الإنكليزي المتنصّر دزرائيلي، وهو من أصل يهودي، وكذلك مع سير موسى مونتفيوري زعيم يهود إنكلترا آنذاك. كما اجتمع الشاه في باريس بأدولف كريميه، الوزير الفرنسي اليهودي، وبالبارون إدموند دي روتشيلد، أهم يهود عصره وأكثرهم ثراءً. وثمة واقعة مهمة حدثت أثناء مقابلة الشاه لروتشيلد يتعين الإشارة إليها، إذ اقترح الشاه على المليونير اليهودي أن يشتري قطعة أرض يجمع فيها كل اليهود المشتتين ويؤسّس مملكة يهودية يصبح روتشيلد ملكاً لها، فضحك المليونير اليهودي ولم يُجب. والواقع أنّ اقتراح الشاه هو اقتراح صهيوني سبق ظهور الحركة الصهيونية، وربما كان تعبيراً عن مُخطَّط إستراتيجي كامن تَكشَّف فيما بعد[1].

بدأ التدخل الأميركي لصالح يهود إيران عام ١٨٩٧م حين قام القنصل العام الأميركي في طهران بمحاولة الظهور بمظهر حاميهم والمدافع عن حقوقهم. ومع أوائل القرن العشرين ظهرت في الوثائق الدبلوماسية الأميركية أول إشارة إلى أعضاء الجماعة اليهودية في إيران. وفي عام ١٩١٨م قامت وزارة الخارجية الأميركية بتحويل بعض المعونات الأميركية اليهودية إلى يهود إيران، ثم استمر يوسف شاؤول كونفلد، وهو حاخام يهودي وممثل للولايات المتحدة في طهران، بالتدخل لصالح يهود إيران (عام ١٩٢٤م). وواكب هذا حركة من جانب جماعة الأليانس تمثلت في فتح مدارس يهودية، حيث فُتحت مدرسة عام ١٨٩٨م في طهران وأخرى في أصفهان عام ١٩٠١م وثالثة في شيراز عام ١٩٠٣م. وبعد الحرب العالمية الثانية قامت الولايات المتحدة بالمساهمة في تمويل التعليم اليهودي في إيران[2].

ونلاحظ أن الولايات المتحدة، التي كانت مهمومة بشؤون القارة الأميركية فقط (شمالها وجنوبها) في ذلك الوقت، ولم تكن لديها أية نوايا استراتيجية للخروج خارجها أو التأثير في سياسات دول العالم، ومع ذلك بادرت في نهاية القرن التاسع

١ المصدر السابق.
٢ المصدر السابق.

عشر إلى التدخل في شؤون إيران لصالح اليهود، ولعله أول تدخل أميركي خارج القارة، حيث بقيت سياسة الولايات المتحدة أميركية صرفة حتى منتصف الحرب العالمية الثانية، بعد أن هاجم اليابانيون قاعدة بيرل هاربر البحرية.

صورة العربي في الكتب المدرسية الإسرائيلية والأدب الإسرائيلي

من ضمن المرتكزات والقيم التربوية العامة لدولة إسرائيل اعتبار فلسطين والأراضي السورية (المحتلة) أرضاً يهودية تحيط بها دول أجنبية، وتعمُّد إغفال التاريخ العربي، والعربي الإسلامي، في فلسطين على مرّ العصور، واعتبار الفتح الإسلامي احتلالاً وغزواً تاريخياً للأرض التي تعتبر في نظر اليهود ملكاً لهم، وإبراز قدرة الجندي اليهودي وتفوقه على الجندي العربي، وأنه دائماً يلحق الهزيمة به في كل حرب، وتكرار دعوة إقامة المستوطنات بذريعة الدفاع عن الكيان الإسرائيلي بعد حربي ١٩٦٧ و١٩٧٣، ووصف سكان فلسطين الأصليين من العرب بأنهم قبائل بدوية دائمة الترحال جاءت غازية من الصحراء ولا تمّت للأرض بصلة، وتحميل العالم بأسره مسؤولية ما جرى لليهود دون تمييز[١].

إن العربي في الأدب اليهودي مصبوغ بالصبغة السياسية، ويصوّره هذا الأدب بأنه ذلك الإنسان المتوحش الإرهابي الذي يرفض العيش في سلام، ويجب إبادته إن لم يرضَ بالخروج والنفي الاختياريين[٢].

بعد قيام دولة إسرائيل زادت النظرة اليهودية الدونية إلى العربي وزادت النظرة الفوقية للكتّاب اليهود، وكان همّ الأدباء وتوجهاتهم هي أنّ هذا ما وعد به الرب، وأنّ ما يفعله اليهود هو تنفيذ مشيئة الرب، وأنّ طرد العرب هو طرد للإنسان المتوحش القذر، ولا بأس بطرد العربي إذا لم يكن مفيداً. وكانت حرب ١٩٦٧ التي انهزم فيها العرب مادةً دسمة للكتّاب اليهود كي يُظهروا اليهودي وكأنه اختيار الله، وأنّ العرب ليسوا ندّاً لليهود لا في فكرهم ولا ثقافتهم ولا شجاعتهم، وليبرزوا في أدبهم الصور السيئة والسلبية للعربي مثل الزواج بالإكراه وضرب النساء وبيع النساء كالحمير في

١ حاتم محمد عبد القادر، "صورة العرب والمسلمين في المناهج الدارسية وكتب التاريخ الإسرائيلية"، مجلة **الفرقان**.

٢ إيهود بن عيزرا، **صورة العربي في الأدب العبري**، ترجمة د. أحمد حماد، دار الحمراء، بيروت، ٢٠٠١.

سوق الزواج. بل إن الكثير من أدبياتهم كانت تحاول إقناع اليهود أنّ العرب قد آمنوا بتفوق اليهود عليهم لأنهم شعب الله المختار، فهناك العربي الذي يقول لليهودي، حسب مزاعم بعض الروايات الأدبية: "إنكم تستحقون هذه الأرض فقد حوّلتموها إلى جنات خضراء وكانت صحراء لا نستفيد منها". وفي رواية يهودية أخرى تزعم أنّ أحد العرب يقول: "إنني أعرف لمن وعدت إسرائيل، لم يوعد بها سوى أولئك الذين وضع الرب فيهم المهابة والاحترام والقوة والبطولة والكرم والسخاء"[1].

قام الدكتور علي بن صالح الخبتي في كتابه **صورة العرب والمسلمين في مدارس إسرائيل**[2] بتحليل مضمون ٢٣ كتاباً دراسياً إسرائيلياً للخروج برؤية واضحة عن الصورة التي تعرضها للعرب والمسلمين وفق خمسة محاور هي: البعد الإسلامي، والبعد القومي، والبعد الصهيوني، والبعد السياسي، والنظرة العامة للكتب. وتبيّن من بين نتائج الدراسة أن الكتب الدراسية الإسرائيلية قد قامت بما يلي:

١- الربط بين الإسلام والعنف على أساس أنه انتشر بالسيف عبر احتلال بلاد الكفار، أي غير المسلمين، كما عرضت شخصية النبي على أنه هو من فرض الدين الإسلامي وأسّس قواعده بتأثير من اليهودية والنصرانية، وأن الإسراء والمعراج مجرد أسطورة خرافية، كما رسّخت فكرة عدم قدسية القرآن لأنه ليس من عند الله وأنه مستوحى من التوراة ويضمّ نبوءات محمد ورؤاه، وأكّدت على أن أركان الإسلام إنما وُضعت بعد وفاة النبي، وربطت بين الجهاد والإرهاب.

٢- تغيير الحقائق التاريخية والجغرافية على أساس ما ورد في التوراة وما تؤمن به الحركة الصهيونية، وذلك من خلال وضع دولة إسرائيل في خارطة الشرق الأوسط مستخدمةً هذا المصطلح الجديد حتى عند الحديث عن أحداث تاريخية قديمة جداً.

٣- وضع خريطة جديدة لفلسطين تتناسب مع الفكر الصهيوني وذلك بتهويد المكان والزمان حيث تظهر المدن والقرى بأسمائها العبرية في التوراة وفي الكيان الإسرائيلي، إضافةً إلى التأكيد على وجود اليهود الدائم في فلسطين، وأن اليهود كلهم أمة واحدة، وأنهم يستحقون هذه الأرض الموعودة التي طالما ارتبطوا بها عاطفياً

[1] **صورة العربي في الأدب العبري**، مصدر سابق.
[2] علي بن صالح الخبتي، **صورة العرب والمسلمين في مدارس إسرائيل**، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٩.

وتمنّوا الرجوع إليها حتى وهم في الشتات، وأنّ اليهود شعب متميز متفوق طالما استعانت به الأمم الأخرى لذكائه وثقافته ومهارته، وأن اليهود في خير طالما اعتزلوا الأمم الأخرى ولم يتأثروا بها، لأنهم دائماً ما يعادونهم ويودّون إبادتهم لمجرد يهوديتهم، وأنهم كان لا بدّ أن يعودوا يوماً إلى فلسطين، وقد عادوا وشاركوا في "تحريرها" واستحقّوا أن يؤسّسوا دولة فيها.

٤- التشديد على أهمية القدس والهيكل تاريخياً لليهود، وإظهار الفخر بقدماء اليهود ودورهم عبر التاريخ حتى في فتح الأندلس، وتشويه صورة العربي كي يبدو عنيفاً وقاتلاً، وإظهار فلسطين أرضاً قفراً خربة لا شعب فيها ولم تزدهر إلا بإحياء اليهود إياها بعد عودتهم، ووصف المقاومة الفلسطينية بالتطرف والإرهاب.

٥- سوء تصوير الإسلام وأركانه ونبيه، والتأكيد على أن مقاومة المشروع الصهيوني إرهاب ومعاداة للسامية، ووصف هذا المشروع على أنه كفاح وتحرير للأرض وحرب من أجل الاستقلال دون ذكر أعمال العنف التي ارتكبتها العصابات الصهيونية المسلحة قبل عام ١٩٤٨.[١]

١ أحمد حسن المعيني، "عرض لكتاب **صورة العرب والمسلمين في مدارس إسرائيل**"، ملحق **شرفات** الصادر عن جريدة **عمان**، ٢٠١٠/٣/١٠.

الفصل الثامن

أوروبا
المهزومة... المعتدية... الاستعمارية



أولاً – المدخل والإطار العام

لم تكن صورة العرب والمسلمين وصورة الإسلام في نظر الشعوب الأوروبية صورةً حسنة طوال التاريخ، وعلى التحديد منذ أن جرى التماسّ والتواصل بين الطرفين، بدءاً من القرن الثامن الميلادي (فتح جزيرة إيبيريا من قبل العرب). ورغم تعدّد المبرّرات والأسباب وتعدّد المسببين حسب المرحلة التاريخية، وحسب اختلاف الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في أوروبا خلال أكثر من ١٣٠٠ عام، فإن الصورة في الواقع بقيت هي نفسها: صورة سلبية مسبقة الصنع رفض الأوروبيون ومازالوا يرفضون تغييرها أو تحسينها.

في المراحل الأولى للتواصل بعد فتح الأندلس ومعركة "بواتييه" اعتبر الأوروبيون العرب عدوهم الأول، واعتبروا الإسلام فلسفة وفكر وهوية هذا العدو وعقائده، وبالتالي اتّخذوا موقفاً ثابتاً من العرب والإسلام، موقفاً معادياً لأقصى درجات العداء، ورفضوا تغيير هذا الموقف مع تغيّر الظروف والأحوال.

ساهم عاملان في تشكيل الصورة العربية لدى الأوروبيين وتحديد العلاقات العربية الأوروبية في القرون الأولى لفتح إيبيريا ومحاولة غزو أوروبا، وهما رجال الدين من جهة ورجال السياسة من جهة أخرى. أما رجال الدين فكانت خشيتهم كبيرة من أن تتحول رعيتهم إلى الإسلام، كما أنهم ورثوا الصورة التي كوّنها البيزنطيون عن محمد والإسلام والمسلمين، المعتمدة على ما كتبه يوحنا الدمشقي وما رسمه في مطلع ظهور الإسلام. أي في النهاية ورث رجال الدين وجهة النظر البيزنطية وأضافوا إليها كثيراً من الخرافات والروايات غير الموثقة والإشاعات والحكايا الشعبية والقصص الأسطورية وغيرها، وكانوا في الواقع يجهلون الإسلام جهلاً كاملاً، ولذلك اتّخذوا منه موقفاً مسبقاً معادياً، والإنسان عدو ما يجهل.

أما من جهة القادة السياسيين فقد خافوا على عروشهم وأنظمتهم ومن احتمال

احتلال العرب بلادهم كما احتلوا بعض المناطق "الأندلسية"، فاتّخذوا موقفاً معادياً للعرب استند على ما كان يقوله رجال الدين من جهة وعلى تحريض الكتّاب والأدباء ضد العرب من جهة أخرى. وكان من أهم ما أُطلق في هذا المجال في ذلك الوقت المبكر "أنشودة رولان" التي تستخفّ بالعرب وجيوشهم وبالإسلام والمسلمين وتمجّد المقاتلين الأوروبيين وقادة الجيوش والملوك[1].

في ضوء موقف هذين الطرفين تشكّلت في أوروبا صورة للنبي محمد تشير إلى أنه نبي مزيف لا يملك سوى الادّعاءات والأضاليل، وساحرٌ معادٍ للمسيح، وهو الشيطان ذاته، ينطق بالأكاذيب ويبسطها بجيش استطاع إقناع سكانَ الجزيرة العربية الأميين والمتخلفين بأفكاره. كما كانوا يشيرون إلى أن الإسلام هو نوع من الهرطقة التي تحاول تشويه التعاليم اليهودية والمسيحية، وأنه ضرب جديد من الوثنية ينكر أفكار المسيحية الشهيرة كالتجسد والألوهية والثالوث. أما المسلمون، حسب الصورة التي كونتها هاتان المجموعتان، فهم رجال بسطاء متخلفون ومحاربون شرسون أقنعهم محمد بالإسلام وزوّر وعيهم. وكان رجال الدين يذكرون هاجر وابنها إسماعيل أو يتنكرون لهما، باعتبار أن العرب من سلالتهما.

وهكذا رسم رجال الدين والملوك في القرنين الأخيرين من الألف الأولى صورة للعرب والمسلمين متأثرة بمواقف دينية واقتصادية وسياسية وعسكرية، دون أن يكونوا يعرفون الإسلام والعرب معرفةً جدية أو حتى يحاولوا معرفتهم. وبالإجمال كانت صورة الآخر لدى كلٍّ من الأوروبيين والعرب المسلمين مشوشة، غامضة، مضطربة، وسلبية، وتشكّل في وعي كل طرف أن العالم قسمان: عالم الإسلام وعالم المسيحية، دار السلام ودار الحرب.

وكان للحروب الصليبية ("حروب الفرنجة" حسب التسمية العربية) أثرٌ هام في تعميق الصورة التي رسمها البيزنطيون ورجال الدين والقادة في المراحل السابقة،

---

[1] "أنشودة رولان" هي ملحمة أول ما بدأت كانت قصيدة وليست ذات أهمية كبرى، إلا أن الفرنسيين على طول القرون أضافوا إليها من الأساطير والشعر الملحمي إلى درجة أنها أصبحت ملحمة قومية. وصل عدد أبيات الملحمة، التي تأثرت بالأدب العربي، إلى حوالي أربعة آلاف بيت شعر كلها تحكي ملحمة القائد رولان الذي أبيد جيشه وجيش الملك شارلمان صديق هارون الرشيد؟؟!! بالكامل من قبل العرب.

وهي - كما قلنا - صورة سلبية جداً، وجاءت الحروب الصليبية لتؤكّد هذه الصورة، لا بسبب معرفة فلاسفة هذه الحروب وقادتها بالعرب المسلمين وإنما لتبرير حروبهم معهم. ومن المعروف أن الحروب الصليبية جاءت في الواقع لتصدير الأزمات الداخلية في المجتمعات الأوروبية سواء منها الأزمات الاقتصادية والاجتماعية أم الأزمات السياسية، والتقى على ذلك رجال الدين والحكام والملوك وبحثوا عن مبررات لذلك. كما أن مسيحيي الشرق كانوا مهددين أيضاً، وشنّوا حروبهم على أساس إنقاذ كلّ من الأماكن المقدسة ومسيحيي الشرق. ولكن، في الواقع، عندما ندقق في كلمة البابا أوربان الثاني نلاحظ أنه وعد المحاربين بأموال الشرق وخيراته، أي أنه وعدهم بحياة أخرى ورفاه عكس ما كانوا فيه من شظف العيش وبؤس الحياة، ولذلك أكّدوا على الصورة السلبية السابقة للعرب وأضافوا إليها كثيراً من التشويهات، وجعلوها صورةً سوداء مكروهة ومحتقرة. واستمر الأمر نفسه في العصور الوسطى، بل زاد العداء بسبب غزو الجيوش العثمانية أوروبا ووصولها إلى فيينا، واستمر جهلهم بالعرب والمسلمين وتعمّق طيلة القرون الوسطى.

تراكمت ظروف وأحداث عديدة زادت هذه الصورة تشويهاً، ولم تكن هذه المرة لخدمة الدين المسيحي كما كان يهدف رجال الدين، ولا منعاً للأوروبيين من دخول الإسلام كما كانوا يعملون لأجله، وإنما أيضاً نتيجة تواطؤ الملوك والأمراء مع رجال الدين وتحالفهم معهم، ومحاولة كسب ودّ الكنيسة من خلال هذا التحالف في عصر كانت الكنيسة فيه من أقوى القوى الاجتماعية والسياسية في أوروبا. وأصبحت مقاومة وكره الإسلام والعرب والمسلمين زمن الحروب الصليبية له أهداف أخرى، سياسية واقتصادية واجتماعية، حيث كانت الأزمات الداخلية في المجتمعات الأوروبية صعبة الحل، وحاول الملوك والأمراء تصدير أزمة المجتمعات الأوروبية الداخلية إلى الخارج من خلال النداءات بإنقاذ مسيحيي المشرق والأماكن المقدسة وما أشبه ذلك.

تغيرت الظروف منذ بداية عصر النهضة فبدأت تنتصر البرجوازية الصناعية في أوروبا على الإقطاع وتتأسّس الدول القومية وتنهار الحدود بين أبناء الشعب الواحد. ثم استكملت البرجوازية الصناعية انتصاراتها وتراكم إنتاجها وأصبحت بحاجة إلى أسواق جديدة لاستهلاك منتجاتها وفتح مجالات حيوية لنفوذها الاقتصادي والسياسي،

ورأت أن استعمار بلاد المشرق وشمال أفريقيا هي وسيلة لفتح هذه الأسواق وتأمين المجال الحيوي. وكان لا بدّ لهؤلاء جميعاً من معرفة الشرق وتاريخه وظروفه ولغاته وغير ذلك لإيجاد المبررات لاستعماره، خاصةً وأنه نشأ تيار ليبرالي في تلك المرحلة يعادي الاستعمار بشكله القديم، فكان لا بدّ في النهاية من أن تكون هذه المبررات مقبولة و"إنسانية"، مثل الزعم بضرورة تحضير شعوب الشرق المتخلفة وتطويرها وإنقاذها من البؤس والشقاء وغير ذلك. فتوجّه تيار النضهة باتجاهين: الأول، تشجيع الاستشراق والمستشرقين والرحّالة لدراسة الشرق؛ والثاني، ترجمة الأدب الشرقي والاستفادة من هذا الأدب. وهذا ما فعله تيار النهضة ومن وراءه.

وهكذا بدأت أوروبا مرحلةً جديدة من تاريخها منذ بدء عصر النهضة، وكان واضحاً أنها تحاول الخروج من عزلتها ومن الفوضى التي كانت فيها، وبناء مجتمعات جديدة على أنقاض المجتمعات الإقطاعية، والاستفادة من نتائج الحروب الدينية وهزيمة الكنيسة ونشوء كنائس أخرى غير الكنيسة اليهودية.

وفي الوقت نفسه، ومنذ بدء عصر النهضة، أخذت الإمبراطورية العثمانية تتراجع في أوروبا وبدأت دول أوروبا هجوماً معاكساً ضدها، إلا أن ذلك زاد الموقف الأوروبي من صورة العرب والمسلمين تعقيداً، بسبب أن الأوروبيين لم يكونوا يفرّقون بين العرب والعثمانيين باعتبارهم كلهم مسلمين، بل ألصقوا بالعرب والمسلمين أخطاء الحكام العثمانيين وقادة جيوشهم وأخطاء جيوشهم، وباعتبار أن هؤلاء مسلمون رأوا ضرورة إطلاق مضمون الصورة السلبية على المسلمين عرباً وغير عرب.

ومع ذلك بدأ الاهتمام باللغة العربية وبالتراث الثقافي والفكري العربي في وقت مبكر، ويعود ذلك إلى مطلع القرن الرابع عشر، إلا أن هذه المبادرات بقيت مبادرات فردية ولم ترقَ إلى درجة أن تكون مبادرات سياسية أو استراتيجية شاملة. لكن من المهم الإشارة إلى أن المجمع الكنسي رأى ضرورة تعليم اللغات الشرقية (العربية، العبرية، السريانية... إلخ) وترجمة آثارها، سواء منها الآثار القصصية أم الفلسفية والدينية، فقرر المجمع عام ١٣٢٠ تدريسها في عدة جامعات أوروبية. والملاحظ أن أول المفكرين العرب الذين تقرّرت ترجمة آثارهم وتدريسها هم الغزالي وابن رشد، أي النقيضين فلسفياً، وكانت ترجمة مؤلفات ابن سينا قد أُنجزت في القرن الثالث

عشر، وكان أول من أُعجب بابن سينا المبشّر الألماني فيلهلم بوستل، الأستاذ في جامعة هايدلبرغ، وقد نبّه هذا المبشر إلى أهم العلوم العربية وخاصةً في مجال الفلك والرياضيات والطب، وقال بمناسبة ترجمة كتب ابن سينا: "إن ما كتبه ابن سينا في صفحة واحدة من كتاب **القانون** يعادل ٥ أو ٦ مجلدات مما كتبه جالينوس في **الطب**".

لقد اهتمّت فرنسا بترجمة الكتب الفلسفية الإسلامية، وإيطاليا بكتب الطب، وأضيفت هولندا في القرن السابع عشر إلى قائمة الدول المهتمة بالدراسات العربية وخاصةً العلوم الإنسانية (الفلسفة والتاريخ) والعلوم الدينية (الحديث والقرآن والتفسير...). أما إنكلترا فتميز اهتمامها (واستشراقها) بدراسة العلوم الرياضية والطبيعية وعلى رأسها ترجمة كتاب **علم المنظار** للحسن بن الهيثم وكتب جابر بن حيان في الكيمياء. وقد استفاد الأوروبيون فيما بعد من ترجماتهم لعلوم العرب مثل الاصطرلاب واستخدام البارود في المقالع، وتجارب عباس بن فرناس في الطيران، وحسابات الخوارزمي، واكتشاف ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى...

ومن أهم المستشرقين[١] غوستاف لوبون (١٨٤١ - ١٩٣١) وكتابه **حضارة العرب**، حيث كان يعدّ القرآن من شواهد عبقرية محمد باعتباره – حسب لوبون – من إنشائه، ولكنه يراه، مقارنةً بكتب الهندوس الدينية، أقل قيمةً منها، ويعتبر أن ليس في عالمية القرآن ولاهوته، التي هي من صفات الأديان السماوية، ما يقاس بنظريات الهندوس... ثم ينكر شمولية القرآن ويرى أنه مرتبط بعصره فقط، وأنه لا يحقق حاجات الفرد في عصور لاحقة، بل جعله سبباً لتخلف المسلمين...

أما فويلز فيتخيل محمداً رجلاً دفعته طموحاته ووساوسه في سنّ الكهولة إلى تأسيس دين ليُعدّ في زمرة القديسين، فألّف مجموعة من عقائد خرافية وآداب سطحية وقام بنشرها في قومه فاتّبعها رجالٌ منهم...

أما المستشرق جولد نهزيهر فينسب المعرفة الدينية التي تلقاها محمد إلى عنصرين خارجي وداخلي، ويرى أن تبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثر بها تأثراً عميقاً، والتي

١ خلاصات آراء المستشرقين مأخوذة عن: مجتبى العلوي، "الإسلام والمسلمون في الدراسات الاستشراقية"، الإنترنيت.

رآها جديرة بأن توقظ في بني وطنه عاطفة دينية صادقة، وأنّ هذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبية كانت في وجدانه ضرورية لإقرار لون من الحياة في اتجاه يريده الله. ولقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه وأدركها بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً...

وأما بلاشير (١٩٠٠ - ١٩٧٣) فيقول في كتابه **تاريخ الأديان**: "كان أسلوب النبي في القرآن في أول عهده بالدعوة مفعماً بالعواطف، قصير العبارات، فخم الصورة، يقدّم أوصاف العقاب والثواب في ألوان صارخة... وكثيراً ما يكرّر الآيات تكراراً مملاً حتى تنقلب معانيها إلى الضد... فلما تقدم الزمن بالنبي فقد الأسلوب منهجه الأول، وأخذ يقصّ في نغمات هادئة بديعة قصص الأنبياء، مثلما تراه في قصة حب يوسف وزوجته، وكانت هذه الصورة مثيرة لخيال كثير من شعراء الفرس والترك... وفي آخر عهد النبي فقد الأسلوب كل حرارة وكل فن وأغرم بالجدل الديني مع اليهود والنصارى...".[١]

لم تخلُ تلك الكتابات من بعض الإنصاف الذي ساد لهجة قسمٍ من هؤلاء الباحثين، أحدهم المستشرق الفرنسي كلود إتيان سافاري (١٨٦٩ - ١٩٤٠) الذي وصف النبي في مقدمة ترجمته للقرآن بالعظمة قائلاً: "أسس محمد ديانة عالمية تقوم على عقيدة بسيطة لا تتضمن إلا ما يقرّه العقل من إيمان بالإله الواحد الذي يكافئ على الفضيلة ويعاقب على الرذيلة...". فالغربي المتنور وإن لم يعترف بنبوته لا يستطيع إلا أن يعتبره من أعظم الرجال الذين ظهروا في التاريخ.

وأيضا ما قاله توماس كارليل، المستشرق الإنكليزي، في كتابه **الأبطال وعبادة الأبطال**: "لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدن في هذا العصر أن يصغي إلى القول بأن دين الإسلام كذب وأنّ محمداً خدّاع مزور، فإن الرسالة التي أدّاها ذلك الرجل ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لمئات الملايين من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذي خلقنا... وإن كان أحدهم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والعدّ أكذوبة وخدعة؛ فأنا لا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً. فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان ذلك

١ المصدر السابق.

التصديق والقبول، فما الناس إلا بُله ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث كان الأولى ألاّ تخلق...".[1]

أما الاستشراق فهو جملة المعارف والعلوم والفنون التي أمكن الحصول عليها عن الشعوب الشرقية ولغاتها وعاداتها وثقافاتها عن طريق البحث والترجمة. وقد ظهر مفهوم "المستشرق"، أي العالم أو الدارس للشرق أو لغاته أو فنونه أو حضارته، في اللغة الإنكليزية للمرة الأولى في سنة ١٧٧٩م، وفي الفرنسية ظهر هذا المصطلح في سنة ١٧٩٩م، ولم تعتمده الأكاديمية الفرنسية في قاموسها إلا في عام ١٨٣٧م.

ولا يعني ظهور مصطلح الاستشراق في تلك السنوات أنه لم يكن موجوداً قبلها، فالوثائق التاريخية تشير إلى أن الاستشراق قد بدأ فعلاً في سنة ١١٣٠ عندما أنجز رجال الدين في أوروبا أولى الأعمال المترجمة لأمهات الكتب العربية التي احتوت آخر ما توصلت إليه الحضارات آنذاك من علوم ومعارف، ثم اتخذ شكل الترجمة العكسية من العربية إلى اللاتينية.

وكانت اللوحة التي تكونت في وعي الأوروبيين في القرون الوسطى قد ضمّت هذه الملامح: أن الإسلام عقيدة ابتدعها محمد، وهي تتسم بالكذب والتشويه المتعمد للحقائق، وأنه دين الجبر والاضمحلال الأخلاقي والتساهل مع الملذات والشهوات الحسية، وأنه ديانة العنف والقسوة، كما ذكر مونتغمري واط في كتابه **تأثير الإسلام على أوروبا في القرون الوسطى**.

في القرن السادس عشر حصلت تغيرات كبرى في موقف المسيحيين إزاء الإسلام، حيث بدأ الأوروبيون يلمسون كيف أن السبق الثقافي أصبح يتحول إلى صفهم، فلم يعودوا ينظرون إلى الإسلام بوصفه منافساً جدياً في ميدان العقل والعلم. وباقتراب الجيوش العثمانية من فيينا سنة ١٥٢٩م تغيرت تلك النظرة وأصبحت أكثر عدائيةً وحدّةً، وانبعثت القوالب التقليدية من جديد مركّزةً على وصف الإسلام بأنه دين العنف الذي يخدم المسيح الدجّال، وأن المسلمين معادون للعقل والعقلانية، ولهذا فإنه لا فائدة ترجى ولا طائل من محاولة تنويرهم وتحويلهم نحو الإيمان الصحيح، والحل الأجدى هو مجابهتهم بقوة السيف وحده.

[1] المصدر السابق.

في القرن التاسع عشر اجتاحت بلدان الشرق موجة قوية من القادمين الأوروبيين شملت العسكريين والتجار والمبشرين والإداريين والكوادر التقنية والعلماء من اختصاصات مختلفة. فالاهتمام بالعالم الإسلامي صار تمليه في هذه المرحلة الاحتياجات العملية والمصالح الحيوية للبلدان الأوربية. ويمكن تلمّس أثر الدراسات الاستشراقية في الحركات الاستعمارية من خلال التأثير الذي مارسته تلك الدراسات على الحملة الفرنسية خلال احتلال مصر، وكيف لعب الرحّالة الفرنسيون المستشرقون دوراً كبيراً في تنفيذ الحملة الفرنسية على مصر والتخطيط لمشروعها السياسي الاستيطاني[1]. وفي هذا الإطار يقول إدوارد سعيد حول الحملة الفرنسية على مصر:

> إن فكرة فتح مصر من جديد جعلت من نابليون كأنه إسكندر جديد، فقد طرحت نفسها عليه مدعّمةً الآن بالفائدة الإضافية المتمثلة في اكتساب مستعمرة إسلامية جديدة على حساب إنكلترا... واعتبر نابليون مصر أيضاً مشروعاً ممكناً بالضبط لأنه عرف مصر تكتيكياً واستراتيجياً وتاريخياً وكذلك نصّياً، والمقصود هو كون مصر شيئاً قرأ المرء عنه وخبره عبر كتابات ثقاة أوروبيين محدثين وكلاسيكيين... وموضع الدلالة في هذا كله هو أن مصر بالنسبة لنابليون كانت مشروعاً اكتسب وجوداً حقيقياً في ذهنه ثم في تجهيزاته لفتحها من خلال تجارب تنتمي إلى مملكة الأفكار والأساطير المستنبطة من النصوص لا من الواقع التجريبي... ولذلك صارت الخطط التي وضعها لمصر هي الأولى في سلسلة طويلة من المواجهات الأوربية مع الشرق سخّرت فيها المستشرق لأغراض استعمارية بصورة مباشرة. ذلك أنه في اللحظة الحاسمة التي كان فيها على المستشرق أن يقرر ما إذا كان ولاؤه وتعاطفه مع الشرق أو مع الغرب الفاتح، اختار المستشرق الغرب دائماً، منذ زمن نابليون وحتى اللحظة الحاضرة... لقد أدرك نابليون من خلال قراءاته الاستشراقية أن ثمة ثلاثة حواجز في وجه السيطرة الفرنسية على الشرق وأن أية قوة فرنسية لا بدّ أن تخوض لذلك ثلاثة حروب: الأولى ضد

---

١ المصدر السابق.

إنكلترا، والثانية ضد الباب العالي العثماني، والثالثة وهي أكثرها صعوبةً ضد المسلمين...

إن ما قام به المستشرقون وما قامت به حملات التبشير هو تحقيق لمصالح وتطلعات الرأسمال الأوروبي الذي قام أساساً على مبدأ الإخضاع الروحي للشعوب المستعمرة لمستعمريها مع مراعاة مبدأ تخليد هذه الشعوب في مضمار التخلف. وليس أدلّ على هذا مما قاله الجنرال البريطاني اللنبي بعد دخوله البلاد العربية عام ١٩١٧م وإخضاع قسم من بلاد الشام والعراق للنفوذ البريطاني:

إن عملية توزيع البلاد العربية تحت النفوذ الإنكليزي والفرنسي، وهما اللذان يمتلك كلٌّ منهما أسلوباً ثقافياً متميزاً عن الآخر، ستثمر بعد سنوات قليلة من الاحتلال في خلق جيل وثقافة واتجاهات تختلف تماماً عن بعضها بعضاً، وهذا الاختلاف سيفضي بدوره إلى عدم قيام فهم واحد وفكر واحد، وبالتالي إحساس واحد بين أبناء الوطن العربي، الأمر الذي يسهّل علينا تمزيقه...

ونتساءل في خاتمة هذه السطور: هل كفّت تلك الحملات عن تشويه صورة الإسلام والمسلمين أم أنها ما زالت مستمرة بوتائر متصاعدة، خاصةً بعد تطور وسائل الاتصالات والإعلام؟[١]

ساهمت عوامل جديدة في تشكيل صورة العربي لدى الشعوب الأوروبية في القرن العشرين، وعلى رأسها الجهود التي بذلتها الصهيونية طوال هذا القرن لتشويه صورة العرب لدى الشعوب الأوروبية، وزاد الحنق لدى بعض الأوروبيين بسبب طرد المستعمر الأوروبي من البلدان العربية، فتبنّوا صورة نمطية سلبية تكوّنت خلال الألف الثانية للميلاد تحمل في طياتها الآثار السلبية للجهل الأوروبي بالعرب وبالإسلام وبالمسلمين، والمحاولات المتراكمة لتشويه صورتهم، ورد الفعل على تحرر العرب من الاستعمار. وزاد الأمر سوءاً نشوء المنظمات الإسلامية المتطرفة في النصف الثاني من القرن العشرين، وممارستها الإرهاب داخل بلدانها وخارجها، وردات الفعل

١ المصدر السابق.

على الهزائم العربية في الحروب مع إسرائيل، وما تبعها من القول بضرورة العودة إلى الدين وبإفساح المجال للفقه "الخاطئ" وللفقهاء "السطحيين" لوضع قيم جديدة للإسلام، ورسم مواقف مشوّهة من الشعوب الأخرى، إضافةً إلى مواقف خاطئة من المرأة وحقوق الإنسان. ولعل الأنظمة الشمولية العربية، واستبدادها وقمعها وفسادها، زادت من تشويه صورة العرب ومن الموقف السلبي منهم.

ثانياً – العلاقات الرومانية – البيزنطية مع العرب

كان البيزنطيون يعرفون العرب معرفةً كافية سواء لأن بعضهم (أي العرب) كان تحت الحماية أو الهيمنة أو الاستعمار البيزنطي كما كان حال الغساسنة الذين كان لهم حكم ذاتي بإشراف بيزنطة، أو حال القبائل العربية الأخرى، مثل كلب ومضر وتنوخ وغيرها، التي كانت تعيش في سورية تحت الهيمنة البيزنطية المباشرة، وتُعتبر، بشكل ما، من رعايا الدولة البيزنطية، أو لأن بعض العرب الآخر كان يعيش في الجزيرة العربية وتقع بلاده ضمن المجال الحيوي البيزنطي. وغالباً ما حصل تنافس بين البيزنطيين والفرس على جنوب شبه الجزيرة العربية (وخاصةً اليمن)، وذلك لأن الطريق الطبيعي البحري الواصل بين آسيا وأوروبا مروراً بالبحر الأحمر والمتوسط يمر فيها. إضافةً إلى أن الفرس كانوا يعملون لتوسيع مجالهم الحيوي أيضاً في الجزيرة العربية، وهكذا كان الصراع البيزنطي الفارسي مهتماً بشكل جدي بالعرب وبلادهم، من خلال سعي كلٍّ من الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية لتوسيع مجالها الحيوي وبالتالي سلطتها ونفوذها.

كان البيزنطيون يطلقون اسم "السراسنة" على العرب احتقاراً لهم، لأن معنى هذه الكلمة في مخيلتهم وثقافتهم أن العرب مناهضون للمسيحية، وهم من سلالة هاجر زوجة إبراهيم المصرية، أي من سلالة إسماعيل الذي اقتيد إلى الصحراء وكان برأيهم رجلاً متوحشاً يصبّ حقده على الجميع[1]. وكانوا يؤمنون بفظاظة العرب وعدم جدارتهم بالثقة، وأنهم من قبائل لا يمكن الاعتماد عليها لأن عقول أبنائها متطلّبة

[1] انظر: ناجي عويجان، **تطور صورة الشرق في الأدب الإنكليزي**، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٨، ص٢٣.

وليست ثابتة، وأحكامهم لا تقع على أساس صحيح من التعقل[١].

كانت كلمة "السراسنة" لدى بعضهم تعني "الرعاة في الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية، ثم راحت تشمل جميع الرعاة العرب داخل الحدود الرومانية (والبيزنطية) وخارجها. وتغيّر معنى الكلمة لدى مؤرخي القرن الرابع الميلادي أميانوس مارسيلينوس وأوسابيوس اللذين اهتما بالكلمة وبالشعب الذي تشير إليه هذه الكلمة، واعتبر الكاتب الثاني السراسنة شعباً من الشعوب التي تحدثت عنها التوراة، أي أبناء إسماعيل، وبالأحرى أبناء الأمة التي حُرمت من الوعد الإلهي المشمول به إبراهيم وأبناءه، وستكون هذه نقطة مهمة في فهم الشعوب المغلوبة لأسباب الفتوحات"[٢].

انتقلت هذه التسمية (الساراسان) إلى شبه جزيرة إيبيريا فأطلقها الإسبان على العرب الفاتحين، وكانوا يسمونهم أيضاً "الوثنيين"، وتنمّ التسميتان عن احتقارهم للعرب الفاتحين. وقد أطلقت هذه التسمية قبل ذلك على البدو سكان الخيم، وكانوا تحت هيمنة الإمبراطورية الفارسية، كما أُدخل عرب الأنباط والحيرة تحت هذه التسمية.

استمرّ الإسبان بإطلاق اسم "السراسنة" على العرب الفاتحين ليذكّروا بأصولهم البدوية وبانتسابهم إلى إسماعيل بن إبراهيم. أما الكتّاب الأوروبيون فقد أطلقوا عليهم اسم "الإسماعيليين". وفي الحالات كلها كان الأوروبيون، إسباناً وغير إسبان، يعتبرون العرب غزاة متوحشين، رغم سيادتهم على شبه جزيرة إيبيريا، واستمرّ الاستخفاف بهم واحتقارهم رغم كل ما قدّموه من علوم وثقافة وتطور.

لقد اطّلع العرب اطّلاعاً واسعاً، منذ القرن الهجري الثاني (القرن الثامن الميلادي)، على فلسفة اليونان وحكمتهم وتاريخهم وأساطيرهم، وقد أعجبوا بهم وبثقافتهم، ولم يكن لهم في الواقع تواصل مباشر مع اليونان باعتبار أن الاحتلال اليوناني لبلاد الشام وغرب آسيا ومصر حدث وانتهى في القرن الرابع قبل الميلاد، لكن الثقافة العربية كانت تلمّ بشيء من ثقافة اليونان، غير أن معرفتهم بهذه الثقافة لم تكن دقيقة ولا عميقة، لكنها كانت موجودة ومحطّ إعجاب. وقد نسج العرب في رويهم وقصصهم وأساطيرهم

١ والتر كيغي، **بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة**، دار قدمس، بيروت، ص٩٧-٩٨.
٢ **الفتوحات العربية في روايات المغلوبين**، مصدر سابق، ص٣٣.

خرافات عديدة عن اليونان وفتوحاتهم وعظمتهم، وبقي الإسكندر المقدوني مثار إعجاب العرب، وكذا الأمر بالنسبة إلى فلاسفة اليونان وخاصةً سقراط وأفلاطون وأرسطو[1].

كان الروم والبيزنطيون معروفين جيداً لدى العرب، فقد كوّنت الثقافة العربية عنهم قبل الفتح العربي الإسلامي صورة تحمل معطيات الحدّ الأدنى من المعرفة على الأقل. إلا أن صورتهم هذه اقتصرت على الانطباعات الناتجة عن العلاقات التجارية قبل الفتح العربي الإسلامي، ثم أصبحت علاقة بين عدوين لدودين بعده، اطّلع العرب من خلالها على نظام الحكم البيزنطي وإدارة الدولة، والبريد، والسياسات الإدارية والتنظيمات المالية وهيكلية الدولة، والتعامل مع البلاد التي يحتلونها، أو مع الأسرى، وما يشبه ذلك. وكانت تنقص هذه الصورة المعرفة الجدية والدقيقة والمفصّلة بأوضاع البيزنطيين الاقتصادية والاجتماعية وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم وأنماط عيشهم.

لقد كانت معرفة العرب الشاملة بالآخر البيزنطي أقل عمقاً وسعةً وتنوعاً من معرفته بالآخر الفارسي أو التركي أو الهندي أو الصيني لأسباب عديدة ربما كان من أهمها استمرار الصدام الحربي بين العرب والبيزنطيين مئات السنين، واستمرار الغزوات والمناوشات المتبادلة طوال قرون، وطغيان حاجات معرفته عسكرياً على صنوف المعرفة الأخرى الاجتماعية أو الاقتصادية أو الإنسانية بشكل عام.

كان البيزنطيون يعرفون العرب جيداً، خاصةً منهم الذين يسكنون بلاد الشام جنوب الدولة البيزنطية، وهم الغساسنة الذين كانوا تحت الهيمنة البيزنطية، وكانوا يتمتعون بحكم ذاتي سُمّي "مملكة" في بعض المراحل، وكانوا يلعبون دوراً هاماً وصلة وصل بين بيزنطة وقبائل الجزيرة العربية. وإضافةً إلى أهميتهم الجغرافية والاستراتيجية ودورهم في عقد الصلة بين البيزنطيين والعرب، كان لهم دور ديني هام، إذ كانوا مسيحيين يعاقبة، ويقفون بوجه المذهب الملكاني البيزنطي، ويشاركون بفعالية في المجامع المسكونية. ومنهم أيضاً الأنباط والتدمريون وأولئك المقيمون في الجزيرة العربية من أبناء القبائل المنتشرة فيها، والتي كانت تعتمد على التجارة مع بلاد الشام، أو بالدقة بين بلاد الشام وبلاد آسيا، وكانت قبيلة قريش من أهم هذه القبائل. وأخيراً بسبب تجارتهم مع آسيا

١ انظر صورة الآخر، مصدر سابق.

عن طريق البحر الأحمر واليمن. وكانت الهيمنة على البحر الأحمر، باعتباره طريق تجارة، من هموم الإمبراطورية البيزنطية، وسبباً في صراعاتها مع الإمبراطورية الفارسية، المنافسة لها في الجزيرة العربية. وبالتالي كانت بيزنطة تتحالف أو تتصارع مع القبائل العربية، وكان البيزنطيون هم الرابحون دائماً في علاقتهم بالعرب اقتصادياً وسياسياً (لاستخدامهم ضد الفرس) أو في حماية مجال إمبراطوريتهم الحيوي. ولم تكن العلاقة البيزنطية العربية يوماً تشكّل أي خطر على الامبراطورية البيزنطية أو تثير قلقها أو تهدّد حدودها الجنوبية، لعدم التكافؤ سياسياً وعسكرياً بينها وبين الإمارات والقبائل العربية، إضافةً إلى أن الصراعات العربية العربية لم تنتهِ يوماً، وكانت دائمة ومستمرة لأنها قائمة على الثأر ومحاولة الاستحواذ على الماء والكلأ، ولذلك لم يشكّل العرب بإماراتهم وقبائلهم يوماً أي تهديد عسكري جدي للبيزنطيين قبل ظهور الإسلام. وعلى أية حال بقيت العلاقة بين الروم والبيزنطيين والعرب غير متكافئة، واستمرّت لعدة قرون لصالح الدولة البيزنطية، ولم يتجرّأ عموم العرب أو قبيلة من قبائلهم طوال قرون عديدة على التحرّش بحدود الدولة البيزنطية بسبب البطش الذي كانت تنزله بالقبائل العربية والتنكيل الذي كانت تمارسه بحق شيوخها وأمرائها[1]. وبقي حال العرب كذلك حتى النصف الثاني من القرن السادس الميلادي حيث نضجت الظروف بزعامة قريش لولادة عربية جديدة من حيث سعي قريش لإقامة دولة بزعامتها في الحجاز مع مطامح إلى إخضاع كامل الجزيرة العربية لهذه الدولة، وهذا ما تحقق فيما بعد على يد النبي محمد في النصف الأول من القرن السابع الميلادي.

لقد سيطر البيزنطيون على العرب (دويلات وقبائل) بسبب التشرذم والتمزق العربي وتضارب المصالح الفردية وغياب القيادة السياسية العربية القادرة على فرض الوحدة وتحقيقها. ولقد استثمرت الدولة البيزنطية هذا التضارب في المصالح وعملت على ترسيخ التمزق العربي، فباركت وجود كيانات عربية سياسية ضعيفة حليفة لها وتعمل لصالحها مثل دويلات كندة وتدمر والأنباط والغساسنة[2]، وجعلت من هذه الدويلات حاجزاً يقيها غارات البدو. ومع ذلك كانت تقوم حروب وأحداث عصيان وصراعات

١ رياض هاشم، "الصراع العربي على الجبهة البيزنطية في عصر الرسالة"، مجلة **الطريق العربي**، الموصل.
٢ المصدر السابق.

مسلحة بين هذه "الدويلات" وبين الإمبراطورية البيزنطية المهيمنة عليها، وكان نفوذ كل من هذه الدويلات يتسع أو يضيق حسب الظروف والأحوال. إلا أن القطيعة المطلقة لم تكن لتحدث غالباً، فقد كان قادة "الدويلات" العربية قنوعين، وكان الملوك البيزنطيون يخشون القطيعة بسبب صراعهم مع الإمبراطوريات المجاورة، وخاصةً مع الإمبراطورية الفارسية، وخوفهم من قلب كل التحالفات.

وهكذا كانت علاقة الروم البيزنطيين بالعرب علاقة غير متكافئة، حيث أن الدولة البيزنطية، بقوتها العسكرية الضاربة وعمقها الاستراتيجي، تمكّنت من أن تنزل أشدّ العقاب بالدويلات العربية المتحدة وبالقبائل العربية البدوية التي كانت تحاول اختراق حدودها حرباً من الجنوب. كما تمكّنت حامياتها أيضاً من أن تمارس الإرهاب والقتل والتنكيل بالقيادات العربية التي حاولت الخروج على سطوتها وسلطانها، فضلاً عن التضييق عليها سياسياً واقتصادياً[1]. كما أن الدولة البيزنطية كانت تعتبر علاقاتها بالعرب مسألة من مسائل الأطراف فحسب، أي أمراً ثانوياً، يشكّل خطراً ثانوياً ولا يشكل تهديداً مباشراً كتهديد الدولة الفارسية التي كانت تمثل الخطر الشرقي الحقيقي والتي انتصرت عدة مرات على الدولة البيزنطية، وكان آخرها في مطلع القرن السابع الميلادي.

يجمع المؤرخون والباحثون أن موضوعة توحيد الجزيرة العربية كانت من الأهداف السياسية للنبي محمد منذ اليوم الأول للدعوة، وكان هذا التوحيد واحداً من همومه المتمثلة في جمع كلمة العرب وتوحيد إماراتهم وقبائلهم في دولة واحدة يمكنها أن تواجه الإمبراطوريتين الرئيسيتين في ذلك الوقت، وهما الإمبراطورية الساسانية والإمبراطورية البيزنطية، أو على الأقل تكون ندّاً لكلٍّ منهما ويحسب كلٌّ منهما حسابها. ورغم اتّساع هذه الطموحات وضخامتها وصعوبة الإيمان بإمكانية تحقيقها، خاصةً في الأيام الأولى للدعوة، إلا أنها، كما يبدو، كانت أحد الأهداف السياسية العظيمة للنبي محمد الذي آمن بتحقيقها بثقة وثبات، ويبدو أنه كان يعتبرها قاعدة للانطلاق في نشر الدعوة الإسلامية للناس جميعاً، فضلاً عن توحيد العرب في دولة واحدة قوية.

---

١ المصدر السابق.

من البديهي أنه لم يكن بإمكان النبي الإعلان عن أهدافه السياسية هذه منذ الأيام الأولى للدعوة الإسلامية، فقد كان همّه الاعتراف بدعوته ونشرها بين القبائل العربية، وكان يدرك ضرورة عدم الإفصاح عن هذا الهدف لكون الإفصاح عنه في ذلك الوقت كان يعتبر مبكراً، ولئلا تشعر الإمبراطورية البيزنطية أن الدعوة الجديدة تشكّل خطراً عليها. وبالفعل لم تشكّل الدعوة في مرحلتها المكية ومرحلة التكوين والنشأة أي خطر على مصالح الدول المجاورة، وبالإجمال لم تشكل الدعوة في أيامها الأولى أي خطر على أية دولة لأنها كانت محاصرة من قبل قريش ولا تلقى ترحيباً لدى معظم أبنائها في مكة، وبالتالي تبنّت معظم القبائل العربية الأخرى موقف قريش نفسه من الدين الجديد والدعوة الجديدة.

لقد اختلف الأمر في المرحلة المدينية من الدعوة، أي بعد الهجرة إلى المدينة، ذلك أن النبي أقام دولة المدينة بشروط جديدة أكثر عصريةً في ذلك الوقت، تأخذ التعددية باعتبارها توائم بين مصالح الفئات الاجتماعية والدينية التي تسكنها من خلال "صحيفة المدينة" التي كانت تشبه العقد الاجتماعي (كما مر معنا في فصل اليهود) تمهيداً ليتمكن الإسلام من بناء دولته التي تتجاوز في حدودها وسياستها وعلاقاتها الحدود الإقليمية والقومية تجاه العالم المحيط، ويصبح ندّاً للإمبراطوريات القائمة في ذلك الوقت.

لقد انشغل النبي في بداية الهجرة إلى المدينة بتثبيت أسس الدولة الإسلامية الناشئة وأصدر "صحيفة المدينة" بمثابة دستور للدولة الناشئة. ومع ذلك، وبسبب صغر دولة المدينة وعدم انتصار الإسلام نهائياً حتى ذلك الوقت، واستمرار القبائل العربية أو معظمها بمعاداة الإسلام وعدم استطاعة النبي إقامة دولة عربية واحدة تضم جميع القبائل في الجزيرة، فإن هذا كله لم يثر ريبة الدولة البيزنطية ولم يخفها، خاصةً وأن بلاد الغساسنة حلفاء بيزنطة وبعض القبائل العربية الأخرى كانت تفصل بين هذه الدولة وبين الجزيرة العربية وتشكّل حاجزاً يطمئن البيزنطيين. ولكن بعد قيام دولة المدينة وتوحيد الجزيرة العربية، وانتصار الإسلام فيها نهائياً، بدأ النبي يضع الخطط لتوسيع الدولة، فأرسل رسائل إلى ملوك الدول المجاورة يدعوهم إلى الإسلام، ومنهم هرقل (هيركيليس) ملك الروم البيزنطيين والنجاشي ملك الحبشة وكسرى ملك الفرس

وغيرهم. وأشعرهم ذلك بأن هناك قوة سياسية عسكرية دينية ناشئة، وكان من البديهي أنهم أخذوا يشعرون بخطورتها[1].

اعتبر البيزنطيون فعاليات الدولة الناشئة ونبيها على أنها مجرد اندفاع قبلي عربي ومحاولة للسيطرة على عدة قبائل عربية أخرى، كما كانت تفعل الإمارات العربية الواقعة تحت الهيمنة البيزنطية، واعتقدوا أن حلفاءهم العرب من الإمارات التي يهيمنون عليها قادرون على صدّ الاندفاعة الجديدة وهزيمتها.

كان تحرّش النبي الأول بالدولة البيزنطية في السنة الخامسة للهجرة، وذلك بقيامه بغزوة "دومة الجندل" التي عُدّت فيما بعد حلقة من حلقات الصراع العسكري المباشر مع الدولة البيزنطية وحلفائها من القبائل العربية. وكان الصحابة، والنبي نفسه طبعاً، يعرفون خطورة هذا التحرّش، ولذلك نصح الصحابة النبي قائلين له وهو بصدد مهاجمة دومة الجندل: "إنها طرف من أفواه الشام فلو دونت لها لكان ذلك مما يفزع قيصر"[2]. وهذا يدلّ بالتأكيد على خوف العرب الشديد من البيزنطيين الذين يمارسون عليهم البطش ضد أي محاولة تحرش. وربما كانت محاولات النبي بدء غزوات عسكرية على القبائل العربية التي تسكن الحدود الجنوبية للإمبراطورية البيزنطية هي محاولات لنشر الإسلام بين هذه القبائل وإلحاقها بالدولة العربية الإسلامية الناشئة، وبالتالي إتمام وحدة العرب. وربما لم يكن هدفه العاجل طرد الدولة البيزنطية من بلاد الشام وإسقاطها لتعذّر ذلك موضوعياً في ذلك الوقت المبكر، على خلاف إمكانيات توحيد القبائل العربية الخاضعة للبيزنطيين وتحقيق انشقاقها عن الدولة البيزنطية وخلاصها من هيمنتها. رغم التحالف الرسمي بين بعض القبائل العربية التي تقيم في أطراف الدولة البيزنطية، ورغم تعاون هذه القبائل مع البيزنطيين، إلا أنها كانت تحمل كرهاً لهم وتتمنى الخلاص منهم، ورغم ترددها في البدء إلا أنها تعاونت مع العرب المسلمين ضد البيزنطيين، وهم أبناء دين واحد. ولعل هذا يفسّر ما كان يقوم به

---

١ جاء في رسالة النبي إلى هرقل: "من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى فإني أدعوك للإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين". كما بعث رسالةً إلى أمير دمشق الغساني جاء فيها: "سلامٌ على من اتبع الهدى وآمن به، إني أدعوك أن تؤمن بالله لا شريك له يبقى لك ملكك".

٢ المصدر السابق، عن الواقدي.

النبي باستمرار بإرسال السرايا والبعوث للاحتكاك بالحدود الجنوبية للدولة البيزنطية مشعراً ملكها وقادتها بقوة الدولة الناشئة جنوباً وأن لها القدرة على المنازلة متى شاءت ووقت ما تريد، كما وليُشعر القبائل العربية بإمكانية تحررها من الهيمنة البيزنطية.

أما من الجانب البيزنطي فيبدو أن البيزنطيين وحلفاءهم من القبائل العربية قرروا العمل بكل وسيلة لمنع دخول دعاة الإسلام إلى أراضيهم. ويتحدث الواقدي عن سرية أرسلها النبي إلى بلادهم كان عدد أفرادها خمسة عشر رجلاً "قد انتهوا إلى ذات أطلاح من أرض الشام فوجدوا فيها جمعاً من جمعهم كثير فدعوهم إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل"[1]. وربما كانت هذه الحادثة هي سبب حملة مؤتة، وهي أول حملة تقوم بها الدولة العربية الإسلامية الناشئة خارج حدودها، وربما كان هدفها إشعار القبائل العربية التي تحت الهيمنة البيزنطية بقدرة الدولة الجديدة. وقد وصل القائمون على هذه الحملة مدينة معان جنوب الأردن فعسكروا فيها، وأرسل هرقل جيشاً كبيراً عسكر في مؤاب في أرض البلقاء، والتحقت بالجيش البيزنطي بعض القبائل العربية الموالية للروم، منها لخم وبهراء وجذام وغسان وغيرها، وقد انسحب المسلمون من هذه المعركة بسبب قوة البيزنطيين وكثرة عددهم. وكانت هذه الحملة في الواقع بداية لرسم الخطوط المستقبلية لعمل الدعاة المسلمين شمالاً ومحاولة جدية لكسر الخوف الذي كان يملأ قلوب العرب عند التحرش بالروم والفرس، ثم أنها محاولة للاطّلاع على الطريق الذي يصل ما بين الدولة جنوباً وهذه القبائل شمالاً، وهي أيضاً محاولة للاطّلاع على أسلوب القتال والمنازلة لدى الروم وحلفائهم[2].

استمر النبي بإرسال غزوات صغيرة أو كبيرة بعضها يتألف من عدة مئات من المحاربين وبعضها من عدة آلاف، وقد استطاع من خلال هذه الغزوات على الجبهة البيزنطية، أي على الحدود الشمالية للجزيرة العربية، أن يُشعر القبائل العربية المتواجدة هناك، وقبائل بلاد الشام عامةً، بنشوء دولة عربية جديدة فتية استطاعت توحيد قبائل العرب وبدء بناء إمبراطورية لهم. وقد تعززت قوة الدولة الجديدة بعد فتح مكة وتوحيد الجزيرة العربية نهائياً تحت راية الدين الجديد. وحصلت غزوة ذات السلاسل ثم حملة

١ المصدر السابق.
٢ "الصراع العربي على الجبهة البيزنطية"، مصدر سابق.

تبوك بعدها، وبقي الأمر كذلك حتى قبيل وفاة النبي بمدة قليلة، حيث أعدّ حملة كبيرة عام ١١هـ ضمّت عدداً كبيراً من أهل المدينة ومن القبائل العربية المحيطة بها، وكلّف بقيادتها أسامة بن زيد، لكنّ المنية وافته قبل بدء مسيرة الحملة فتولّى أبو بكر الخلافة وأمر أن تتمّ الحملة كما أوصى بها النبي، بما في ذلك إبقاء أسامة بن زيد، المحارب الفتي، على قيادتها.

وهكذا، لم يكن تسيير الغزوات والحملات للتحرش بالجيوش البيزنطية أمراً طارئاً أو مؤقتاً، وإنما كان تنفيذاً لاستراتيجية شاملة تؤكّد وحدة الدولة الفتية وقوتها ورغبتها في إيجاد مجال حيوي أقلّه إلحاق مناطق القبائل العربية الواقعة تحت الهيمنة البيزنطية بالدولة الجديدة الفتية الناشئة. وكان النبي قد واصل اتصالاته بزعماء القبائل العربية المنتشرة في منطقة تبوك وتلقّى سفاراتهم، وعقد معهم معاهدات الصلح والتعاون، وحاول تحويل ولائهم إلى دولة المدينة وجعلهم مواطنين فيها، أو على الأقل حلفاء لها. وكان ممن جاء إلى تبوك يعلن ولاءه للنبي ولدولته يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة، حيث صالحه النبي ووافق على أخذ الجزية منه.

ومثل يوحنا حاكم أيلة فعل قادة دومة الجندل وتيماء وجرباء وأذرع فأتوه فصالحهم فقطع عليهم الجزية وكتب لهم كتاباً. ويعتبر قدوم حكّام هذه البلدان إلى النبي وتوقيعه اتفاقات معهم بالصلح إشعاراً بانتمائهم إلى دولته وقطعاً لعلاقلاتهم وارتباطاتهم بالبيزنطيين. وهكذا يمكن اعتبار هذه الحملات الأولى خطوة من خطوات الدعوة الإسلامية في مرحلتها المسلحة نحو الخارج، وتخطياً لنطاق العرب وجزيرتهم إلى العالم الأوسع، وبادرة متقدمة لحركة الفتوحات التي سيشهدها العصر الراشدي فيما بعد[١].

كان من نتائج هذه الحملات أيضاً لفت انتباه البيزنطيين إلى بداية نشوء خطر على حدودهم الجنوبية وشعورهم بأنهم قد خسروا ولاء قبائل عربية عديدة كانت تشكل حاجزاً بينهم وبين قبائل الجزيرة، بعد أن صالحت هذه القبائل النبي وأعلنت ولاءها للدولة الناشئة. ولعلّ من نتائج هذه الحملات والانتصارات الأولية مصالحة أهل نجران العرب المسيحيين النبيَّ بناءً على طلبهم على أمل أن يخلصوا من الظلم

١ المصدر السابق.

والجور البيزنطي، خاصةً وأن البيزنطيين كانوا يظلمون أهل نجران العرب المسيحيين ويجبون منهم الضرائب والرسوم بجشع ووحشية، وينتقصون من حكمهم الذاتي لأنفسهم، ويعاملونهم كشعب يرزح تحت هيمنتهم.

لقد كان من نتائج هذه الغزوات والحملات (رغم صغر عدد الجيوش الإسلامية التي خاضتها وتواضع نتائجها العسكرية والسياسية) أن تحقق كسر حاجز الخوف لدى العرب من الدولة البيزنطية، واعتقادهم بإمكانية إبعادها عن مواطن القبائل العربية في بلاد الشام، ورأوا ذلك احتمالاً ممكناً، وأدركوا أن هذا إذا تحقق، إضافةً إلى توحيد الجزيرة العربية، سيؤدي إلى إقامة دولة عربية إسلامية قوية. ومن نتائج هذه الغزوات الطليعية أيضاً معرفة طبيعة الأرض في شمال الجزيرة العربية والمواقع العسكرية البيزنطية الموجودة فيها، وإقناع القبائل العربية الموالية للروم بأن الدولة العربية الإسلامية الناشئة قادرة على ضرب القوات البيزنطية وطردها وتحرير القبائل العربية من هيمنتها.

من جانب آخر، كانت الإمبراطورية البيزنطية تواجه صعوبات داخلية عسكرية وسياسية واقتصادية كبيرة جداً بسبب الخلافات الداخلية بين أصحاب القرار والحروب الطويلة مع الفرس والتكاليف الباهظة لهذه الحروب. ففي مطلع القرن السابع، وقبيل الدعوة الإسلامية، اشتعلت الحرب بين الفرس الساسانيين والدولة البيزنطية، وهُزمت جيوش الدولة البيزنطية، ووصل الفرس إلى محيط القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية. كما تقدّمت قبائل السلاف المتحالفين مع الفرس في البلقان ووصلت جيوشهم إلى أثينا، وأصبحت القسطنطينية بين جيوش عدوين. كما وسّع الفرس رقعة ممتلكاتهم في الشام وأرمينية واحتلت جيوشهم دمشق عام ٦١٣م، ثم تابعوا حروبهم وانتصروا في عدة معارك، فاحتلوا جنوب سورية والبحر الميت (أدنى الأرض) وصولاً إلى القدس، ونقلوا صليب المسيح إلى عاصمتهم المدائن، وكانت هذه المرة الأولى التي تقع فيها القدس تحت حكم غير المسيحيين، وواصلوا زحفهم بعد ذلك إلى الاسكندرية واحتلوها عام ٦١٩م، وأوقفوا شحن القمح إلى بيزنطة فساءت أحوالها الاقتصادية أكثر فأكثر. وقد جاء في القرآن ﴿الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ (الروم/١-٣). وما إن جاء عام ٦٢٢م، أي العام الأول للهجرة، حتى

كانت الإمبراطورية البيزنطية على حافة الانهيار، وقد توسّعت الإمبراطورية الساسانية على كل الجبهات على حساب الإمبراطورية البيزنطية، ولم يبقَ للبيزنطيين سوى أثينا وقبرص وقرطاجة في شمال أفريقيا مع شريط ساحلي ضيق، وانهارت معنويات البيزنطيين وازداد الصراع الداخلي، وتوقّع الجميع انهيار الإمبراطورية انهياراً كاملاً. ولذلك قام هرقل (هركيليس) بانقلاب عسكري، وكان حاكم قرطاجة، وتمكّن، بعد أن أعاد تنظيم الجيش، من أن يصبح حاكم القسطنطينية، وقام بالالتفاف على الجيوش الفارسية وهاجمها في بلادها، ولتحقيق هذا الهدف تحالف مع الخزر والترك وأبقى القسطنطينية محاصرة و"هاجم بلاد فارس من المؤخرة عن طريق الإبحار من البحر الأسود، واستولى على أذربيجان سنة ٦٢٤م، حيث قام بتدمير أكبر معبد نار مجوسي انتقاماً لتخريب كنيسة القيامة في القدس"[١].

وهكذا، وبمساعدة الخزر وقوات تركية أخرى، استغل الإمبراطور البيزنطي هرقل غياب قادة الجيش الساساني الغارقين في خلافاتهم وربح عدة انتصارات مدمّرة للفرس بعد ١٥ عاماً من بدء انتصاراتهم على البيزنطيين. وانتصر الإمبراطور هرقل الأول عام ٦٢٧م (بدون مساعدة الخزر الذين تركوه) انتصاراً ساحقاً على الجيش الفارسي بقيادة رامزاد. وقررت هذه المعركة الحاسمة مصير الصراع بين الطرفين.

استمرت انتصارات هرقل حتى وصل قرب المدائن عاصمة الفرس، وعندها اضطر الفرس لعقد الصلح معه، واستردت بيزنطة بموجب هذا الصلح كل ما كان لها من البلاد التي كانت قد سقطت بأيدي الفرس بما في ذلك أملاكهم في أراضي الجزيرة الفراتية والشام ومصر. إلا أن نتيجة الصراعات الداخلية في بيزنطة، القاسية والصعبة، أدّت إلى إنهاك الإمبراطورية البيزنطية وإضعافها، وهذا ما شجّع الدولة العربية الإسلامية الناشئة على مهاجمتها. وربما كانت أهداف العرب المسلمين المنظورة استعادة القبائل العربية الواقعة تحت الهيمنة البيزنطية، وهذا ما تحقق بوضوح خلال معركة اليرموك، حيث انتصر الغساسنة المسيحيون لأبناء عمومتهم العرب وانفضّوا عن البيزنطيين الذين يدينون بالدين نفسه في معركة اليرموك. وكان انضمام الغساسنة إلى الجيوش العربية الإسلامية التي قدمت لفتح سورية عاملاً مشجّعاً للقبائل العربية الأخرى التي كانت تسكن بادية

١ ويكيبيديا.

الشام وبين النهرين، لتصطفّ كما اصطف الغساسنة. والأمر نفسه حصل مع القبائل العربية في العراق من المناذرة وغيرهم، حيث خاضوا معركة القادسية مع العرب المسلمين مع أنهم لم يسلموا قبل المعركة وأثنائها. ولا شك أن الانتصارات الباهرة التي تحققت في المراحل الأولى من الصراع، وخاصةً الانتصار في معركة اليرموك، شجّعت قادة الدولة العربية الإسلامية الناشئة (الخلفاء الراشدين) على الاستمرار في الهجوم على هذه الدولة والعمل على طردها من بلاد الشام ثم من مصر وشمال أفريقيا فيما بعد، وساعد على ذلك ما كانت عليه الدولة البيزنطية من ضعف وانهيار.

بعد توحيد القبائل في الجزيرة العربية وإقامة الدولة العربية الإسلامية الموحدة، استمرّ الخلفاء الراشدون في تطبيق السياسة التي بدأها النبي، أي استمرار توسيع الدولة وتحقيق تكافئها مع الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية، وتحقيق مجال حيوي لها بعد ضمّ القبائل العربية في جنوب سورية وجنوب العراق وبين النهرين إليها. واستمر الخلفاء الراشدون في إرسال الجيوش بهدف المزيد من الفتوحات في هذه البلاد، سواء إلى الإمبراطورية الفارسية أم إلى الإمبراطورية البيزنطية. وبعد المعارك الأولى، التي أتاحت لهم فتح العقبة ومعان وبصرى الشام وغيرها، أعدّت الجيوش العربية نفسها للموقعة الكبرى مع الإمبراطورية البيزنطية، فكانت معركة اليرموك التي أعدّ لها المسلمون جيداً، وكان هرقل يقيم في حمص وقت المعركة، ولأسباب عديدة، موضوعية وذاتية، انتصر العرب في اليرموك انتصاراً حاسماً كان بداية انحسار الدولة البيزنطية عن بلاد الشام، إذ استطاع العرب بعدها فتح دمشق وفلسطين ومدن سورية أخرى، وأدّت المعارك في النهاية إلى انسحاب البيزنطيين من بلاد الشام ثم من شمال أفريقيا، وكانت هزيمة مشهودة للإمبراطورية البيزنطية وقائدها هرقل.

حاولت السلطات البيزنطية، السياسية والدينية، تفسير هزيمة الإمبراطورية وجيوشها في بلاد الشام وشمال أفريقيا تفسيراً دينياً يعتمد على الخيال والأوهام، كان المهم فيه الابتعاد عن الإشارة إلى الأسباب الحقيقية لانتصار الجيوش الإسلامية وانهيار الجيوش البيزنطية. وقد ألقت السلطات الدينية خاصةً أسباب الهزيمة على فساد الناس، وابتعادهم عن الدين، وغضب الله عليهم، وإرساله العرب المسلمين (الساراسان) لهزيمتهم، وبالتالي كان جزاء وفاقاً، حسب رأي رجال الدين.

بهذه الادّعاءات والتفسيرات غير الموضوعية حاول البيزنطيون إيجاد مبررات متخيلة ومفتعلة لهزيمتهم، وابتعدوا عن الأسباب الحقيقية المتمثلة في فساد السلطة وضعف النظام السياسي والظلم الذي كان سائداً في المجتمع، سواء ظلم رجال الدين أم هيمنتهم على الدولة أم تفسخ النظام السياسي والسياسيين[1] أم عدم معالجة حال البؤس الذي كان يعيشه الشعب والجوع والفقر والظلم.

لم تعنِ الانتصارات العربية المفاجئة في العقد الأخير من حياة هرقل احتلال ولايات بيزنطية وتشتيت جيوشها فحسب، ولكنها، على ما بدا في عقول بعض الرجال، أثارت افتراضات بشأن ديمومة الإمبراطورية ودوام العون الإلهي لها وصحة العقيدة المسيحية نفسها. لقد فسّرت النصوص القليلة التي تعود إلى العقد الثالث من القرن السابع، والتي تشير إلى الانتصارات العربية، الهزائمَ البيزنطية على أنها نتيجة لنزع الحماية الإلهية عن المسيحيين البيزنطيين أو – بتعبير أوضح – نتيجة الغضب الإلهي بسبب خطايا المسيحيين وإهمالهم. وكانت هذه الآراء ترداداً لآراء مسيحية سابقة، فعلى سبيل المثال لخّص بطريرك القدس صفرونيوس (الذي استقبل عمر بن الخطاب في القدس وتسلّم منه "العهدة العمرية") أسباب الهزيمة في مواعظه وكلماته الموجهة إلى المؤمنين قال فيها: "لماذا تثار الحروب علينا؟ لماذا تضاعف الحملات البربرية؟ لماذا تقوم جماعات العرب في وجهنا؟ لماذا يتزايد الخراب واللصوصية؟ لماذا تسيل اللعنة من دون انقطاع؟ لماذا تلتهم طيور السماء الأجسام البشرية؟ لماذا يتعرض الصليب للسخرية؟ لماذا تجدّف على المسيح نفسه الأفواه البربرية وهو الواهب لكل الأمور الحسنة والمانح النور لنا؟"، وينتهي صفرونيوس إلى القول: "ما كان للدنسين أن يحققوا ذلك أو أن يقووا إلى درجة أن يفعلوا هذه الأشياء أو أن يتلفظوا بها لولا أننا قمنا نحن أولاً بتدنيس المقدسات، وبذلك أسأنا إلى المسيح الواهب العطايا وجلبنا هذا الغضب على أنفسنا". وبرأي صفرونيوس أن العرب الساراسانيون كما يدعوهم "قاموا أمامنا فجأةً ودمّروا كل شيء بعنف واندفاع حيواني وبجرأة شريرة وآثمة". وعلى النحو نفسه كان مكسيموس المعترف، وهو المقدّم بين المدافعين عن المفاهيم

[1] تزوج هرقل (المسيحي) مثلاً ابنة أخيه، رغم نقد رجال الدين واستنكارهم.

الأرثوذكسية، قد شجب نجاح العرب في الاستيلاء على الأراضي البيزنطية ورآه رهيباً[1]. ويضيف صفرونيوس: "أما وقد جاء هؤلاء القوم بأمر الله، واستولوا على كلتا المملكتين على ما هو بيّن، لا بأي حرب أو أي معركة، بل بأسلوب سهل، على نحو ما يحدث عندما تنقذ خشيةً من النار، من دون استعمال أسلحة حرب أو أساليب بشرية، فقد وضع الله النصر في أيديهم على نحو يدل على أن ما جاء عنهم يمكن أن يكون أمراً مقضياً (أي: إن رجلاً واحداً تعقب ألفاً واثنين هزما عشرة آلاف)، وإلا فكيف يمكن قوماً عراة، يمتطون الخيول من دون سلاح أو ترس، أن يربحوا لولا العون الإلهي. إذ دعاهم الله من أطراف العالم كي يدمّر على أيديهم 'مملكةً شريرة' وليؤدي إلى القضاء على روح الفرس الرفيعة على أيديهم". ويضيف: "يمكن أن نقصّ أخبار المجازر التي قاموا بها (أي الفرس) في أرض اليونان، وفي كوش وإسبانيا وسواها من المناطق القاصية، حاملين معهم الأسرى من أبناء هؤلاء وبناتهم، مخضعينهم للاسترقاق والعبودية. إن أولئك الذين لم يتورعوا، أيام السلم والثراء، عن مخاصمة خالقهم، أرسل إليهم قوماً من البرابرة الذين لم يكن في قلوبهم شفقة عليهم". ويتابع واصفاً صورة العرب المسلمين كما يراهم: "ولما رأى الله أنه لم يحدث أي تحسن، وجّه نحونا المملكة البربرية وأهلها الذين لا سبيل لهم لقبول أي معتقد، والذين لا يعترفون بمعاهدة أو باتفاقية، والذين لا يقبلون تملقاً أو مداهنة، والذين ترتاح نفوسهم إلى الدم الذي يراق من دون سبب، والذين يرون السرور في السيطرة على الجميع، والذين يرغبون في إلقاء القبض على الأسرى وفي النفي، والذين غذاؤهم الضغينة والغضب، والذين لا يطمئنون إلى الرضا بما يقدَّم لهم"[2].

يذكر حسام عيتاني في كتابه **الفتوحات العربية في روايات المغلوبين** أنّ الغارات العربية، في كانون الأول/ ديسمبر ٦٣٤م، حالت دون حجّ المسيحيين إلى بيت لحم، واضطر صفرونيوس إلى إلقاء عظة الميلاد، التي تلقى عادةً في كنيسة المهد، في القدس. وبعد ما عبّر عن فرحته المزدوجة لمصادفة الميلاد يوم أحد، قال: "علينا الكفاح لنستحق مكافأة الله بجلب هبات الإيمان والأعمال الصالحة كما جلب الرعاة

١ هنا وما بعد اقتباس عن ولتر كيغي، **بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة**، مصدر سابق، ص٢٧٠-٢٧١.
٢ **بيزنطة والفتوحات الإسلامية المبكرة**، مصدر سابق، ص٢٧٦-٢٧٧.

والمجوس هباتهم إلى يسوع في بيت لحم". وقادت هذه المقدمة صفرونيوس إلى التطرق إلى الأحداث، فاستخدمها لتوجيه رسالة إلى رعيته بقوله: "لكننا، وبسبب خطايانا التي لا تحصى وسلوكنا الشديد الإثم، كنّا عاجزين عن رؤية هذه الأمور وعن الدخول إلى بيت لحم. وبمعزل عن إرادتنا بالفعل، وعلى خلاف تمنياتنا، طلب منا البقاء في بيوتنا، ولم تعقنا أربطة جسدية، بل أعاقنا الخوف من السراسنة". ويتابع أن المسيحيين في القدس مثل آدم الذي حُظر عليه دخول الجنة على الرغم من "أننا لا نرى السيف المتقلب الملتهب، بل نرى سيف السراسنة البربري الجامح المليء بكل التوحش الشيطاني. ونحن، كموسى، محظورٌ علينا دخول أرض الميعاد، ومأزقنا يشبه مأزق داود: هو واجه الفلسطينيين، فيما الآن استولى السراسنة الذين لا يؤمنون بالله على بيت لحم وقطعوا علينا الطريق إليها ويهددون بالقتل والدمار إذا غادرنا هذه المدينة المقدسة وتجرّأنا على الاقتراب من بيت لحم الحبيبة والمقدسة"[١].

ويتابع البطريرك: "لماذا يتعرض الصليب إلى السخرية؟ لماذا تجدّف الأفواه الوثنية على المسيح وهو موزّع كل الخيرات ومزوّد كل المبهجات؟ لذا هو يصرخ فينا: بسببكم يجدّف على اسمي بين الوثنيين، وهذا أسوأ من كل الأمور الرهيبة التي تجري لنا. لهذا يجول السراسنة المنتقمون والكارهون لله، وهم عار التخلي الذي أبلغنا الأنبياء به بلاغاً واضحاً، في الأماكن المحظورة عليهم. ينهبون المدن ويدمّرون الحقول ويحرقون القرى ويضرمون النار في الكنائس المقدسة ويقلبون أعلى الأديرة المبجلة أسفلها ويواجهون الجيوش البيزنطية التي تندفع لصدهم ويكدّسون الغنائم في القتال. ومجدداً ها هم ينهضون ويأتون ضدنا ويزيدون من تجديفهم على المسيح والكنيسة، ويطلقون أبغض التجديف على الله، ويتشدّق أعداء الله هؤلاء بالنصر على الجميع، ويقلّدون بإلحاح وبلا وازع الشيطان قائدهم ويفوقونه في الخيلاء التي طرد بسببها من الجنة وقضي عليه بالبقاء في الظلمة الحزينة"[٢].

١ الملاحظ أن صفرونيوس يصف العرب بصفات سلبية ويعرض صورتهم كمتوحشين ودمويين، بينما تشير التواريخ العربية إلى أن صفرونيوس كان ودوداً أو "سعيداً" بالاتفاقية التي عقدها مع عمر بن الخطاب. وعند مقارنة هذا الرأي بما كتبته الكتب العربية عن آراء صفرونيوس ورؤيته لصورة العرب لا بدّ أن نرى التناقض وربما نصاب بالدهشة.

٢ **الفتوحات العربية في روايات المغلوبين**، مصدر سابق، ص٦٥-٦٧.

حاول البيزنطيون حكّاماً ورجال دين أن يقنعوا شعوبهم أنّ الفتح العربي الإسلامي هو عقوبة من الله لأنهم، كأفراد ومجتمع، ابتعدوا عن الدين وخالفوا تعاليمه. وتجاهلوا، بهذا الزعم، أن الدولة البيزنطية ومجتمعاتها بلغت درجةً من الضعف كبيرة بسبب الحروب الطويلة التي خاضوها مع الفرس، والتدهور الاقتصادي الناتج عن الحروب، من جهة، وعن إسراف أهل السلطة غير المبرر، إضافةً إلى تفكك المجتمع وتعرضه للاستبداد والظلم وزيادة الضرائب والرسوم على الشعب، من جهة أخرى، ممّا هيّأ المناخ للهزيمة بسبب هذا الضعف المتعدد الجوانب.

إذا كان ضعف الإمبراطورية البيزنطية ومجتمعاتها وتفككها هو الجانب الأول للهزيمة، فمن الجانب الثاني، وأعني الجانب العربي، توحّدت القبائل العربية في الجزيرة في دولة واحدة، وأقامت الدولة الناشئة علاقات جديدة مع القبائل العربية في سورية (الغساسنة وبني كلب والتنوخيين ومضر وغيرهم) ممّا شجّع على تعميق التطلعات العربية الجديدة لإيجاد مجال حيوي جديد وواسع للعرب خارج جزيرتهم. وكانت بلاد الشام دائماً محطّ إعجاب العرب بخيراتها وعامل إغراء للقدوم إليها وضمّها، وشجّع على ذلك وجود القبائل العربية فيها.

ومن الجانب العربي أيضاً – حسب فريد دونر – أن سورية شكّلت عنصر جذب قوياً للعرب الذين اتّحدوا بعد فتح مكة، خصوصاً أنّ زعماء قريش، الذين أصبحوا جزءاً رئيسياً من النخبة الإسلامية السياسية والدينية الحاكمة، وكانوا على اطّلاع وثيق على ازدهار الحواضر السورية، وأن بعضاً منهم، كأبي سفيان، امتلك أراضي قرب دمشق. ويجوز الاعتقاد بأن قريشاً شجّعت محمداً على فتح الشام، وأنه رأى في تلك الأرض ما يوفّر مصادر عيش الجماعة الإسلامية الجديدة، دون أن يلغي ذلك بحال حقيقة أن الشام احتلت مكانة مميزة في العقيدة الإسلامية، وأن القدس أولى القبلتين والمكان الذي أُسري بمحمد إليه ليلة الإسراء والمعراج، وهذه القدس هي، في نهاية المطاف، من حواضر سورية التي شهدت نزول الرسالات السابقة على الإسلام أيضاً.

من طرف آخر رأى مؤرخون عديدون أن ازدياد عدد سكان الجزيرة العربية ونقص الموارد فرض حاجة التوسّع، وشجّع على ذلك توحيد القبائل وإقامة دولة جديدة

ناشئة، إضافةً إلى ضعف الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية مما شجّع على الفتوحات. ويقول مؤلف **تاريخ الإمبراطورية البيزنطية** ألكسندر فاسيليف إنّ البدو الذين شكّلوا الأكثرية الساحقة من جنود الفتوحات لم يكن من همّ لهم سوى الأسلاب والنهب، فيما كانت معرفتهم بالإسلام معرفة سماعية فقط، مشدّداً على غياب العامل الديني في الفتوحات، ما يذكّر بضآلة موارد الجزيرة العربية وعدم قدرتها على تلبية احتياجات السكان، من دون التبني الكامل لها.

ويستنتج برنارد لويس استنتاجاً مشابهاً بقوله إن الفتوحات العربية هي توسّع للأمة العربية وليس للإسلام، بسبب الاكتظاظ الديموغرافي، وإنها من طينة الهجرات التي حملت الساميين مرات تلو المرات إلى الهلال الخصيب وما بعده. وقد حصلت في القرنين السادس والسابع حالات تمدّد عربية إلى مناطق الهلال الخصيب، في حين أن العديد من المدن مثل بصرى وغزة كانت تضم نسبة مهمة من سكانها من العرب. وساعد في نجاح الفتوحات أن السدّين الفارسي والبيزنطي، اللذين أمكنهما التصدي لموجات الفتوحات والهجرات العربية، كانا ضعيفين[1].

يظهر الخوف من العرب عند جويل كارمايكل سبباً رئيسياً، كما يرى أن سبب الفتوحات الإسلامية هو الحافز المادي لا العقيدة أو الإيمان، فالقبائل العربية الرحّل بسيطرتها على مجتمعات متقدمة عنها استطاعت أن تحقق الإمبراطورية التي استمتع العرب بخبراتها. ويحدّد أريكين شيلدرز خطر الإسلام في الشعر والقصص، وحتى في الأغاني التي يغنيها الأطفال في المدارس الغربية، ويتعرّض لأغنية رولاند التي تذكّر الأطفال بشجاعة رولاند وفروسيته ضد أعدائه من المسلمين، الأمر الذي ساعد على تكوين صورة العرب كبرابرة ومتوحشين وأعداء للمسيحية[2]. وعلى أية حال، ما من أحد في ذلك العالم كان يحلم بأنّ مجموعة من سكان الصحراء، الذين لم يلعبوا أي دور مهم في تاريخ الحضارة، والذين كانت أكثر قبائلهم تقدماً قد أسلمت قيادها إلى الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية وراحت تفاخر بتبعيتها لقيصر وكسرى، سرعان ما سيغدون أسياداً على جزءٍ هائل من أراضي الحضارة القديمة[3].

---

١ **الفتوحات العربية في روايات المغلوبين**، مصدر سابق، ص٨٠-٨١.

٢ نادية حسن سالم، "صورة العرب في الغرب"، صحيفة **المستقبل**، ١٩٨٩/١١/٢٩.

٣ **٢٣ عاماً**، مصدر سابق، ص١٣-٢٥.

ثالثاً - محمد والإسلام في متخيّل الغرب

لخّص محمد نور الدين أفاية في دراسة هامة عن "الإسلام في متخيل الغرب" ملامح الصورة التي تشكّلت في مخيلة الأوروبيين في العصور الوسطى عن الإسلام والمسلمين، أكّد فيها أن الصورة التي شكّلها البيزنطيون صارت أساساً ثابتاً لتلك الصورة التي شكلها الأوروبيون، وأشار إلى أن البيزنطيين لم يتعاملوا مع الإسلام كدين سماوي أو غير سماوي وإنما كبدعة وأفكار وتعاليم وضعها النبي محمد، ولم يصدقوا يوماً أن الإسلام في النهاية هو معطى ديني وثقافي وحضاري يمثل مرحلة نهوض للعرب كأمة موحدة وناشئة لها تطلعات سياسية وثقافية. وعلى ذلك انصبّت جهودهم في المرحلة الأولى على نقد النبي وتشويه صورته والتأكيد على أنه رجل كذاب ومدّعي ودموي، وفي مرحلة لاحقة شوّهوا كل ما جاء فيه من فلسفة وتعاليم إسلامية، حيث صوّروها كما يريدون، بل كما يتخيلون. وبقيت هذه الصورة التي رسمها البيزنطيون قائمة لدى العالم المسيحي الغربي سواء في إسبانيا في القرنين الأخيرين من الألف الأولى أم في أوروبا منذ بداية الألف الثانية وبدايات الحملات الفرنجية (الصليبية) وتبريرها، واستمرت هذه الصورة قائمة في العصور الوسطى، واستخدمها الأوروبيون لانتقاد العثمانيين والتحريض عليهم وتشويه صورتهم باعتبارهم مسلمين أيضاً. ولعل الصورة التي رسمها البيزنطيون كانت القاعدة الأساس للصورة النمطية التي نشأت وتطورت واستمرت في أوروبا حتى قدوم الاستعمار الأوروبي إلى البلدان العربية، وقبله قدوم المستشرقين والرحّالة الذين بنى معظمهم آراءه على الصورة التي رسمها البيزنطيون دون روّية.

اعتمد البيزنطيون بدورهم في رسم الصورة عن النبي محمد والإسلام منذ نهاية القرن السابع على آراء يوحنا الدمشقي[1] وعلى عدة أساطير رواها بعض الرهبان

[1] يوحنا الدمشقي: رجل دين عربي دمشقي طوّب قديساً فيما بعد باسم القديس يوحنا الدمشقي، وهو من قبيلة تغلب العربية المسيحية المشهورة في الجزيرة وفي بلاد الشام. ولد باسم يوحنا منصور بن سرجون عام ٦٧٦م في دمشق خلال حكم الدولة الأموية، من عائلة مسيحية نافذة، إذ كان والده يعمل وزيراً في بلاط الخلافة الأموية، وكذلك كان يعمل جده رئيساً لديوان الجباية المالية فيها. وقد شغل يوحنا الدمشقي نفسه هذه الوظيفة فترة من الزمن، ومن ثم دخل إلى دير القديس سابا قرب القدس في فلسطين، وتميز بمؤلفاته اللاهوتية الفلسفية العديدة ودفاعه الشديد عن العقائد المسيحية، وبردّه على ما كان يعتبره هرطقات مختلفة خصوصاً فيما يتعلق بتكريم الأيقونات. يعتبر يوحنا الدمشقي آخر آباء =

والمفكرين البيزنطيين، ومنها أن راهب بصرى بحيرى (النسطوري) هو من لقّن محمداً أسس الديانتين اليهودية والمسيحية، ممّا ساعده على تأسيس الإسلام. وبالتالي رأى البيزنطيون أن الدين الإسلامي هو وليد المذهب النسطوري[1] الذي كان منتشراً في الحجاز، خاصةً لوجود تشابه بين آراء المذهب النسطوري وآراء الإسلام الفلسفية من السيدة مريم والتثليث والتجسيد وغير ذلك.

لقد سمع البيزنطيون (والغرب عموماً) عن النبي وكوّنوا معرفتهم عنه عن طريق رأي البيزنطيين ورأي ويوحنا الدمشقي، الذي سمّاه "النبي الكذّاب"، وكان يوحنا الدمشقي من أوائل من كتبوا مؤلفاً كاملاً عن النبي والإسلام سمّاه **الهرطقة**، واتّهم النبي بأنه اقتبس قسماً مما جاء به من نساطرة الحجاز مثل ورقة بن نوفل (عم خديجة زوجة النبي الأولى) وأمية بن أبي السلط وغيرهما، وكذلك من بعض الأناجيل المحرّفة، وشنّ هجوماً على النبي شخصياً، وكتب عن منشأ الإسلام وسيرة النبي، ووصفه بأنه يستغلّ الدين لمصالحه الشخصية. وحاول يوحنا الدمشقي التشكيك بأن الإسلام دين إبراهيم (كما يدّعي المسلمون) ووصف المسلمين بأوصاف استفزازية مثل "الساراسانيين"، إشارةً إلى أصلهم البدوي من جهة وأنهم أبناء هاجر من جهة أخرى.

يرى محمد نور الدين أفاية[2] أن يوحنا الدمشقي في الدراسة المشار إليها هو أول كاتب بيزنطي استخدم هذا التشويه الإيتمولوجي[3] لأغراض الجدل العنيف وتحفيز

= الكنيسة الشرقية بإجماع الباحثين. وقد شكلت مؤلفاته مرجعاً مهماً لجميع لاهوتيي القرون الوسطى، حتى أن توما الإكويني يستشهد به في مؤلفاته، كما ألف عدداً من الترانيم الكنسية التي لا تزال تردَّد في طقوس الكنيسة البيزنطية حتى اليوم.

١ هو المعتقد أو المذهب الديني المسيحي الرافض لمجمع أفسس المعقود سنة ٤٣١م. يعرّف داعمو كيرلّس الأول النسطورية بأنها العقيدة القائلة إن يسوع المسيح مكوّن من جوهرين يعبّر عنهما بالطبيعتين وهما: جوهر إلهي وهو الكلمة، وجوهر إنساني أو بشري وهو يسوع. فبحسب النسطورية لا يوجد اتحاد بين الطبيعتين البشرية والإلهية في شخص يسوع المسيح، بل هناك مجرد صلة بين الإنسان والألوهة، وبالتالي لا يجوز إطلاق اسم والدة الإله على مريم العذراء بحسب النسطورية، لأنها لم تلد إلهاً بل إنساناً فقط حلّت فيه كلمة الله أثناء العماد وفارقته عند الصليب. فيكون هذا المذهب بذلك مخالفاً للمسيحية التقليدية القائلة بوجود أقنوم الكلمة المتجسّد الواحد ذي الطبيعتين الإلهية والبشرية.

٢ انظر دراسته **الإسلام في متخيل الغرب**، وزارة الثقافة المغربية، التي تم الاقتباس منها.

٣ نظرية المعرفة.

الذاكرة، وكان يصف المسلمين أيضاً بـ"المفسدين".

لقد صوّر يوحنا الدمشقي الرسول على أنه واحد من أتباع بدعة أريان، وأنه استقى بعض الأفكار من الآريانية، العقيدة التي تفيد بأن "الكلمة" و"الروح" لا يعدوان كونهما مخلوقين لله، وأنه اقتبس من النسطورية ما يتعلق بعدم تأليه الابن المتجسّد. ويعتبر الدمشقي أنّ القرآن نتاج لأحلام اليقظة، ويصوّر النبي كشخص مضلَّل، وينتقد بقوة ما يعتبره "معاملة لا تليق بالنساء من قبل المسلمين"، ثم ينتهي معدّداً أهم الممارسات والمحظورات في الإسلام على الشكل التالي: الختان، عدم اتخاذ يوم السبت للراحة والعبادة، إلغاء المعمودية، إحداث تغيير في محرمات الطعام ومنع شرب الخمر.

كتب البيزنطيون عن النبي محمد أنه نبي مخادع وقالوا متسائلين: "هل أتى نبي بسيف وعربة حرب؟" وأكّدوا أن حقيقة النبي محمد هي أنه يهوى سفك الدم البشري. ومنذ القرن التاسع وما بعد كُتبت عدة سير عن النبي تشير جميعها إلى أنه "كذّاب ودجّال" وأنه "سابق للمسيح الدجال والمحضّر له وخليفة آريوس"[1]، وصوّرت الإسلام على أنه هرطقة مسيحية. وقد نجح الخطاب السياسي والديني البيزنطي في إنتاج صورة سلبية عن عدو وثني وبربري ذي قسمات صارمة وحادة ومدببة، وعن رجالٍ شعث غُبر يمتهنون إراقة الدماء، كما نجح في تصدير هذه الصورة إلى الغرب لتسكن في الوعي والوجدان الأوروبي[2]. ولعلّ هذا ما شجّع الكنيسة الإسبانية

١ الآريوسية هي مذهب مسيحي وهي إحدى الطوائف التي لم يعد لها وجود في الوقت الراهن، تنسب إلى آريوس (حوالي ٢٥٠-٣٣٦م) أحد كهنة الإسكندرية، وتتمحور تعاليمها المختلفة عن سائر الطوائف في علاقة أقانيم الثالوث المقدس ببعضها بعضاً وطبيعة هذه الأقانيم. في العام ٣٢٥م اعتبر آريوس هرطوقاً في مجمع نيقية الذي عقده الإمبراطور قسطنطين، و يرى بعض الباحثين، أمثال ابن حزم ونهاد خياطة، أن آريوس كان موحداً باعتباره حصر صفات الألوهة المطلقة بشخص أو بأقنوم الآب، غير أن الرأي السائد لدى أغلب الباحثين أن آريوس وإن حصر الألوهة المطلقة بأقنوم الآب إلا أنه اعتبر الابن إلهاً يعبد بحق. ولكن الروح القدس لا تمتلك الكيان الإلهي المطلق الفريد، وبالتالي فقد طبقت الآريوسية الفلسفة اليونانية على المسيحية، إذ إن الفلسفة اليونانية تحوي أنصاف وأشباه آلهة أيضاً. وأطلق على الآريوسية في كتابات آباء الكنيسة عموماً مصطلح "العدميين" لأن إيمانهم بالثالوث الأقدس احتوى على عقيدة خلق الابن من العدم، أي أن يسوع، الذي هو الأقنوم الثاني، وكذلك الروح القدس، قد خلقا من العدم بإرادة الآب، بمعنى وجود فاصل زمني بين وجود الآب ووجود الابن والروح القدس.

٢ حاتم الطحاوي، "أوروبا والإسلام في العصور الوسطى، قضايا المجابهة والعلاقات السياسية والإنسانية"، **الحياة**، ٢٠٠٤/٧/٣.

والكنيسة الأوروبية فيما بعد على الاستمرار في النقد نفسه للنبي.

بعد دخول الجيوش العربية والإسلامية جزيرة إيبيريا وانتصارها السريع على حكامها، والانطلاق منها إلى دخول أوروبا، دهش الإيبيريون من الحال الذي وصلوا إليه، والهزائم التي حلّت بهم، وقدرة الفاتحين وسرعة تقدمهم. وأمام عجزهم عن صدّ الفاتحين أخذوا يطلقون عليهم أبشع الصفات التي اعتمدوا فيها على الصورة التي رسمها البيزنطيون، قادةً ورجال دين وكتّاباً وأساطير شعبية، وأضافوا إليها صفات جديدة، فأكّدوا مجدداً تسمية البيزنطيين للعرب (الساراسان) وأسموهم أيضاً "الوثنيين" وأحيوا أدبيات يوحنا الدمشقي وأوصافه للإسلام ونبيه ومبالغته في النقد والشتيمة، دون أن يتعرّفوا إلى الإسلام ويحيطوا به بمعرفة موضوعية أو حتى شبه موضوعية، أو يطّلعوا على فلسفته وتعاليمه ولاهوته، أو يتعرّفوا إلى حياة النبي وسيرته ولو بالحدّ الأدنى. ولم يترجم القرآن إلى أية لغة أوروبية قبل القرن السادس عشر، ولذلك، قبل أن تتعرف الشعوب الأوروبية إلى الإسلام، كانت المخيلة الشعبية والأساطير والتاريخ المشوّه والروايات وأقوال رجال الدين والسياسيين، المعتمدة جميعها على الصورة التي رسمها البيزنطيون للعرب، قد شوّهت الإسلام والمسلمين والعرب بأعين الأوروبيين، وكان الوعي الجمعي لدى الإسبان وسكان إيبيريا عموماً يميل إلى تصديق هذه الروايات والأساطير وتضخميها كردّ على الاحتلال العربي الإسلامي وعلى الهزيمة التي أوقعها بهم.

انتقلت هذه الصورة إلى أوروبا، خاصةً بعد معركة بواتييه في القرن التاسع التي خسرها العرب والمسلمون. ومجّدت "أناشيد رولان" انتصار الأوروبيين وهزيمة "السراسنة" ووصفتهم بالمتوحشين والمتعطشين للدماء وخطرين يجب محاربتهم.

لقد كرّس رجال الدين والكتّاب والسياسيون والقادة بشكل عام صورةً سلبية عن الإسلام والمسلمين في العصور الوسطى، وخاصةً أثناء الحروب الصليبية وبعدها، وأنكرت هذه الصورة أنّ الإسلام دين سماوي، واعتبرت أنّ القرآن من صنع البشر وغير موحى به، بل من تأليف محمد نفسه، أقنع به أناساً جهلة ومتخلفين، والقرآن، حسب هذه المخيلة، مليء بأفكار خيالية عن الجن والشياطين، ووصفوا النبي محمد بأنه ساحر ومخادع وماكر، وأنه ليس نبياً بل كان وثنياً ورجلاً شبقاً يسعى

وراء الملذات وينغمس بها، ولذلك قال بتعدد الزوجات، وهذا كله دليل على التفسخ والانحلال الخلقي، وهو عكس ما جاء به المسيح، أي التقشف وعدم الاهتمام بالملذات الجسدية. وقالوا إن هذا الرجل الوثني المرتبط بأكثر مصادر الإغراء واللذة لجأ إلى حيل ساقطة للوصول إلى السلطة، مدّعياً الاتصال بمنابع الوحي وحاملاً لرسالة دينية جديدة تدعو إلى تصحيح الديانات السابقة وإلى الجهاد والعنف، وما انتصار هذه البدعة إلا دليل على مكر هذا الرجل وعلى جهل كل من اتّبع رسالته. فالمجتمع الجاهلي الذي انبثق منه، حسب رأيهم، كان مجتمعاً متوحشاً يسكنه أناس أميون يعيشون بدون نظام، ولم تكن لديهم حكومة في يثرب على الأقل. وقد تعرّض (هذا المجتمع الجاهلي) للتأثيرات الخارجية للإمبراطورية الرومانية في الشرق، ولكنه كان مخترقاً من طرف لاجئين، ضحايا الصراعات الكنسية، أكثر ممّا تأثر بالمبشرين الأرثوذوكس. ويمثل محمد النتاج الطبيعي لهذا العالم، مخادع وسط المخادعين أحياناً، ولكنه متلاعب كبير على العموم[1]. وكانوا يعتقدون أن المسلمين يمارسون الشذوذ الجنسي ولا يتورعون عن جعل الجنس مسألة حيوية في علاقاتهم ووجودهم، وهذا ما يعبّر عن ضعفهم وعجزهم عن التحكّم في غرائزهم وأهوائهم. وكانوا يتساءلون: كيف لنبي، ولمن اتّبعه، أن يدّعي الإتيان بمشروع إلهي وهو غير قادر على الترفّع عن غرائزه البسيطة والتحرر من إغراءات اللذة والحياة العابرة؟ وهكذا اعتبر النبي غير قادر على أن يكون نبياً حقيقياً، أو أن يأتي بعقيدة صحيحة، وبالتالي فإنه لا يمكن أن يكون إلا شخصاً مرتداً أو نبياً مزيفاً لا يملك سوى الادّعاءات والأضاليل، بل إن الخيال المسيحي جعل منه ساحراً ومعادياً للمسيح ويجسّد صورة الشيطان. وخلاصة القول "إن الوعي أو بالأحرى المتخيل المسيحي عن الإسلام يعتبره عقيدةً ابتدعها محمد ويتّسم بالكذب والتشويه المتعمد للحقائق، وهو دين الجبر والانحلال الخلقي والتساهل مع الملذات والشهوات الجسدية، وهو ديانة العنف والقسوة"[2].

ويُجمع الباحثون على أن الإدراكات والصور الأولى التي كوّنتها المخيلة المسيحية

١ **الإسلام في متخيل الغرب**، مصدر سابق، ص٤٩.
٢ المصدر السابق.

الأوروبية عن الإسلام (في القرون الوسطى) كانت نمطية باهتة وغامضة ولا تستند، باستثناء حالات قليلة محدودة، إلى الاطّلاع ومعرفة بأصول الإسلام ونصوصه التأسيسية. وفي كل الأحوال فإن المسلمين شكلوا ولمدة طويلة، بالنسبة إلى الغرب المسيحي، خطراً قبل أن يصبحوا مشكلة[1]، وهذا ما أكّده الكتّاب الأوروبيون، سواء عن الإسلام أم المسلمين أم عن النبي محمد. وأعرض في ما يلي بعضاً من هذه الكتابات اقتباساً عن كتاب **الإسلام في متخيل الغرب** للدكتور محمد نور الدين أفاية:

> شارك الكتّاب الإسبان في تشويه صورة العرب والمسلمين، ومنهم إيلوجيس الذي انتقد رفض الإسلام فكرة الثالوث واعتبار النبي محمد أن المسيح مجرد نبي أو رسول. وقام إيلوجيس بكتابة العديد من الرسائل مشدّداً فيها على أن النبي محمد هو رسول كاذب ومدّع للنبوة، ووصفه في كتاباته بـ"الذئب المختبئ بين الخراف". وكان لكتّابات إيلوجيس وكاتب آخر هو القس الإسباني ألفاروس دور كبير في نشوء ما سُمّي بـ"الاستشهاديين المسيحيين" الذين قاموا ببعض العمليات الانتحارية ضد المسلمين.

كان من البديهي أن تتطور النظرة إلى المسلمين تطويراً متدرجاً ومرحلياً كغزاة متوحشين أولاً وكهراطقة ثانياً "وكانت الغزوات البربرية التي شنّها الهون والقبائل الجرمانية والقوط من جهة، والهرطقات من جهة ثانية، تشكلان معاً علامات بارزة في العالم المسيحي قبل الفتح العربي". وقد تحدثت أدبيات الحروب الصليبية الأوروبية وزودتنا بعينات كثيرة عن "تراجع" رتبة المسلمين في سلّم الإيمان إلى مرتبة الوثنية بسبب الضرورات الحربية والسياسية التي استدعت من الكتّاب والمؤرخين إعادة اكتشاف وثنية المسلمين، وهي وثنية لا يمانع بعض الكتّاب من جعلها تسبق ظهور الإسلام ذاته، حيث ينسب أحد مرافقي الحملات الصليبية إلى الإسكندر المقدوني العثور على أصنام لمحمد أثناء حملاته في الشرق[2].

لم يكن غريباً أن يخترع الأوروبيون، في سياق تشكيل صورتهم للغازي العربي

١ المصدر السابق.

٢ **الفتوحات العربية في روايات المغلوبين**، مصدر سابق، ص٢١٩.

المتوحش، ديناً وثنياً خرافياً يقوم على تثليث نقيض يؤمن به العرب. فمقابل ما يرمز إليه التثليث المسيحي، جاء التثليث المتخيّل ليلصق بالمسلمين كل ما كان العقل القروسطي الأوروبي يخشاه من استسلام للشهوات وعودة إلى الوثنية القديمة وغموض لا تتجلى أسراره، من خلال إقامة ديانة معادية وكريهة أفرزها خيال يتوق إلى إبقاء الخصم في حيز قابل للرفض والإدانة.

رابعاً- التواصل العربي الأوروبي[1]

كان التواصل بين شعوب المنطقتين العربية والأوروبية صراعاً وحروباً في معظم الحالات، منذ ما قبل المسيح حتى العقود الأخيرة من القرن الماضي، تواصلاً هدف غالباً إلى الهيمنة والاستحواذ والاستعمار وإخضاع الآخر، إلا أنه كان تواصلاً مستمراً بدون انقطاع أدّى، مما أدّى إليه، إلى تأثر وتأثير وتثاقف وتبادل حضاري، حتى كانت شعوب المنطقتين العربية والأوروبية خلال التاريخ كالأخوة الأعداء. وهناك عدة مراحل تاريخية أساسية من هذا التواصل بين المنطقتين كان لها دور هام في تبادلهما الثقافي والحضاري، وفي تكوين صورة كلٍّ منهما لدى الآخر. ومع أن هذا التواصل كان صراعاً إلا أنه أدّى إلى علاقات وتأثيرات متعددة الجوانب.

حدث التواصل الأوروبي العربي في التاريخ القديم خلال محاولات التوسع القرطاجي (بين القرنين الخامس والثاني قبل الميلاد) في جزر المتوسط وجنوب أوروبا والجزيرة الإيبيرية، كما أدّت إليه الحروب والصراعات التي تمّت خلال أحقاب تاريخية طويلة بين القرطاجيين والرومان، حيث تبادلوا الانتصارات والهزائم أثناء صراعهم الطويل. وحدث التواصل أيضاً أثناء توسع الإسكندر المقدوني (القرن الرابع قبل الميلاد) في بلدان شرق المتوسط وشمال أفريقيا، حيث حمل الإسكندر معه الثقافة والحضارة الإغريقيتين. وحدث هذا أيضاً أثناء التوسع والحروب الرومانية (من القرن الثاني قبل الميلاد حتى الرابع الميلادي) ثم البيزنطية (من القرن الرابع

[1] انظر: حسين العودات، **صورة الآخر النمطية عربياً وأوروبياً**، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، دمشق، ٢٠٠٣.

إلى مطلع القرن السابع الميلادي) في شمال أفريقيا وشرق المتوسط، وطوال حكم الرومان ثم البيزنطيين لهذه المناطق طوال مئات السنين، حيث نقلوا خلالها ثقافتهم وحضارتهم مؤثرين في شعوب المنطقة ومتأثرين بثقافاتها وحضاراتها بطبيعة الحال، رغم أن أهدافهم لم تكن لا ثقافية ولا حضارية ولا تنويرية.

كانت أوسع تأثيرات التواصل خلال الفتوحات العربية الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال) وفي جزر المتوسط في القرون الأخيرة من الألفية الأولى (بدءاً من مطلع القرن الثامن) وتفاعل الثقافات العربية الإسلامية القادمة والأوروبية القائمة في إطار الحروب والصراع والحوار والسلام.

ولا تخرج حروب الفرنجة (الصليبية) في نهاية القرن الحادي عشر وطوال قرنين، والصراعات والحروب التي جرت بسببها بين العرب والمسلمين وبين الأوروبيين، عن هذا الإطار، وأحدثت بدورها تأثيرات عميقة بين الطرفين.

وأخيراً أشير إلى الحروب الاستعمارية الأوروبية التي بدأت مع عصر النهضة الأوروبية واستمرت حتى القرن العشرين، والتي لم يسلم منها بالكاد بلد عربي، وكانت وسيلة هامة للتواصل بين شعوب المنطقتين، وفتحت أعين الشعوب العربية على جوانب النهضة الأوروبية والحضارة الأوروبية المزدهرة.

إذن كان التواصل موجوداً دائماً بين الشعوب الأوروبية والعربية خلال التاريخ، إلا أنه كما أشرت – ولسوء الحظ – أخذ طابع التناقض والصراع والحروب ومحاولة الهيمنة والاستحواذ، لكن الحروب والصراعات هذه كانت أيضاً، وفي الوقت نفسه، أساس تواصل ثقافات وحضارات. وأشير في هذا المجال وعلى وجه الخصوص إلى

– تنصّر روما ودخولها المسيحية في بداية القرن الرابع الميلادي، والمسيحية ديانة مشرقية وثقافة مشرقية في جوهرها وفلسفتها ونظرتها إلى الكون والحياة.

– صراع الدولة العربية الإسلامية الفتية مع الإمبراطورية البيزنطية والتغلب عليها وإجبارها على الانسحاب من بلاد الشام، مما أدى إلى محاولة البيزنطيين التعرف إلى الدين الإسلامي والحضارة العربية وبدء علاقات جوار مع العرب تسوء أحياناً وتتحسن أحياناً أخرى. ولاقت هذه المجاورة صراعات عسكرية وتبادل ثقافي في الوقت نفسه، وأسّس الموقف البيزنطي من العرب صورة انتقلت إلى أوروبا القرون

الوسطى ثم أوروبا عصر النهضة وصولاً إلى أوروبا الاستعمارية، ومازالت آثار هذه الصورة قائمة حتى الآن.

- ترجمة العرب للفلسفة اليونانية والعلوم والفنون اليونانية والبيزنطية واستيعابها وتمثلها وتطويرها وقبولها ورفضها ومعارضتها والرد على بعضها، وذلك بدءاً من القرن الثامن الميلادي، قبل أن تعيد أوروبا اكتشاف شيء عن هذه الفلسفة وتلك العلوم.

- استرجاع الشعوب الأوروبية الثقافة اليونانية بعد تعريبها معدّلة، بعد أن أثراها الفلاسفة والعلماء العرب، واسترجع الأوروبيون معها الثقافة والحضارة العربية التي تمّ استيعابها وتمثلها أيضاً.

- تأثر أوروبا بالثقافة والحضارة والتقاليد وأنماط العيش لدى الشعوب العربية، خلال حروب الفرنجة (الصليبية)، التي نقلها الصليبيون إليها خلال تواجدهم في المشرق أو بعد رحيلهم عنه إلى أوروبا، فضلاً عن نقلهم علوم المشرق وصناعاته.

- تأثر النهضويين العرب في القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين بالحضارة والثقافة الأوروبية، ومحاولاتهم تمثلها نسبياً وأقلمتها مع مفاهيمهم واحتياجات نهضتهم، ورفضهم الدولة الإقطاعية التركية وهيمنتها على شعوبهم.

وهكذا لم ينقطع التواصل بين شعوب أوروبا وشعوب المنطقة العربية خلال التاريخ، وهو وإن أخذ طابع الصراع والحروب والصدام لكنه أدّى أيضاً إلى تواصل ثقافي وحضاري، فضلاً عن تواصل تجاري واقتصادي لا مراء فيه، وكانت صورة العرب الحالية لدى الشعوب الأوروبية وليدة هذا التواصل ومتأثرة به.

خامساً - خلاصة صورة العرب لدى شعوب الغرب الأوروبي

أخذت سلبيات هذه الصورة تتراكم في كل مرحلة تاريخية، وصولاً إلى خدمة مصالح القوى الاستعمارية الأوروبية وبما يبرر استعمارها وهيمنتها واحتلالها بلداناً عربية أو مواقع استراتيجية في هذه البلدان. ولعب الرحّالة والتجار والمستشرقون أدواراً سلبية في تكريس هذه الصورة السلبية، سواء بنية مسبقة أم استجابةً لمصالح التجار

والاستعمار وخيال الرحالة في إطار من عدم الفهم لواقع العرب ومفاهيمهم وتاريخهم وسلم قيمهم وأنماط حياتهم ودينهم وعاداتهم وتقاليدهم، وقياس هذه المفاهيم والقيم كلها بمقاييس أوروبية ووزنها بموازين أوروبية، مما أدى في النهاية إلى احتقارها ورفضها واعتبارها تخلفاً وانحطاطاً. وفي كل الحالات، كانت هذه الصورة حصيلة تاريخ طويل من التواصل السلبي والإيجابي الذي جرى بين شعوب عاشت ومازالت تعيش متجاورةً جغرافياً، تعارضت مصالحها أو اتفقت، تصارعت أو تحالفت، تحاربت أو تصالحت، وأثر بعضها في بعضها الآخر تأثيراً فعالاً ثقافياً وحضارياً وفي كل مجال من مجالات الحياة.

في بدء فتح الأندلس كانت صورة العرب والمسلمين في نظر الأوروبيين مطابقة لتلك الصورة التي رسمها البيزنطيون، أي مجموعة من الوثنيين (الكفار) الذين لا حضارة لهم، متوحشين وبدائيين رغم التواصل الإيجابي بين شارلمان وعبد الرحمن الداخل وتوقيعهما معاهدة، ثم تواصل شارلمان مع هارون الرشيد حسب بعض الروايات (القرن التاسع الميلادي)، ورغم اطّلاع الأول على بعض الثقافة والحضارة العربية الإسلامية وتبادله الهدايا مع الثاني.

لقد وُصف العرب المحاربون خلال العصور الوسطى بالغزاة والأعداء والخونة والمذعورين أمام قوة خصومهم، وسمّيت بلاد العرب والمسلمين "بلاد البرابرة"، كما أُطلقت كلمة "غرب" على أوروبا وكلمة "شرق" على البلدان العربية والإسلامية، واعتُبرت نقيضاً للغرب. وعليه، كما يقول إدوارد سعيد:

> إنّ التعصّب الأعمى لدى أوروبا في القرون الوسطى لكلّ ما هو غربي ومسيحي دفع بها، حينما رأت نفوذ الإسلام يزداد وحضارته تنتشر في ربوعها على الرغم منها، إلى أن تجهر بالعداوة والبغضاء للحضارة الإسلامية من أجل الحدّ من انتشارها؛ بل وأصبحت ترى في الدولة الإسلامية خصمها اللدود. ومن هنا صار يُنظر إلى الإسلام على أنّه إلغاءٌ للمسيحية وأنّ رسوله محمداً هو عدوٌّ للمسيح، وكان الغرب يرى في العالم الإسلامي عالماً مضاداً لأوروبا وبذلك أصبح موضع الشك والريبة[1].

[1] د. عبد القادر شريف موسى، "الجانب الأسطوري في كتابات الرحالة – الأسطورة والخيال"، عن

وما لبثت هذه الصورة أن أصبحت أكثر سلبيةً عند بدء حروب الفرنجة (الصليبية)، في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، التي زعم الأوروبيون أن هدفها "إنقاذ قبر المسيح" الذي ينتهكه المسلمون والدفاع عنه حيث "يمنعون المسيحيين من الوصول إلى القدس ويقتلون الحجاج"، ولذلك سوّغ دعاة هذه الحروب تجنيد المحاربين وتهيئة الجيوش وغزو المشرق لتخليص القدس من أيدي المسلمين الكفار. وقد تجاهلت معظم كتب التاريخ الأوروبية والثقافة الأوروبية عامةً الأسباب الحقيقية للحروب الصليبية سواء منها الاقتصادية أم السياسية أم تلك المتعلقة بالتناقضات والأزمات داخل المجتمعات الأوروبية نفسها. وأسست هذه الأفكار للصورة النمطية القائمة حتى الآن، وغذّتها الكتب المدرسية ووسائل الإعلام والأدب الشعبي والفنون والأساطير والمصالح، وكرّستها صورةً مطلقةً ثابتة يكاد يصعب تغييرها.

وقد عزّز المستشرقون والرحّالة هذه الصورة قبيل الحروب الاستعمارية الحديثة، أي منذ بدء عصر النهضة الأوربية، سواء كمقدمة لتسيير الجيوش الاستعمارية أم لتبرير الاستعمار والنهب الاستعماري، ونجد ذلك في طيات بعض الكتب وكتابات المستشرقين والرحالة التي كرستها وحولتها إلى ثقافة تكاد تكون مطلقة.

لقد أدّت الحملات الصليبية إلى تواتر الأخبار عن الشرق وارتسام عددٍ من التصوّرات المبالغ فيها والمنسجمة مع المعطيات الثقافية المحلية. وحتى تستطيع أن تستعمر شعوب الشرق دون أن تجد عراقيل من داخلها، أرسلت أوروبا الرحّالة إلى الشرق ليزوّدوها بمعلومات عنه وأخباراً تكون ذريعةً لاحتلاله، وتزيد في الوقت نفسه من تعميق ذلك الكره وتلك العداوة في نفوس الشعوب الغربية تجاه العالم الإسلامي خاصّةً والشعوب الشرقية عامةً. وحتى تجعل الشرق كبش فداء كان لا بدّ لها من أن تُلصق به صفات قبيحة وشرّيرة من أجل تبرير استعماره واضطهاده، فجاءت الروايات عن الشرق لتركّز تركيزاً متعمَّداً على تلك السمات التي تجعل هذا الشرق مختلفاً عن الغرب بل وتنفيه إلى عالم "الآخر" وتخفضه إلى مرتبة "الغير" الذي لا صلاح له. فمن بين الصفات القبيحة والشريرة التي وُصف بها

الإنترنيت.

الشرق صفة الخمول والفسق والعنف وعدم القدرة على أن يحكم نفسه بنفسه. كل هذه الصفات جعلت للغرب الإمبريالي مبرّرات تسمح له بالتدخل فيه والتحكم به، وتساعده على الظهور وكأنّه منقذ الشرق من الجهل والهمجية وأنه ما جاء إلى داره إلاّ ليحمل له الحضارة والمدنية١٣٤.

شوّه معظم الرحالة الأوروبيون صورة العرب، وكانوا يعتبرون العربي أقل منزلةً من الأوروبي ويختلف عنه اختلافاً كبيراً، وصفاته (أي العربي) – حسب رأيهم – لا تؤهله لأن يكون إلا عبداً أو خادماً لدى الأوروبي الذي يجب أن يكون سيده. كما أعطوا صورة عن العربي تشكك أحياناً في إنسانيته وتحمّله معظم الخطايا، وتبنّوا اتجاهاً لاتاريخياً في الحديث عن العربي وكأنه ذو طبيعة ثابتة جامدة لا تتغير بحكم اعتبارات التطور الحضاري ولا تحت تأثير التقدم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي٢٣٥.

يرى إبراهيم الحيدري أن الكثير مما قام به الرحالة والمستشرقون والأنتروبولوجيون لا ينفصل في الحقيقة عن الأهداف السياسية والاقتصادية الاستعمارية، وأنه في الوقت الذي وقع فيه أغلب رحالة العصور الوسطى في شرك رؤية منحازة إلى الشرق عموماً والعرب والمسلمين خصوصاً، ظهرت حركة تحدٍّ دينية حضارية جديدة، شرق مقابل غرب، ومسيحية مقابل إسلام، وقد اعتبر الأوروبيون أهل الشرق "سراسنة"، أي برابرة خطرين يجب الوقوف بوجههم بحزم[٣]. وقد ساهمت كتابات بعض الرحالة في إثارة العصبية الدينية والدعاية الحربية ضد الشرق، كما غذّت روح الثأر والحرب والانتقام.

ساهم الرحالة بشكل خاص في إظهار الإسلام باعتباره ديناً غير سماوي، بل عقيدة تدعو إلى العنف والعدوان، وأتباعها برابرة دمويون وهمجيون. وكان للصورة التي كوّنها وأنشأها الرحالة الأوائل تأثير كبير على وعي العامة، وتبنّى هذه الصورة جيل الرحالة الأوروبيين الثاني والثالث، وأجيال المستشرقين أيضاً، حيث لم تستطع الأجيال اللاحقة من المسشرقين والرحّالة الفكاك من هذه الصورة. وقد ركّز الرحالة بعد ذلك على أسطورة الشرق الجنسي، فالشرق بنظرهم مجال محرّم، حيث النساء جوارٍ يمنحن

١ المصدر السابق.
٢ السيد ياسين، "الصورة القومية للعرب لدى الحوار العربي الأوروبي"، **الأهرام الإلكترونية**.
٣ إبراهيم الحيدري، **صورة الشرق في عيون الغرب**، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٦، ص٨٩.

ملذات جنسية. وكي ينال هؤلاء الرحّالة استحسان دولهم التي أمدّتهم بالمال وسهّلت لهم مهمَّتهم، كان لا بدّ لكتاباتهم أن تتضمّن تلك الصور المشوّهة للشرق والتي تُبرزه همجياً وبدائياً وغرائزياً حتى يكون ذلك مبرّراً لقادتهم الغربيين في احتلاله ذات يوم تحت شعار "تقديم الحضارة إلى شعب متخلّف". بل إنهم (الرحّالة الأوروبيون) مضطرّون إلى تأكيد هذه الصورة المشوّهة التي جاء بها من قبلهم الرحّالة الأوائل، والتي رسخت في أذهان الشعوب الغربية حتى أصبحت هي الذوق المسيطر عليهم. لأنه إذا ما حاول بعضهم مخالفة ما ألفهُ الناس عن الشرق منذ مدة، وأن يكون نزيهاً في كتاباته، فسيكون مصير ما ألَّفه الإهمالَ والاستهجان وربما السجن أو الموت، متّهمين إيّاه بالعمالة للشرق. ولهذا فإن بعضهم كان مضطراً إلى تلفيق الأكاذيب عن الشعوب الشرقية وطريقة حياتها، وهذه الأكاذيب ما هي إلا نسخة طبق الأصل، مع قليلٍ من التغيير، للكتابات والأساطير التي جاء بها الأوائل عن الشرق. إذ من المألوف دائماً أن يُقال بصدد الاستشراق إن الغرب يعرف عن الشرق أكثر ممّا يعرف هذا الشرق عن نفسه، الأمر الذي من شأنه أن يفتح مجرىً محدَّداً سلفاً للكتابة، مما يؤدّي إلى تقييد المراقب الغربي بل وجعله في كثير من الحالات أسيرَ ما قرأ[1].

يُعدّ الاستشراق المصدر الرئيس لبدايات تناول الدراسات الأنثروبولوجية في بلدان الشرق الأوسط، وكان المستشرقون الأوائل ينتمون إلى جيل من العلماء اللاهوتيين، وبالأخص علماء العهدين القديم والجديد، أو كانوا من المبشّرين المسيحيين، ومنهم من كان عالماً مهتماً أو متخصصاً في الدراسات السامية، وبعضهم كان من الهواة الذين سحرتهم حكايات وقصص الشرق وأساطيره. وارتبطت بدايات الاستشراق بحاجة الكنائس البروتستانتية والكاثوليكية إلى معرفة تفاصيل أرض وموطن السيد المسيح، لكن الاستشراق استُغلّ من طرف القائمين على الكنائس الأوروبية كي تجري عمليات مطابقة لصورة فلسطين والشرق مع تلك الواردة في العهدين القديم والجديد، كما جيّرته القوى الرأسمالية الصاعدة في فرنسا وبريطانيا لمصلحة مطامعها الاستعمارية[2].

على الرغم من أن الأنثروبولوجيا نمت وتطورت مع تطور العلوم الحديثة، غير

١ د. عبد القادر شريف موسى، مصدر سابق.

٢ عمر كوش، "عندما يصنع الاستشراق رؤية نمطية عن الشرق ومجتمعاته"، جريدة **الاقتصادية**.

أنها شهدت تحولات كثيرة وواسعة تغيرت معها النظرة إلى الآخر، الشرقي وغيره، وشهد معها الاستشراق تغيراً واضحاً، من عالم مثبت يقوم على ماهوية ثقافية، حسب تعبير مكسيم رودنسون، ويشدّه الماضي وصراعاته ونظرته الاقتصادية الإقصائية، إلى عالم ينتقد المركز ويسعى نحو عالمية تفترض وجود طبيعة إنسانية مشتركة تنادي بتساٍوي الطاقات الكامنة للثقافات من أجل تحقيق ما هو إنساني. ومع ذلك لم تفلت الأنثروبولوجيا من عقلية النموذج الأوروبي الأصلح والأفضل، خصوصاً حين يتعلق الأمر بالدراسات الإسلامية[1].

أنجب القرن التاسع عشر معظم المستشرقين المعادين للإسلام، وأصبحت كل دراساتهم وأبحاثهم الاستشراقية فى نظرهم حقائق غير قابلة للطعن أو النقاش حول الإسلام في إطار الفلسفة الاستعمارية. وقد شهد هذا القرن، الذى يعدّ أخطر قرون الاستشراق، مرحلةً جديدة من تقارب السياسة والاستشراق باستغلال الأفكار الواردة من حركة المستشرقين ضمن مفهوم الممارسة السياسية للقوى الأوروبية في الشرق. وكانت عمليات الاستشراق بعيدةً عن الموضوعية في القراءة الاستشراقية للإسلام، وكان سبب ذلك عوامل عديدة أهمها خضوع المستشرق لرؤيته الذاتية ولأهوائه، مما نتجت عنه تصورات غير موضوعية عن الإسلام، إذ مهما كان المستشرق متعاطفاً مع الإسلام والمسلمين فإن خضوعه للذاتية أدّى إلى ظهور رؤى استشراقية خيالية بعيدة كل البعد عن الواقع الإسلامي، فخلقوا شرقاً جديداً من صنع خيالهم. كما أنّ من أسباب فشل الاستشراق في الدخول إلى جوهر الإسلام وحقيقته إهمال البعد الديني في دراسة الإسلام ومعرفته، وذلك من خلال تركيز المستشرقين على عوامل غير دينية واعتبارها الأساس فى نشأة الاسلام. ومن هنا فإن مستشرقي القرن التاسع عشر لم يصلوا إلى فهم جيد للإسلام كدين وحضارة، ولم يتمكنوا من تقديم طروحاتهم بصورة صحيحة طالما سيطرت عليهم عوامل التحيز المختلفة وجعلت عقولهم ووجدانهم محكومة بالرؤية المسبقة والأهداف غير العلمية لتشويه الإسلام والمسلمين[2].

وهكذا بقيت صورة العرب النمطية في ثقافة معظم البلدان الأوروبية حتى منتصف

١ المصدر السابق.

٢ إياد محمود حسين، "عملية الاستشراق وأهدافها السياسية"، شبكة البصرة، الإنترنيت.

القرن الماضي، وبعضها حتى الآن، تعتبر أن العرب والمسلمين يتّسمون بطابع الدونية إذا كانوا تابعين، أو بطابع عدائي إذا نجحوا في الهروب من نطاق النفوذ، ويبدو نقصهم الخلقي والعقلي والاقتصادي والمهني والوظيفي واضحاً[1]. وكانت صورتهم في المرحلة الاستعمارية بأنهم فقراء يعيشون عيشة حرمان، إلههم بخيل، خدم وأدلاّء يأكلون على جنوبهم، يشعرون بالخوف ولا يتكلمون[2]، وما دينهم الإسلام إلا دين مسخ ابتكره محمد الذي ادّعى أنه نبي، ولا تعترف الكتب والمدونات بوجود حضارة عربية إسلامية، وتتجاهل مساهمة العرب والمسلمين في الحضارة الإنسانية، وترى أن العرب والمسلمين يتّصفون بالتعصب والعدوان والتوسّع، وتتجاهل عدالة العرب وتسامحهم، بل وتؤكّد أنهم فرضوا في كل مكان دينهم وعاداتهم ولغتهم بل وتقويمهم[3]، وتزعم أن القرآن يرفض أي دين آخر غير الإسلام ويسعى إلى فرضه على غير المؤمنين بالقوة. غير أن هذه الصورة تبدّلت بدرجة أو أخرى في العقود الأربعة الأخيرة من القرن الماضي، سواء في بعض وسائل الإعلام والثقافة أم في بعض الكتب المدرسية في بعض البلدان الأوروبية، وأخذت تشير إلى أن الحضارة العربية الإسلامية هي جسر بين العصور القديمة والعالم الحديث، كما أنها إنجاز فائق في الترجمة، وأن اللغة العربية هي لغة عالمية[4]. كما أخذ بعضها يعترف بأن الحضارة العربية الإسلامية كانت تشجّع العلوم والفنون، وأنه كان لدى العرب والمسلمين مكتبات كثيرة، وأنهم طوروا الجبر والهندسة وحققوا تقدماً في تشخيص الأمراض والفحص السريري وفي تقنية فن العمارة، وحفظوا العلم الإغريقي القديم وأثروه كما أثروا الثقافة القديمة، وأن العلماء العرب المسلمين أبدوا اهتماماً خاصاً بالعلم والفلسفة الإغريقية. لكن الكتب التي تتبنّى هذه المواقف مازالت قليلة، كما أن الموقف في الكتب المدرسية برمته غير منهجي ولا شامل.

اختزل الاستشراق، كما قال إدوارد سعيد في كتابه **الاستشراق أداة إمبريالية**، ثراء الحضارة العربية الإسلامية وما فيها من ثقافة وطريقة حياة إلى مجموعة من القوالب

١ مارلين نصر، **صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص٥٦.
٢ المصدر السابق، ص٥٧.
٣ المصدر السابق، ص١٣٦.
٤ المصدر السابق، ص١٢٨.

الثابتة التي يمكن التعامل معها بسهولة، والتي تجاوزت كثيراً التعميم العلمي المعقول، واتُخذت مطيةً لتسويغ وتعزيز سيادة الغرب الاستعمارية الماضية على الشرق العربي، وكذلك مصالحها ومطامحها الحاضرة في هذا القسم من العالم.

وقد تمكّن المستشرقون، سواء منهم العلماء أم الرحالة أم الكتاب، "من تكوين صورة وأفكار مقولبة عموماً عن الشرق العربي: إنه قاسٍ، متخلف، شهواني، مستبد". وقد وصف سان جون ماندفيل، المستشرق البريطاني، شعوب المشرق في كتابه **الرحلات** بأنهم "شعب شرير وخبيث ومجموعة غريبة من نوع خاص به"[1]. وفي القرن السادس عشر وما بعد اختُزل ثراء الحضارة العربية الإسلامية إلى صورة وضيعة، وذلك لتبرير الدوافع السياسية والاقتصادية وخدمتها، وعمد المستشرقون البريطانيون والرحالة والتجار إلى تصوير العرب بأنهم شعب خطر، فظّ، عدائي، لا يظهر المودّة للمسافرين. ولم يقتصروا على كتابة حكايات سطحية وغريبة عن العرب بل "خلقوا وألّفوا بأنفسهم خرافات وصوراً من نسج خيالهم وتصوراتهم"[2]، وقد ذهبوا إلى المشرق ومعهم تصورات مسبقة وأفكار كانوا يحملونها في بلادهم، ثم تبنّوا ما شاؤوا أن يتبنّوه في أذهانهم على هذا الأساس دون اختلاطهم بالعرب، ولم يكلفوا أنفسهم أن يسألوا من هم العرب، وعلى أية شاكلة، وما هو نوع ثقافتهم وسننهم وعاداتهم وتقاليد معيشتهم، كما قال إدوارد سعيد.

كما وأدخل رحالة القرن السابع عشر صوراً أخرى عن العرب تتعلق بالقرصنة والرق، وراجت هذه الصور شعبياً. وقد لخّص الدكتور حلمي خضر الساري آراء المستشرقين البريطانيين (وهم كغيرهم) فقال: "لقد صوّرهم (أي العرب) المستشرق وليام لثغو كقوم يمارسون السلب والنهب، وأنهم كفار لا يوثق بهم وممتلئون كرهاً للمسيحيين. كما قال عنهم المستشرق جوزيف بيتز في نهاية القرن السابع عشر بأنهم قراصنة وشحاذون ولصوص ومشتغلون بتجارة الرقيق والبغاء. وقد كتب لينغليك: تركت من ورائي عالماً قديماً بالياً، ديانات ميتة ومحتضرة، استبداديات ساكنة تلفظ أنفاسها بصمت، نساء مقموعات ومعصوبات تحولن إلى دمى شاحبة، حب ولّى

---

١ د. حلمي خضر الساري، **صورة العرب في الصحافة البريطانية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٨٨، ص٢٧.

٢ المصدر السابق، ص٢٨.

وخلّف ملذات ملكية وفردوسية"[1].

أما لورنس العرب فقد وصف العرب في كتابه **أعمدة الحكمة السبعة** بأنهم "دوغمائيون بسطاء سطحيون غير مستقرين ضيقو الأفق خنوعون، وهم أغرار قاصرون بشكل لا يرجى لهم فيه صلاح، ضعفاء عاجزون وعلى عيونهم غشاوة، والجسد والروح بالنسبة إليهم متناقضان حتماً وإلى الأبد. إن عقولهم غريبة ومظلمة، مليئة بالكآبة والشعور غير السوي بالأهمية، عقول تفتقر إلى الهداية"[2].

وقدّم لورنس من فوره لا النصيحة فحسب بل والمساعدة الشخصية في دفع المطامع الصهيونية والتفاهم مع العرب معاً إلى أمام، وكان يرى أن اليهود بمثابة خميرة ومن المحتمل أن يكونوا فعّالين في إطلاق الطاقات الكامنة في الشعب العربي، كما رأى احتمال تحقيق إعتاق العرب عن طريق إعتاق اليهود. وكان العرب بنظره برابرة متوحشون وبدو رحل يركبون الجمال ومتخلفون وخاملون وكسالى، بدون قيم وأخلاق، غدارون أنذال وليسوا أهلاً للثقة، جبناء متعصبون، لديهم نزعة قوية للخضوع والانصياع، فاسدون لا يرجى لهم العلاج، ضعفاء وعاجزون[3].

يورد الدكتور حلمي خضر ساري على لسان المستشرق الإنكليزي بتاي، بعد مراجعته للأدبيات ولجميع أنواع المادة المستمدة من الملاحظات والحكايات والأمثال وتحليل اللغة والفن والموسيقى، أنه يجد "أن الشخصية الشكلية العربية الأزلية مسؤولة عن عدم القدرة مطلقاً على التحديث (على حدّ تعبيره) رغم جهود الغرب المتواصلة للمساعدة في هذا الأمر"، ويجدها شخصية تحوي السمات التالية: الميل إلى استبدال الفعل بالقول، الميل إلى الاعتماد على الماضي، عدم الميل إلى بذل الجهود لتغيير أوضاع قائمة، النزعة للجوء إلى التهديدات الشفهية امتعاضاً دون أن يعقبها فعل، الميل إلى التهويشات والمبالغة والإفراط في التوليد والتكرار، عدم احترام عامل الوقت والافتقار إلى الحسّ بالزمن، لغة قاصرة عن أداء عدد من الأفكار والأشياء، شخصية منفصمة التذبذب، الإيمان بالقضاء والقدر ومقت الجهد ابتغاء التحسين، هياج الطبع، نزوات الغضب، العدوان والعنف، نمط مفكّك من السلوك

١ المصدر السابق، ص٤٢.
٢ المصدر السابق، ص٥٧-٥٨.
٣ د. أديب خضور، **صورة العرب**، ص٢٢.

والافتقار نسبياً إلى الترابط بين المستويات الوظيفية الثلاث للوجود الإنساني، الأفكار والألفاظ والأفعال عمليات فكرية بمعزل عن الواقع، النزعة إلى الخصام والمشاكسة، عقدة النقص والكراهية التي لا مبرر لها للغرب[1].

إن أهم الأسباب الرئيسة التي ساهمت في تشكيل هذه الصورة وخلخلة إمكانيات التعاون تتلخص بما يلي:

١. **حروب الفرنجة** (الحروب الصليبية) (نهاية القرن الحادي عشر حتى القرن الرابع عشر الميلادي) حيث ساهمت المؤسسة الدينية (البابوية) والملوك والطامعون والإقطاعيون والتجار والعسكريون والفقراء المدقعون والمغامرون، ساهموا جميعاً في الحملات الصليبية، وكل منهم رأى فيها فرصة لتحقيق أهدافه ومطامعه. لقد تعددت أسباب هذه الحروب وتداخلت، وأوجدت مناخاً أدّى إلى جنون الدعوة إليها، وسار عشرات الألوف نحو الشرق كلٌّ لأسبابه، ولكن الجميع زعم أنه يسير لتحقيق هدف إنقاذ قبر المسيح من أيدي "الوثنيين".

لقد تحوّل السكان المحليون في الإمارات الصليبية إلى أقنان ومضطهدين، سواء المسلمون منهم أم المسيحيون، فلم يكونوا "يقيمون أي فرق بين السكان الخاضعين لسلطتهم، فكانوا يعاملون المسيحيين (العرب) بنفس القدر من القساوة التي كانوا يعاملون بها المسلمين، حيث كان الفلاحون المسيحيون والفلاحون المسلمون أقناناً"[2] وبذلك كشفوا عن طبيعة غزوهم وأهدافهم وأثبتوا إفلاس إيديولوجيتهم المعلنة وشعاراتهم البراقة التي اختبأوا تحتها لغزو الشرق، وحرموا سكانه من حقوقهم الأساسية. وليبرروا هذا كله أسّسوا لصورة سلبية عن الشرق لدى الشعوب الأوروبية، وعن ثقافته وحضارته وقيمه ودينه وتقاليده ومجتمعاته، وما لبثت – هذه الصورة – أن نمت وتضخمت وتحولت إلى احتقار وازدراء لشعوب الشرق والدين الإسلامي. ومن جهة ثانية كان للتواصل بين الإمارات الفرنجية (الصليبية) في الوقت نفسه، ورغم هذه السلبيات، تأثيران هامان:

الأول: لم يبقَ "الصليبيون" الذين ولدوا وعاشوا في الشرق بالذهنية نفسها والتكوين

---

١ مقتبس عن د. حلمي خضر ساري، مصدر سابق، ص٨٠-٨١، ٨٨-٨٩، ١٠٢-١٢٤.
٢ ميخائيل زابوروف، **الصليبيون في الشرق**، دار التقدم، موسكو، ص١٣٥.

النفسي والاجتماعي الذي كان عليه الغزاة الأوائل. فأبناء الجيل الثاني وما بعده صاروا "مشارقة" ولدوا في الشرق وعاشوا فيه وتطبّعوا بطباعه وتعلّموا العربية وعرفوا الإسلام، فلم يعد المسلمون بنظرهم "وثنيين" بل أصحاب كتاب لهم دينهم وفلسفتهم وثقافتهم وحضارتهم وتقاليدهم وأعرافهم.[1] ولا شك أنهم نقلوا هذه المفاهيم عن الشرق إلى أوروبا وأحدثوا تواصلاً ثقافياً وتثاقفاً من نوع ما.

الثاني هو أن عجز الإمارات العربية الإسلامية المحيطة بالإمارات "الصليبية" عن الوقوف بوجه الأخيرة وهزيمتها انعكس على عامة الناس تديناً وانغلاقاً وتصوفاً بعيداً عن روح الإسلام ومضمونه، وساهم في ظهور التيارات الصوفية وفرق الدراويش وانتشار الخرافات والأوهام، وأتاح لهذه التيارات (أفراداً وجماعات) أن تشوّه صورة شعوب أوروبا لدى شعوب المنطقة العربية دون أن تفرق بين مستعمرين وطامعين وبين الحضارة الأوروبية والثقافة الأوروبية، فأعطوا صورة عن أوروبا وكأنها كتلة واحدة صلدة من نسيج اجتماعي وثقافي واحد لا تضم أية تنوعات، وكأن حضارتها وثقافتها لا تختلف عن رغبات وممارسات القوى الاستعمارية فيها، وهكذا أسست هذه التيارات لصورة سلبية عن الشعوب الأوروبية وثقافتها متماهيةً مع ثقافة وممارسات القوى الاستعمارية، وما لبثت هذه الصورة أن دخلت في عمق ثقافة شعوب المنطقة العربية، ومازالت بقاياها موجودة حتى الآن.

٢. **ساهم الرحالة والمستشرقون** (خاصةً في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر) مساهمةً كبيرة في تأسيس الصورة النمطية السلبية في ثقافة شعوب أوروبا تجاه العرب والإسلام، فقد ذهب عديد من الرحالة بعيداً في إضافاتهم لما شاهدوه خلال رحلاتهم، سواء لإضفاء عنصر التشويق على قصصهم أم بسبب إسقاط أفكارهم المسبقة عليها أم، أخيراً، بمقتضى فهمهم السطحي لما رأوه وشاهدوه وصادفوه خلال رحلاتهم. وبحث معظمهم عن "الفانتازيا" يزيّن بها روايته دون الاهتمام بأي شيء آخر، فكانت الحصيلة تراكم أخبار ومعلومات وروايات بعيدة عن الحقيقة، ليست منهجية ولا دقيقة، تصلح للتسلية أكثر مما تصلح لإيصال المعرفة، وبذلك ساهم هؤلاء الرحالة مساهمات سلبية في أحيان كثيرة في إعطاء صورة عن شعوب

[1] فيليب حتّي، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، دار الثقافة، بيروت، ص٢٥٥.

المنطقة العربية يشوبها التشويه وعدم الدقة والمبالغة. ولا شك أن بعض الرحالة حاول أن يكون دقيقاً في وصف الواقع، إلا أن معظمهم كان يخونه التحليل العلمي والتعليل الدقيق وفهم الشروط التاريخية للمجتمع فضلاً عن ثقافته وتراثه وسلم قيمه.

كان الأمر مختلفاً بالنسبة إلى المستشرقين، فمنهم من قدم إلى الشرق للدراسة والبحث ومنهم من أتى ليقوم بمهمات استطلاعية تساعد القوى الأوربية الصاعدة على استعمار الشرق. وعمل القسم الثاني خاصةً على تحقيق هدفين:

الأول: دراسة الواقع الجغرافي والاقتصادي والسكاني والاجتماعي للمنطقة العربية، وإعداد معلومات تساعد القوى الاستعمارية على غزوها وتسهيل مهمتها في زحفها العسكري فيما بعد. وقد استفاد الغزاة الأوروبيون كثيراً من دراسة هؤلاء المستشرقين.

الثاني: تشويه صورة المنطقة لدى الشعوب الأوروبية وتحريضها عليها، وطلب مساعدتها على استعمارها، واختلاق المبررات الأخلاقية والسياسية والاقتصادية لغزوها.

وفي المحصلة لعب معظم المستشرقين دوراً كبيراً في تشكيل الصورة السلبية عن شعوب المنطقة العربية التي ما لبثت أن تحولت إلى صورة نمطية استمرت حوالي قرنين ومازالت بقاياها قائمة حتى الآن.

يقول إدوارد سعيد عن الاستشراق: "إذا اتخذنا من أواخر القرن الثامن عشر نقطة للانطلاق محددة تحديداً تقريبياً، فإن الاستشراق يمكن أن يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق، بإصدار تقارير حوله، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه، وتدريسه، والاستقرار فيه، وحكمه... الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق، وتحقيق السيادة عليه..."، ويقول أيضاً: "وما أطرحه هو أننا ما لم نكتنه الاستشراق بوصفه إنشاءً فلن يكون في وسعنا أبداً أن نفهم الفرع المنظم تنظيماً عالياً الذي استطاعت الثقافة الغربية عن طريقه أن تدبّر الشرق – بل حتى أن تنتجه – سياسياً واجتماعياً وعسكرياً وعقائدياً وعلمياً وتخيلياً... وعلاوةً على ذلك – يضيف سعيد – فقد احتل الاستشراق مركزاً هو من السيادة بحيث أنني أؤمن

بأنه ليس في وسع إنسان يكتب عن الشرق، أو يفكر فيه، أو يمارس فعلاً متعلقاً به، أن يقوم بذلك دون أن يأخذ بعين الاعتبار الحدود المعوّقة التي فرضها الاستشراق على الفكر والفعل. وبكلمات أخرى، فإن الشرق، بسبب الاستشراق، لم يكن (وليس) موضوعاً حراً للفكر أو الفعل. ولا يعنّي هذا أن الاستشراق، بمفرده، يقرّر ويحتّم ما يمكن أن يقال عن الشرق، بل أنه يشكّل شبكة المصالح الكلية التي يستحضر تأثيرها بصورة لا مفر منها في كل مناسبة... يكون فيها ذلك الكيان العجيب (الشرق) موضعاً للنقاش".

٣. **مارست القوى الاستعمارية الأوروبية** (بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر) سياسة التشويه المتعمد لصورة شعوب الشرق وحضارتها وثقافتها وقيمها الروحية لتبرر استعمارها ونهب خيراتها والتحكم بمصيرها والقضاء على معارضة القوى الديموقراطية الناشئة في أوروبا للاستعمار والسياسات الاستعمارية، وكان التشويه والتزوير أفضل السبل لقطع الطريق على تلك القوى وتبرير السياسات الإمبراطورية والنهب الاستعماري.

وجد إياد القزاز، أستاذ علم الاجتماع في جامعة ولاية كاليفورنيا، بعد تمحيصه صورة الإسلام كما رُسمت في ستة وثلاثين كتاباً مدرسياً أميركياً (وهذه لا تختلف عن الكتب الأوروبية)، أن هذه الصورة المرسومة مشوهة للعقيدة الإسلامية وتفرط في تأكيدها على طبيعة الإسلام العنيفة والمولعة بالقتال، حيث تقول هذه الصورة المرسومة: "بدأ المحمديون كذلك بفتح الأمم الأخرى وإجبارها على قبول الدين الجديد. إن المسلمين الأوائل نشروا الديانة بالسيف وكان الإسلام دين قتال". وتستطرد الصورة المرسومة قائلةً: "يعتقد المسلمون أن عليهم أن يعلّموا الناس جميعاً ما علّمهم محمد. إنهم قوم مولعون بالحروب، وقد شدّد محمد على الاستشهاد في سبيل الدين. وأصبح الهلال رمزاً للعقيدة الإسلامية؛ إنه يشبه شكل السيف الإسلامي. قال محمد: إن السيف هو مفتاح الجنة. وحرّض محمد أتباعه على نشر الدين بالسيف". ويقول القزاز إن الصورة المهيمنة الأخرى التي تسود في هذه الكتب هي صورة الرق وحال المرأة، حيث تقول الكتب المدرسية إن الرق والحالة الدنيا للمرأة أمران مقبولان في الإسلام. إن كتابهم المقدس (القرآن) يعظهم بأن تكون المرأة عبداً للرجل. وعبودية

الرجال يوافق عليها القرآن كذلك. إن المرأة المحجبة هي رمز للثقافة الإسلامية. أما بالنسبة للعرب فيجري تصويرهم من قبل هذه الكتب على أنهم شعب بدوي يعيش في صحراء واسعة ويستخدم الجمل كوسيلة وحيدة لمواصلاته. هؤلاء الأعراب البدو، بطبيعة الحال، شغوفون بالغزو والنهب والسلب. والبدو رجال مقاتلون طيلة تاريخهم الطويل، وهم يقاتلون بعضهم بعضاً من أجل المراعي الجيدة ويسلبون المسافرين الذين يقطعون الصحراء. إنهم يمتطون خيولهم السريعة ويذهبون منقضّين في القفر لمهاجمة قافلة مارة أو قبيلة أخرى، رجالهم محاربون لا يهابون شيئاً، وأقرب شيء إلى قلوبهم هو صهوات الجياد العربية الرائعة السريعة للاشتراك في قتال، يحدوهم أمل بسلب القوافل.

أما في الصحافة الأميركية فإن أكثر الصور شيوعاً وانتشاراً عن العرب فهي التناقض والتجزئة وعدم الوحدة والبداوة وعدم الأمانة والجبن والإرهاب وعدم الكفاءة. وتظهر بعض أقنية التلفزيون الأوروبية والأميركية أسوأ الصور عن العرب منها صورة البدوي الآخذ بالثأر، القاسي، الجبان، المنحطّ، المهووس، إلى صورة المبتز بواسطة النفط. وهكذا أصبح الإسلام رمزاً للرعب والدمار والشياطين وأفواج البرابرة الممقوتين بصورة اعتباطية، كما أصبح الإسلام وممثلوه مخلوقات أنتجها الخيال الغربي الخرافي والتاريخي، كما يقول إدوارد سعيد في كتابه **الاستشراق**.

هناك مساهمان رئيسان في تشويه صورة العرب والمسلمين لدى الشعوب الأوروبية (ولدى غيرها) لأسباب استعمارية صرفة، وهما:

- **القوى الاستعمارية** التي قدمت إلى المنطقة العربية (شرق المتوسط وشمال أفريقيا) منذ القرن الثامن عشر بهدف استعمارها، وتكاثف قدوم جيوشها منذ مطلع القرن التاسع عشر. فقد كانت هذه القوى تهدف لاحتلال الشرق واستعماره ونهب مواده الأولية وتحويله إلى سوق لمنتجاتها، وخاصةً بعد الثورة الصناعية الأوروبية. وكان دورها السلبي يتمثل في تبرير وتسويغ الاستعمار والنهب الاستعماري وإظهار قوى الاحتلال على أنها قوى تنوير وتطوير لشعوب متخلفة أو بدائية يقع تطويرها في إطار المهمات العظام للتنوير الأوروبي. ولكي يكون الاستعمار مستساغاً كان لا بدّ من الإيغال والمبالغة في وصف حالة شعوب الشرق، والتأكيد على أن إنقاذها مما هي فيه

لا يتيسر إلا من خلال الاحتلال الأوروبي، بل لقد رأت بعض الأوساط الأوروبية أن العناية الإلهية هي التي قضت بقدوم المستعمرين لإنقاذ هذه الشعوب. وقد رأت هذه القوى (بسياسييها ومثقفيها وعسكرييها وشركاتها الصناعية الكبرى) شعوب الشرق بعين واحدة، وقوّمت ثقافتها وقيمها وأساليب عيشها من خلال المفاهيم الأوروبية لا من خلال الشرط الموضوعي لهذه الشعوب، وقاست ما لدى هذه الشعوب بمقاييسها فوجدتها متخلفة بدون حضارة، وثنية بدون دين، تحتاج إلى من ينهض بها.

وهكذا اجتمع العامل الذي يحاول تبرير الاستعمار مع العامل الذي رأى واقع هذه الشعوب حسب مقاييسه لا حسب مقاييس الواقع الموضوعي والشرط التاريخي (هذا إذا أُحسنت النيات)، وهكذا نُقلت صورة خاطئة ومشوهة وظالمة عن العرب والمسلمين، وعن ثقافتهم ومفاهيمهم ودينهم وتقاليدهم وأنماط عيشهم، صورة سلبية دخلت – مع الزمن – في أعماق الثقافة الأوروبية، ووضعت حضارة العرب في ذيل الحضارات الإنسانية، وأكدت هشاشة ثقافتهم وسطحيتها وبدائيتها، واستهزأت بالدين الإسلامي ووصمته بالعدوانية وضيق الأفق والتعصب والضحالة. وما لبثت هذه الصورة السلبية أن تراكمت وأصبحت صورة نمطية شبه مطلقة، يتلقاها الأوروبيون وكأنها بديهية، ولم تفلح مواقف وآراء ومساهمات بعض المستشرقين والكتاب الأوروبيين في تغييرها، ولا حتى التشكيك في خطأ اعتبارها صورة مطلقة وصحيحة وثابتة. ذلك أن القوى الاستعمارية كانت تلح على تأكيد هذه الصورة طوال الألف الثاني للميلاد وحتى أواخر القرن العشرين، وكانت الشعوب الأوروبية ضحية دعاية القوى الاستعمارية وإعلامها حتى كادت تتماهى مع هذه القوى وتصبح هذه الصورة السلبية والنمطية واحدة لدى الشعوب والحكام والقوى الاستعمارية الأوروبية، فضلاً عن النخبة المتعلمة والمثقفة، مما أدى إلى شرخ عميق بين شعوب أوروبا والعرب، وإلى ردود فعل لدى العرب واستحكام عدائهم للأوروبيين.

– كما وساهمت **الصهيونية**، بكل مؤسساتها الثقافية والسياسية وآلتها الإعلامية، في تشويه هذه الصورة. فبعد أن رأت السياسة البريطانية في مطلع القرن العشرين ضرورة إقامة "حاجز بشري قوي وغريب على الجسر البري الذي يربط أوروبا بالعالم القديم ويربطهما معاً بالبحر الأبيض المتوسط، بحيث يشكل في هذه المنطقة وعلى مقربة

من قناة السويس قوة عدوة لشعوب المنطقة، وصديقة للدول الأوروبية ومصالحها، وهو التنفيذ العملي العاجل للوسائل والسبل المقترحة" حسبما أوصى مؤتمر لندن عام ١٩٠٧ الذي دعا إليه حزب المحافظين البريطاني، وقدمت توصياته لحزب الأحرار الحاكم، وشاركت فيه لجنة من كبار علماء التاريخ والاجتماع والزراعة والبترول والجغرافيا والاقتصاد. وكانت الحركة الصهيونية قد رأت قبل ذلك أن إقامة دولة لليهود هي الحل الأمثل لتحقيق أهدافها، وبعد تردد في اختيار هذه الدولة بين أوغندا أو الأرجنتين استقر رأيها على إقامتها في فلسطين بسبب إمكانية إيجاد شرعية توراتية لهذه الدولة. وهكذا التقت مصالح المستعمر البريطاني والحركة الصهيونية في اختيار المكان، وبدأت الآلة الدعائية الاستعمارية من جهة والصهيونية من جهة أخرى حملة تشويه لصورة العرب والمسلمين لاستخدامها ذريعةً لإنشاء الوطن القومي اليهودي.

بدأت هذه السياسة بإنكار وجود شعب في فلسطين "وطن بلا شعب لشعب بلا وطن" وأخذت تزيد من سيل الهجرة وتقيم المستوطنات محتميةً بالانتداب البريطاني، وتأسيس شرعية "الحق التاريخي" والاستشهاد بالتوراة (سواء عن هذا الحق أم لتشويه الأغيار العرب المتخلفين؛ الأقلية التي تكاد تكون بلا وجود). ولاقت هذه الدعاية الدعم من الأوساط الثقافية والإعلامية والتعليمية الأوروبية فضلاً عن الأوساط السياسية، وهكذا ربحت الدعاية الصهيونية مرتين: إحداها في تشويه صورة العرب، والثانية في تبرير الغزو الصهيوني والهجرة اليهودية إلى فلسطين.

وبعد قيام إسرائيل واغتصابها فلسطين زاد الإعلام الصهيوني (الذي أصبح مؤسساتياً تدعمه دولة وسفارات وحركة صهيونية منتصرة ومؤسسات ثقافية وإعلامية ودينية) هجمته على الثقافة والحضارة العربية والإسلامية، وعلى العرب والمسلمين عامةً، ووجد استجابةً من المؤسسات والقوى والمراكز الأوروبية الاستعمارية والاحتكارية، فساهم في تأسيس صورة مشوهة بالمطلق، منطلقاً من مزاعم أن إسرائيل دولة ديموقراطية علمانية متحضرة مسالمة صغيرة قادرة على أن تكون محرضاً لتطوير العرب ومساهماً في تطوير المنطقة كلها، وعوناً للحضارة الأوروبية في الانتشار في بحر عربي مسلم متخلف عدواني متعصب يعادي السلام كما يعادي المصالح الأوروبية والثقافة الأوروبية عامةً. ووجدت هذه المفاهيم آذاناً صاغية في أوروبا على نطاق معظم شرائح المجتمعات

الأوروبية وفئاتها، فزادت الصورة المشوهة أصلاً تشويهاً، وأصبحت نمطية بالمطلق، وكرّستها هزيمة ١٩٦٧ من جهة، والحروب العربية ضد الاحتلال الأوروبي في البلدان العربية شمال أفريقيا أو في بلدان المشرق العربية وتصفية المصالح الاستعمارية من جهة أخرى. وأخذت الصحف والمجلات ووسائل الإعلام والثقافة الأوروبية والأميركية تميل إلى النظر إلى إسرائيل كامتداد للحضارة والثقافة الغربيتين، وكرّست إسرائيل على أنها قوة ديموقراطية عصرية، ومدعاة استقرار في هذه الزاوية من زوايا العالم الفوضوية والمتخلفة تخلفاً قاسياً، ورأت أن الإسرائيليين قد خلقوا أمةً وأزهروا الصحراء، وبهذا كسبوا الحق في وجود قومي وزيادة، وإذا كان لإسرائيل يوماً أن تسقط فإن هذا سيلحق ضرراً بالغاً بالمصالح الغربية[1].

وفي الخلاصة، ساهم معظم الكتّاب والمثقفين والرحالة والمستشرقين والكتب المدرسية ووسائل الإعلام والقوى الاستعمارية والحركة الصهيونية في خلق صورة نمطية سلبية عن العرب والإسلام لدى الشعوب الأوروبية لم تنفع في إزالتها آراء أخرى تناثرت هنا وهناك، في كتاب أو صحيفة أو من خلال رأي مستشرق.

تتجلى الصورة الرومانسية، التي رسمها الكتّاب والشعراء للشرق، من خلال كتاب فيكتور هوغو **الشرقيات** الصادر عام ١٨٢٩، وقد قدم كتابه هذا بعبارات لشاعر إيران الكبير سعدي، مع مجموعة قصائد عربية وفارسية. وقد رسم لنا هوغو الصورة التي وضعها الشعراء والكتاب الأوروبيون للشرق في العام ١٨٢٥: فجور ملوّن، فخامة مع وحشية بربرية مع رؤوس مقطوعة، نساء يلقى بهن في مياه البوسفور وهن داخل أكياس، قلاع مزدانة براية الهلال، قبب مستديرة لازوردية ورشاقة المآذن البيضاء، جوارٍ، خصيان، ووزراء، ينابيع عذبة تحت النخيل، كفار يُذبحون وأسيرات يستسلمن لغراميات المنتصر الصاخبة[2].

وهكذا شكّل الأوروبيون، بسبب آراء ومواقف رجال الدين المسيحي والقادة العسكريين والرحالة والمستشرقين، صورةً عن العرب والمسلمين، إضافةً إلى أنها استندت على قاعدة الصورة التي رسمها البيزنطيون ويوحنا الدمشقي، فقد أضافت

١ إدموند غريب، "العرب في وسائل الإعلام الأميركية"، عن خضر ساري، مصدر سابق، ص١٠٣.
٢ **صورة الشرق في عيون الغرب**، مصدر سابق، ص٤٤.

صفات جديدة عن العرب المسلمين مثل أنهم وثنيون، وشاذون جنسياً، ومتوحشون، وشيطانيون، وذوو نزعة تدميرية، ومخربون ودمويون. ويحفل المعجم الأوروبي بالسمات السلبية التي تنسب إلى العرب، فهم كسالى، يعانون من القصور الأخلاقي، ويتّسمون بالعقم الفكري والضحالة الذهنية، بالرغم من أنه قد تكون حدثت تغييرات طفيفة على الملامح الرئيسية لهذه الصورة في الذهن الأوروبي الشعبي نتيجة لزيادة الاتصالات بين العرب والغرب[١].

وقد دامت هذه الصورة الخاطئة حتى منتصف القرن الثامن عشر، فقد اعتبر الشرق الأوسط الذي هو منبع اليهودية والمسيحية والإسلام، فضلاً عن حضارات أخرى بارزة وقديمة، معقل الجهل والحروب وأرض الوحوش والمخلوقات الغريبة، في الوقت الذي كان، في الواقع، ينعم بالازدهار السياسي والاقتصادي والديني والثقافي[٢].

كما ساهم رجال الدين والمحاربون والفرنجة (الصليبيون) والرحالة والمستشرقون والمستعمرون (سياسيون وعسكريون واحتكارات اقتصادية وغيرها) في رسم صورة العربي لدى الشعوب الأوروبية، وساهم الأدباء والكتاب أيضاً في رسم هذه الصورة، منذ بدء النهضة حتى عصرنا الحاضر. وقد لخص إبراهيم الحيدري في كتابه الهام والقيّم **صورة الشرق في عيون الغرب** آراء المجتمعات الأوروبية في هذه الصورة وتطور هذه الآراء في عدة مجتمعات أوروبية. كما شرح ناجي عويجان الموقف من هذه الصورة في إنكلترا من خلال كتابه **صورة الشرق في الأدب الإنكليزي**، وتركي المغيص في كتابه **صورة العرب في مرآة الاستشراق الألماني**. ونلاحظ من دراسة عصر النهضة في أوروبا ومن أفكاره ونشاطات المستشرقين أن معظم الكتّاب والأدباء الأوروبيين قد ساهموا في تشكيل هذه الصورة سلباً وإيجاباً، وبعضهم كان يراها بعين ثم غيّر وأصبح يراها بعين مختلفة.

تناول الكاتب الفرنسي الشهير مونتسكيو الاستبداد في كتابه **روح الشرائع**، فاعتبره "صيغة ملازمة للدين الإسلامي" وقال: "إن الحكومة المستبدة أكثر ملاءمةً للإسلام. وإن الإسلام لا يتكلم بغير السيف". واتّهم اللورد كرومر في كتابه **مصر الحديثة** الشعب

١ السيد ياسين، "الصورة القومية للعرب لدى الحوار العربي الأوروبي"، مصدر سابق.
٢ **تطور صورة الشرق في الأدب الإنكليزي**، مصدر سابق، ص٨-٩.

المصري بالتعصب الديني، وكان يحمّل الإسلام مسؤولية تخلّف مصر والعرب جميعاً.

من طرف آخر اهتم الأوروبيون والأميركيون اهتماماً كبيراً بالاستشراق منذ نهاية القرن الثامن عشر، وقد أنشأوا جمعيات ومؤسسات للاستشراق من أهمها:

١- في عام ١٧٨٧م أنشأ الفرنسيون جمعية للمستشرقين ألحقوها بأخرى في عام ١٨٢٠م، ثم أصدروا **المجلة الآسيوية**.

٢- وفي لندن تألفت جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية في عام ١٨٢٣م، وقبل الملك أن يكون ولي أمرها، وأصدرت **مجلة الجمعية الآسيوية الملكية**.

٣- وفي عام ١٨٤٢م أنشأ الأميركيون جمعية ومجلة باسم **الجمعية الشرقية الأميركية**، وفي العام نفسه أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم، وكذلك فعل المستشرقون في كلٍّ من النمسا وإيطاليا وروسيا.

٤- ومن المجلات التي أصدرها المستشرقون الأميركيون في هذا القرن **مجلة جمعية الدراسات الشرقية** وكانت تصدر في مدينة جامبير بولاية أوهايو ولها فروع في لندن وباريس وليبزيغ بألمانيا وتورونتو بكندا، وكان طابعها العام على كل حال طابع الاستشراق السياسي، وإن كانت تعرض من وقت لآخر لبعض المشكلات الدينية، وخاصةً في باب الكتب.

٥- وأصدر المستشرقون الأميركيون مجلة **شؤون الشرق الأوسط** وكذلك مجلة **الشرق الأوسط**، وطابعها على العموم طابع الاستشراق السياسي كذلك.

٦- وأصدر المستشرقون الأميركيون مجلة **العالم الإسلامي** التي مازالت تصدر حتى الآن[١].

وقد اهتم الأوروبيون بترجمة المؤلفات العربية، ولعل أول ما ترجموا كان كتاب **ألف ليلة وليلة** واهتموا بهذا المؤلف الذي يتناقض مع مجتمعاتهم التي طغت عليها الثورة الصناعية وما تبعها من تقاليد وعادات اجتماعية ضاقوا بها، ثم تمّت ترجمة كتاب أبي الفداء عن سيرة الرسول، وربما كانت مقدمة الكتاب أكثر موضوعيةً من كتابات الرحالة والمستشرقين والأدباء السابقة لها. فقد أشارت مقدمة هذا الكتاب

---

١ د. مصطفى السباعي، "الاستشراق والمستشرقون: أهداف الاستشراق ووسائله"، مجلة **حضارة الإسلام**، العدد ٩، السنة الثانية، ص٦٣-٧٩.

إلى أن النبي رجل عالمي سعى إلى توحيد العرب، وأن تجربته قامت على المسامحة والمصالحة والعفو، ووصفته بأنه درّة ثمينة في تاريخ العرب، وهذا ما حرّض فولتير على أن يتراجع عن آرائه المعادية للعرب والمسلمين وأن يعتبر النبي داعياً إلى المحبة والتسامح، وكذلك ديدرو الذي أشار إلى العبقرية العربية التي أنتجت محمداً[١].

كان الرحالة والمستشرقون الألمان أكثر موضوعيةً غالباً تجاه العرب والمسلمين، ورسموا لهم صورة إيجابية نسبياً تختلف عما رسمه المستشرقون الأوروبيون الآخرون. وقد سعت حركات في ألمانيا للتوصل إلى معنى الإبداع والروعة والخيال السحري عند العرب، حيث أسهم هيردر (١٧٧٦ - ١٨٤١) في دراساته التاريخية - الفلسفية عن الآداب الشرقية وإسهامات العرب والمسلمين في الفلسفة والعلوم التجريبية والثقافة الإنسانية، وقال: "لقد كان العرب أساتذة أوروبا". وكذلك شاعر ألمانيا العظيم غوته الذي كتب عام ١٧٧٤ قصيدته الرائعة "نشيد محمد" إضافةً إلى ما كتبه في **الديوان العربي - الشرقي** عام ١٨٦٩. أما فردريك شليغل (١٧٧٢ - ١٨٢٩) فقد اتّسمت فلسفته بأعلى ما وصلت إليه الرومانسية في ألمانيا، إذ دعا إلى البحث عن الرومانسية "في الشرق الأدنى"[٢].

لقد رسم المستشرقون الألمان صورةً بهيّة ومشرقة للعرب في أعمالهم وإسهاماتهم في سبيل خدمة التراث العربي وحضارة العرب والإسلام. فقد أعجبوا بالعرب وبصفاتهم وآدابهم وآثارهم الدينية والثقافية وبحياتهم وقيمهم وتقاليدهم وبالروح القتالية لديهم واعتزازهم بكرامتهم وكبريائهم[٣].

يقول هردر في كتابه **أفكار** عن اللغة العربية: "يرى العرب في لغتهم أعز ميراث يملكونه، وفي هذه اللغة الثرية الجميلة تكونت علوم وفنون شعرية وفلسفة عميقة" ثم يشيد بعلو همّة العرب وبنفوذ كلمتهم وقوة فكرهم، ويمتدح شعر العرب فيقول: "لا يوجد شعب شجّع الشعر وارتقى به كما فعل العرب"، ويثني على حياة العرب بقوله: "فعمائمهم هي التيجان على هاماتهم، وخيامهم هي قصورهم، وسيوفهم هي حصنهم، إنهم يتنفسون الحرية والإباء، وتملأ صدورهم روح المغامرة والفروسية

١ انظر **صورة الشرق في عيون الغرب**، مصدر سابق، ص٣٨.
٢ المصدر السابق، ص٤١.
٣ د. تركي المغيض، "صورة العرب في مرآة الاستشراق الألماني"، الإنترنيت.

وشرف الطموح، أوفياء للأصدقاء والحلفاء"[1].

وقد أعجب غوته بالعرب وأعلن بكل صراحة عن حبه لهم، ولهذا كان صديقاً للعرب في وقت كان العداء ضد العرب مستشرياً، كما أعجب بالإسلام. والعرب بالنسبة إلى غوته "أمة تبني مجدها على تراث موروث وتتمسك بعادات تعارفت عليها منذ القدم". وشغف غوته بأصالة قريحة العرب الشعرية وتذوقهم للغة وقدرتهم على التصور والتخييل، وافتتن بسمات تميّز بها العرب كالنزوع إلى الحرية والفروسية والبسالة، والقدرة على صياغة الحكمة بالعبارة الموجزة. وكان يقول: "نجد عند العرب كنوزاً رائعة في **المعلقات**" و"إن العرب يولدون شعراء وينشأون كذلك"[2].

ترجم هارتمان **المعلقات** وكتب مقدمة لها تحدث فيها عن كبرياء العرب وكرامتهم وكرم الضيافة عندهم فقال: "كان كبرياؤهم يحتّم عليهم استضافة الغريب وإكرامه وإشراكه فيما بقي لديهم من الزاد وحمايته والدفاع عنه إذا جاءهم مستغيثاً... إنهم يساعدون المحتاج وينصرون الضعيف، كما أنهم فرسان يتمتعون بروح قتالية عالية".

ويصف نولدكه العرب من خلال أدبهم وشعرهم فيقول: "تسري فيهم روح الرجولة والقوة، روح تهزنا هزاً مزدوجاً إذا ما قارنّاه بروح العبودية والاستخذاء التي نجدها في آداب كثيرٍ من الشعوب الآسيوية الأخرى". ورأى المستشرقون الألمان أن اللغة العربية والدين الإسلامي ساهما في اتحاد الشعوب التي حكمها العرب بحيث ذابت هذه الشعوب بتأثير قوة الشخصية العربية والروح العربية الفذة في وحدة ثقافية ذات تماسك عظيم. ويضاف إلى ذلك ما قدّمه العرب للغرب من طرق البحث العلمي القائمة على الملاحظة والتجربة، حيث أسّس العرب الطرق التجريبية في الكيمياء والطبيعة والحساب والجبر والجيولوجيا وحساب المثلثات وعلم الاجتماع. وترى هونكه أنّ العرب قدّموا للغرب أثمن هدية وهي طريقة البحث العلمي الصحيح التي مهّدت أمام الغرب طريقه لمعرفة أسرار الطبيعة وتسلّطه عليها اليوم[3].

---

١ المصدر السابق.
٢ المصدر السابق.
٣ المصدر السابق.



فهرس الأعلام

فهرس الأماكن

رسمت العلاقات التاريخية، السياسية والدينية والاقتصادية وغيرها، صورة العرب في ثقافات الشعوب الأخرى، وكانت سلبية في الغالب الأعم، بسبب وطأة الهيمنة العربية على بعض هذه الشعوب قديماً، والتعصب الديني والإرهاب حديثاً.

يلقي هذا الكتاب الضوء على علاقات العرب بمعظم الشعوب طوال خمسة عشر قرناً، ويخصّ منهم الفرس والترك والسلاف والصينيين والهنود والأفارقة واليهود والأوروبيين، حيث كان من نتائجها تشكيل الصورة المعاصرة وتخزينها في أعماق وعيهم، ويشير خاصةً إلى الظروف الموضوعية وإلى الفئات الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية وغيرها، التي لعبت دوراً هاماً في تشكيل تصورات الآخرين عن العرب.

حسين العودات كاتب وصحافي سوري، مجاز في الجغرافية واللغة الفرنسية، حائز دبلوم في الصحافة. تولى إدارة وكالة الأنباء السورية (سانا) ودار الأهالي للنشر. صدر له عن دار الساقي "النهضة والحداثة"، "الآخر في الثقافة العربية"، "المثقف العربي والحاكم".



ISBN 978-6-14425-774-6
9 786144 257746 >